علم الاجتماع الحضري

مدخل نظري

تأليف

الأستاذ الدكتور محمد عاطف غيث

عميد كلية الآداب

جامعة الاسكندرية

١٩٨٧

دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتير - اسكندرية

اهـــــــداء2005

أ.د.عباس عبد الحميد

جامعة الإسكندرية

علم الاجتماع الحضرى

مدخل نظرى

الأستاذ الدكتور محمد عاطف غيث
عميد كلية الآداب
جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية

مقدمة

هذا الكتاب له طابع متميز عما هو مألوف فى كتب علم الاجتماع الحضرى المتداولة من ناحيتين : الاولى ، أنه لم يستغرق كل الموضوعات التى تعود المؤلفون ادراجها على اختلاف منظوراتهم أو نوع المادة المتاحة أو الأهداف التى يسعون الى تحقيقها ، والثانية ، أنه لم يعالج على مستوى الوصف أو الاحصاء ، ظواهر تنسب الى الحياة الحضرية ، تتداخل مع تخصصات علمية أخرى وتبتعد عن مجال علم الاجتماع بشكل واضح . ولا يقتصر الامر على ذلك ، لان هدف المعالجة التى تمت فى الفصول التالية ، كان محاولة لاقامة بناء نظرى يعاون الباحثين على فهم طبيعة علم الاجتماع الحضرى ، وتصور مشاكله وتحديد عوامل التأثير الكبرى فى حياة المدينة ، والحضرية بوجه عام ، مما فرض مستوى من التجريد ، ليس مألوفا فى الدراسات الحضرية الجارية .

ان تاريخ البحث فى المدينة قديم ، قدم الحضارات الأولى فى تاريخ الانسان ، ولهذا نتوقع اشارات وانطباعات وأوصاف عديدة لطابع الحياة «الحضرية» ، تضمنتها كتابات متنوعه تناولت زوايا تاريخية أو اقتصادية ، كما أن الأعمال الأدبية والفنية من منظور تجارب مجتمعية تاريخية قد انطوت على مواقف ومشاعر وأحكام عن حياة الحضر فى مقارنة تنوعت اتجاهاتها بحياة الريف .

ولم يكن البحث الحضرى كله ثمره من ثمرات تطور علم الاجتماع ، أو نتيجة مصاحبة لنمو اهتماماته وتنوعها ، وانما ظهرت دراسات عن المدينة تبنت مداخل عديدة غير المدخل السوسيولوجى ، ومع هذا فبى اليوم ، وازاء الاحساس المتزايد بضرورة وضوح النموذج النظرى فى علم الاجتماع الحضرى تسهم بشكل واضح فى اثراء الدراسة التاريخية والمقارنة التى أصبحت الى جانب البحوث الأمبيريقية

التى تجرى فى مجتمع معين . ذات أهمية بالغة لدقة التحليل وسلامة النتائج العامة ، ولتقدم النظرية السوسيولوجية .

لقد أحس عدد يتزايد من الباحثين فى علم الاجتماع الحضرى . أن ما تنطوى عليه الكتب العامة فيه أو حتى البحوث الموجهة لاستكشاف مسائل ذات أهمية فى المدينة أو الحياة الحضرية ، لاتقدم شيئا له قيمة من وجهة نظر تقدم المعرفة أو بناء « نظرية المدينة أو الحضرية » لان القارىء أو الدارس يضل وسط ركام من المعلومات ذات الطابع الوصفى أو الاحصائى ، مما جعل ميدان علم الاجتماع الحضرى ، أكثر من غيره ، تتجاذبه علوم كثيرة اجتماعية وغير اجتماعية ، ويترجم هذا الاحساس ، بالحاجة الى معالجات أخرى على المستوى النظرى يمكن أن تضع من القضايا والافتراضات ما يعاون على توجيه البحث الحضرى اتجاهات أخرى قد تختلف ، أساسا ، عن الاتجاهات السائدة اليوم .

ومما هو جدير بالذكر أن افتقاد علم الاجتماع الحضرى، نظرية أو نماذج نظرية متعددة ، هو الذى جعل بعض الناقدين والمنظرين فى علم الاجتماع العام ، يعتقدون أن مشروعية قيام هـذا الفرع ، تحتاج الى معاودة نظر ، لان المدينة والحياة الحضرية ليست فى رأيهم نمطا متميزاً « نوعا » عن الأنماط الأخرى للحياة فى المجتمع الحديث ، كما أن اتساع نطاق الحضرية وتأثيراتها المتعددة قد أضاف تعقيدات وصعوبات عديدة فى فصل مركز التأثير عن مركز التأثر ، وفضلا عن ذلك فان معالجة ظواهر المجتمع ككل واستيعاب متغيراتها لايمكن أن يتم فى ضوء عزل لانماط عن أخرى داخل المجتمع الواحد .

ولعل هذا هو السبب الذى يكمن وراء المحاولات الأخيرة للتنظير فى علم الاجتماع الحضرى . وهو الذى حفزنى أيضا ، الى معالجة موضوعاته على مستوى معين من التجريد كمدخل نظرى ، قد يكون مفيداً فى توجيه البحوث الحضرية فى مجتمعنا ، واعطاء أساس يمكن الاعتماد

عليه فى المفاضلة بين وجهات نظر متعددة • ولقد انصب الاهتمام فى مطلع هذه المحاولة على الدراسة المقارنة باعتبارها مطلبا ضروريا لتحليل أكثر انفتاحا ، ودعوة الى نتائج تكشف عن قضايا أو افتراضات توسع نطاق المعرفة من ناحية ، وتسمح بمزيد من الاختبارات الأمبيريقية دون اغراق فى المحلية أو القومية •

ومع أن النماذج القائمة للدراسة فى المدينة تستمد أصولهــا من علوم متفرقة ، الا أن هذا المدخل النظرى قد ركز على تلك النماذج التى يمكن وصفها « بالسوسيولوجية » والتى تم ادراكها من خلال التأكيد على فكرة تكامل المتغيرات التى بتنميتها وتدعيمها يمكن أن تصلح لبناء موقف نظرى متكامل فى علم الاجتماع الحضرى •

ان هناك مادة متراكمة ، تثير مناقشات عديدة فى عــلم الاجتماع بوجه عام ، عن المحلية ، وأبعادها وأثارها وخصائصهــا أدت الى نمو الاهتمام بما يسمى « المجتمعات المحلية » باعتبارها أنماطا متمايزه أو متداخلة أو متصلة تعكس تجارب متنوعة للحياة الاجتماعية فى المجتمع الحديث ، ولازالت تحمل تاريخيا رواسب تجارب الانسان الاجتماعية والمجتمعية القديمة ، ومن هذه الزاوية أعتبر كثير من الباحثين المدينة ، وحضريتها ، نوعا من المجتمع المحلى الذى يمكن أن يشــكل موضوعا متكاملا للدراسة ، وفى هذا الصدد تتم المعالجة العلمية فى ضوء ارتباط هذا المجتمع المحلى « المدينة » بمجتمع محلى آخر « القرية » لاينعزل عنه كلية ، وانما بشكل معه امتداد واحــدا لتجربة الانسان المتصلــة النامية •

وقد استدعى الاهتمام بالمجتمع المحلى الحضرى ، التركيز عــلى المدينة باعتبارها « مركزا نمطيا » له ، عــلى الرغم من ان كثــيرا من الباحثين يتصورون أن المدينة تشكل الموضوع الأساسى فى علم الاجتماع الحضرى ، ويبدو ذلك واضحا من المؤلفات العديــدة التى ظهرت تحت

عنوان « المدينة » أو علم اجتماع المدينة . وربما كان هذا الاتجاه هو الذى دعم من خلال مناقشة « منظور الدراسة » الى ظهـور تعريفات متعددة للمدينة تكشف عن مداخل عديدة أنطـوت على مجموعـة من المفاهيم ، تصلح سوسيولوجيا لتجنب عدم وضوح النماذج النظرية أو عدم دقتها ، فى محاولة لاثراء التحليل ووضعه فى مسـاره الصحيح ، وتطلعا الى نتائج تضيف جديدا الى معرفتنا بطبيعة المدينة وخصائصها والمشاكل التى تطرحها فى طريق تجربة الانسان المتقدمة .

الاسكندرية ، ابريل ١٩٨٥

عاطف غيث

الفصـــل الأول

مدخـــل نظرى مقــــارن

ان وضوح الاطار النظرى فى كـــل دراسة تجرى فى ميدان علم الاجتماع أصبح مطلبا ضروريا يسبق أى بحـــث أمبيريقى أو الحصول على مادة وصفية • ومهما تعددت الأطر النظرية الى درجة التناقض فى بعض الأحيان ، فان ذلك لايعفى الباحثين من ضرورة تحديد النموذج النظرى الذى يوجه اختيار مشكلة البحث ونطاقه وعلاقته بميدان المعرفة المتراكمة ، والذى يحدد فى نفس الوقت مستوى التحليل وأبعاده ، وبغير هذا لن يتمكن علم الاجتماع من فهم المجتمع وتصور مشاكله بكل ماتحمله من تراثها التاريخى وارتباطاتها بالحيـــاة المعاصرة المتزايدة التعقيد • وقد ظهر ذلك بكل وضوح فى السنوات الأخيرة تحت وطأة مجموعة من العوامل • من أهمها تخلف الفهم والتحليل فى علم الاجتماع عن تقديم صور متكاملة للحياة العصرية المتغيرة والمشاكل والصراعات الناجمة عنها، وعجزه عن الاسهام الفعال فى مسيرة التنمية ومواجهة قضاياها المتداخلة وخضوعه لتوجيهات ومصالح فئـــات وجماعـــات معينة ، حجبت عنه نظريا وتطبيقيا ، الرؤية الشاملة والمتعددة الجوانب لديناميات الواقع المحلى والعالمى ، ودخول اطار نظرى جديد ميدان البحث ، صنع قبل تحوله الى النطاق الاكاديمى ، واقعا اجتماعيا ثقافيا مختلفـــا عن ذلك الواقع الذى أعطى للصياغات النظرية التقليدية فى علم الاجتماع مشروعية لمدة طويلة (١) •

---

(١) يعتبر ميلز من أوائل علماء الاجتماع فى أمريكا الذين قادوا حركة التمرد على الأوضاع التقليدية فى علم الاجتماع فى كتابه الشهير « الخيال السوسيولوجى »

C. Wright mills, The Sociological Immagination

واذا كان علم الاجتماع بصفة عامة يعاني ، نسبيا أو يفتقد التكامل النظرى فان الموقف فى علم الاجتماع الحضرى ، وهو فرع حديث منه ، أكثر تفاقمــا ، لأن ظروف اتساع نطــاق المدن فى الولايــات المتحدة الأمريكية ، موطن نشأته الأولى ، قد فرضت فى أول الامر وحتى هذا الوقت تقريبا ، الاهتمام بمشاكل المدينة من أجــل أهداف عملية تتعلق بالضبط والسيطرة والمواجهة ، أكثر من الاهتمام بتقدم المعرفة والوصول الى صياغات نظرية تسهم فى اثراء النظرية العامة لعلم الاجتماع . ولهذا يحمل علم الاجتماع الحضرى حتى اليوم طابع الاهتمامات الأولى . ولعل هذا هو الذى يفسر المداخل العديدة اليه ، التى قد تنتمى فى الواقع الى فروع أخرى من المعرفة كالجغرافيا والايكولوجيا والهندسة وعلم النفس والاجتماع والاقتصاد . الا أن المراجعــة الواسعة النطاق . للموقف النظرى فى علم لاجتماع بوجــه عام قد انعكست عــلى علم الاجتماع الحضرى من زاويتين : الأولى ، محاولة وضع اطــار نظرى مستمد من تحليل المادة المتراكمة عن المدينة والحياة الحضرية ، ينبــع أساسا من الاطار الأوسع للنظرية السوسيولوجية . والثانية ، محاولة

= وقد تتابعت الكتابات فى السنوات الأخيرة التى تؤكد على ضرورة السبق النظرى أو الوضوح النظرى أو الأنفتاح على الفكر العالمى أو اعادة النظر بوجه عام فى النظرية العامة لعلم الاجتماع . أنظر من أجل ذلك ما كتبه ألفين جولدنز فى كتابه The Coming Crisis of Western Sociology ، وما كتبه هورفتز عن أزمة الامبيريقية فى علم الاجتماع فى تقديمه لكتاب علم الاجتماع الجديد The New Sociology, 1966 وقد حاول فريدركس فى مؤلف فيبر أن يتبــع نمو النظريــة فى علم الاجتماع بردهــا الى الظروف الاقتصاديــة والاجتماعية والصراعات العالمية والايديولوجية وأقام تحليله على الافكار التى جاءت فى كتاب توماس كن عن « بناء الثورات العلمية » أنظر :
Robert Friedrichs; The Sociology of Sociology; 1970.

تجديد نطاقه ليتبنى البحث مدخلا سوسيولوجياً واضحــاً ، فى الوقت الذى يمكن استكمال هذا المدخل من أجل الفهم المتكامل بمداخل أخرى تطوع للمدخل الاول وتسهم فى اثرائه وقدرته على التحليل • (١) كما أن انفتاح الباحثين فى المجتمع الحضرى عامة وفى المدينة بوجــه خاص على الدراسات المقارنة فى مجتمعات أخرى أوربية وغير أوربية فى الوقت الذى تزايد الاهتمام فيه بتاريخ الاقامة الحضرية أو بتاريخ المــدن قد أعطى للدراسات الحضرية بعدا جديداً أو منظورا أوسع لاشك فى أنه سوف يؤدى الى نضج النظرية وامكان الوصول الى نماذج محددة فيها تجعل من الوصف القائم أو الدراسات ذات الطابع لامبيريقى أهمية فى نمو النظرية أو فى تعديل بعض جوانبها أو ربما خلق نظرية جديدة تماما•

ولعل هذا هو الذى جعــل هذا المدخل النظــرى المقارن نقطة الانطلاق للدراسات التى تتناول فهم المدينة والحياة الحضرية فيما بعد، تلك التى سوف تعالج أيضا بابراز متضمناتها النظرية • ان المادة النظرية التى يمكن أن تشكل المدخل لعلم الاجتماع الحضرى بوضعه الراهن على الرغم من ضآلتها فهى متناثرة فى دراسات ومؤلفات متعددة ولهذا فانى

---

(١) يظهر هذا الاتجاه فى المحاولات العديدة لنقد وتصحيح نظريــة لويس ويرث وروبرت ردفيلــد والاهتمام بتاريــخ المدن والحياة الحضرية وربط النظرية الحضرية بالنظرية السوسيولوجية مــن خلال كتابات ماكس فيبر وتونيز ودور كايم وغيرهم ، أنظر الكتاب الذىأشرف علىاصدارمكلمن هاتورايس Cities and Society, 1961 وكذلك ماحاوله ألفين بوسكوف لتوضيح الموقف النظــرى فى علم الاجتماع الحضرى فى كتابه The Sociology of urban Regions, 1970 والدراسات التى عرضها ريتشارد سنتفى Classic Essays on the Cultyre of Cites, 1969 والطريق التى اقترحها مان والنظرية الملائمة فى كتابه An Approach to Urban Sociology

سأعرض فيما يلى ما مالأراه مهماً وصالحا لامكان تحديد موقف نظرى مبدئى فى علم الاجتماع الحضرى •

أولا : نظريـــة لويس ويرث :

لانكاد نجد كتابا تتناول دراسة المدينـــة أو الحياة الحضريـــة الا وتعرض لنظرية « لويس ويرث »سواء بالقبول أو بالرفض أو بالتعديل• ويرجع ذلك الى أن « ويرث » ، حاول فى نظريته أن يصـــل الى قياس مقبول وواقعى يمكن أن يكون من الناحية المقارنة صالحا لتمييز أنواع أو انماط متعددة من الحياة الاجتماعيـــة التى ينطوى عليهـــا المجتمع الحديث ، كما يرجع الاهتمام بنظريته الى أن كثيرين من البـــاحثين فى المجتمع الحضرى وجدوا أنها يمكن أن تكون مدخلا مناسبا يتبنى وجهة نظر علم الاجتماع ويتغلب عـــلى الصعوبة الكامنة فى تعـــدد المداخل والمقاييس التى كان يدرس من خلالها علماء الاجتماع الحضرى المدينة أو يحللون فى ضوئها ديناميات الحياة الحضرية [١] • •

اهتم « لويس ويرث » فى مطلع نظريته بالكشف عن صور الفعل الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى التى تظهر فى المدن بوجه عـــام واعتقد أن مثل هذه الصور يمكن نسبتها منطقيا الى الحجم المتزايد للضخامة المدنية والى كثافة السكان وعدم تجانسهم ، الا أنه تجنب اعتبار هذه

---

(١) ظهرت مقالة لويس ويرث التى ضمنها نظريته عـــن الحضرية فى المجلة الامريكية لعام الاجتماع VoL. 44 1938, pp., 1-24 وقد أعيد طبعها عدد مرات كما هى فى عدد كبير من المؤلفات التى تعالج علم الاجتماع الحضرى أو حتى كتب علم الاجتماع العامة • أنظر
Hatt and Reiss, Cities and Societies N.Y., 1961, PP. 46 - 65.
أما التعليق عليها ، لا يكاد يخلـــو عنه كتاب صـــدر حتى الآن عن المدينة أو الحياة الحضرية ، أنظـــر كتاب نلز أندرسون عن
Urban Community,

الخصائص بمثابة العوامل التى يمكن أن تؤدى الى نتائج مباشرة تطبع حياة المدينة بطابع خاص يميزها عن أى طابع آخر لاى تجمع انسانى مختلف ، واكتفى فى هذا الصدد بأن يؤكد أن الحجم الكبير والكثافة العالية للسكان ولاتجانس حياتهم الاجتماعية « المنظمة » انما تؤدى الى مجموعة من القضايا يمكن أن تصلح لتحليل حياة المدينة أو الحياة الحضرية بوجه عام • ويمكن تلخيص هذه القضايا على النحو الآتى :

١ — ان الروابط السطحية والضعيفة التى تربط سكان المدينة بعضهم ببعض ذات صلة وثيقة بنموها وتباين سكانها ، وقد توصل الى ذلك « ويرث » من مقارنة سكان المدينة الذين يتعرضون لتجديدات وتغيرات اجتماعية مستمرة تؤدى الى تغير وتعديل انتماءاتهم الثقافية ، بسكان القرية الذين يستطيعون أن يعيشوا دون أى تغير يذكر فى ظل تراث ثقافى مشترك • ويعتقد « ويرث » أنه نتيجة لهذا التباين بين سكان المدينة ، فان الضبط الاجتماعى وخاصة فى جوانبه الرسمية يصبح ضرورة ملحة ، من أجل الوصول الى وحدة نسبية فى السلوك بهدف فرض التراث المشترك • ويمكن الوصول الى ذلك عن طريق الفصل الفيزياتى بين الجماعات المتباينة التى تكون مجتمع المدينة ، واذا تم هذا فان فرض التفاعل بين هذه الجماعات تكون أكثر ترددا ، لأن الناس فى رأيه يميلون الى التفاعل مع من يختلفون عنهم • واذا كانت نتيجة التفاعل النهائية ، هى اكتساب سمات أو خصائص جديدة أتيحت الفرص لظهور مناطق متجانسة نسبيا داخل المدينة ترتبط بعضها ببعض بروابط من أنواع متعددة ومختلفة •

٢ — كلما نما حجم المدينة ، قل احتمال معرفة الفرد ببقية سكان المدينة معرفة شخصية ، الأمر الذى يؤدى الى تغير طابع الحياة الاجتماعية ، ومع أن عدد الأشخاص الذين يتصل بهم الفرد أو يعتمد عليهم فى المدينة كبير نسبيا ، الا أنه لايعتمد فى حياته مع ذلك على أشخاص معينين • ويستنتج « ويرث » من ذلك أن العلاقات الاجتماعية

التى يكونها الفرد فى المدينة تتميز بأنها علاقات غير شخصية وسطحيه ومؤقتة ولها الطابع الانقسامى ، كما أن ساكن المدينة ينظر الى مايكونه من علاقات اجتماعية على أنها وسائل لتحقيق أهدافه الخاصة • ولهذا توصف بأنها ذا طابع عقلانى • ويرى « ويرث » أن قيام العلاقات الاجتماعية على هذا النحو يؤدى الى فقدان التعبير الذاتى والتلقائى والروح المعنوية والاحساس بالمشاركة الذى يميز الحياة فى المجتمع المتكامل • وواضح من ذلك أن « ويرث » يقارن هنا بين العلاقات التى تظهر فى الجماعات الأولية المميزة لحياة القرية ، والعلاقات التى تظهر فى الجماعات الثانوية المميزة لحياة المدينة (١) •

٣ ــ يقوم تقسيم العمل فى المدينة وخاصة فى مستوياته العليا على قاعدة أخرى غير تعميق التخصص من أجل الانجاز السريع والوصول بالأداء الى أعلى درجاته ، وانما يرتبط بنوع العلاقات المترتبة عليه والتى يمكن استخدامها لتحقيق أهداف معينة ، ومن النتائج البارزة التى أشار اليها « ويرث » فى تقسيم العمل ، ذلك الاتجاه الذى يتبلور نحو سيطرة الشركات الكبرى أو المؤسسات على حياة الأسر الصغيرة وعلى نوع الوظائف التى تقوم بها أو عددها • ومعنى ذلك فى رأيه أن المدينة تفتقد روح العائلة باستمرار ، لان الأساليب النظامية التى تطبقها الشركات والمؤسسات لاتحتمل انتشار علاقات المودة والمجاملة

---

(١) دخلت فكرة العلاقات الأولية والعلاقات الثانوية من خلال تقييم تشارلس كولى Charles Cooley للجماعات الى أولية تسود المجتمعات الصغيرة وثانوية تسود المجتمعات الكبرى المعقدة • كما أن مثل هذه الافكار ، عبر عنها دوركايم بصورة أخرى ، فى كتابه عن تقسيم العمل ، وتونيز عندما كان يفرق بين أنواع الجماعات والمجتمعات على سلم حضارى متدرج التعقيد •• أنظر:
Don Martindale; Nature and Types of Sociological Theory. London, 1967.

أو حتى العصبية التى تميز المجتمع الريفى ، ولهـذا فان الوصول الى التكامل الاجتماعى فى المدينة والذى يعتبر أمراً ضروريـا ، يتطلب قيام مجموعة من القواعد الخلقية وآداب السلوك داخـل الجماعات المهنية المختلفة الأمر الذى تصبح المدينة بدونها ، كما تصبح علاقـات العمل فيها ، عرضة للتصدع •

٤ ــ اذا ازداد السوق نمواً صاحبه زيادة كبيرة فى تقسيم العمل ، مما يؤدى الى قيام المدن بوظائف اقتصادية مختلفة تعتمد فيهـا على مواردها الخاصة ، وقد يمتد التخصص الى طابـع المدينة ، فتتخصص واحدة فى منتجات ، وتتخصص أخرى فى منتجات مختلفة ، ولهذا تتحول أسواق المدن الى أسواق قومية ودولية • ويستنتج من ذلك « ويرث » أن زيادة التخصص وما يصاحبه من زيادة الاعتمـاد المتبادل يؤدى الى اختلال التوازن فى المدينة (١) •

٥ ــ تؤدى زيادة حجم المدينة الى احتمال تعرضها للامتداد خارج حدودها التقليدية مما يستحيل معه اجتماع سكانها فى مكان واحد ، وهذا يفرض ايجاد وسائل أخرى للاتصال سواء لنقـل الأخبار أو الآراء أو لاصدار القرارات غير تلك الوسائل التى عرفها المجتمع التقليدى الذى كان يعتمد على الاتصال المباشر فى هذا كله ، ومعنى ذلك أن « ويرث » يشير الى الدور الذى تلعبه وسائـل الاتصال الحديثـة التى أصبحت

---

(١) الفكرة التى يرمى اليها ويرث هنا ، أن زيادة التخصص تؤدى الى زيادة التباين الاجتماعى ، وربما الى زيادة حجم المـدينة وكثافة سكانها ، الأمر الذى يزيد من حجم المشاكل التى تتعرض لها ، تلك التى لو تركت دون ضبط نظامى يمكن أن تسهم فى اختلال التوازن ، أنظر فى هذا الطبعة الثالثة من كتاب روبرت ميرتون وآخرين عن المشاكل الاجتماعية المعاصرة
Contemporay Social Problems, N.Y., 1970.

موضع الاهتمام منفصلة عن الدراسات الحضرية كفرع مستقل من علم الاجتماع ومتداخل مع علوم أخرى كعلم النفس الاجتماعى ودراسات الادارة والتنظيم وغيرها .

٦ — اذا زادت كثافة السكان فى منطقة معينة زادت فرص ظهور التباين والتخصص . ويستنتج من ذلك « ويرث » تلك الصلة التى تربط زيادة الحجم بزيـادة التخصص . ويرى فى نفسـ الوقت أن التباين والتخصص أمران ضروريان لتستطيع المدينة أن تواجه الأعداد المتزايدة فيها ، الا أنه يصعب فى بعض الأحيان ايجاد صلة منطقية بـين الحجم والتباين فى كل أنواع المدن على مستوى المقارنة فى مجتمعات مختلفة ، بل أن الأمر يكون أكثر صعوبة اذا كانت هذه القاعدة عامة بالنسبة لكل أنواع التجمعات الانسانية ، ذلك لأنه فى حالات كثيرة يمكن أن يزداد التباين كما يزداد التخصص دون أن يترتب على ذلك زيادة جوهرية فى الحجم .

٧ — هناك اختلاف واضح بين الاتصال الفيزيائى فى المدينة وبين الاتصال الاجتماعى ، فالاتصال الأول يتميز بالشدة بينما يتميز الاتصال الثانى بالسطحية ، وهذا هو الذى جعل السكان فى المدينة يصنفون الى فئات لكل منها رموز تدل عليها تتمثل فى أزيائهم أو ممتلكاتهـم المادية ومعنى هذا أن « ويرث » يريد أن يوضح أن المدينة تنقسم الى فئات أو طبقات أو ربما الى مناطق متمايزه المستوى الاجتماعى والاقتصادى يمكن ادراكها بسهولة عن طريق بعض الخصائص التى تتعلق بالزى أو اللهجة أو العادات أو المستوى المعيشى العام .

٨ — التنافس على المصادر النادرة وبالأخص فيما يتعلق باستخدام الأرض المتاحة فى المدينة يجعل « حيازتها » متوقف عـلى من يتوقعون أكبر عائد اقتصادى من استغلالها ، ويستنتـج من ذلك « ويرث » أن المناطق المتعددة التى تتكون منها المدينة تلبى أهداف سكانهـا بطريقة

مختلفة وتتوقف الى حد كبير على مكانتهم الاجتماعية وأنواع الأعمال المتاحة وخصائص هؤلاء السكان أو مستويات النظافة والهدوء وغير ذلك من العوامل التى تحكم اختيارات الناس للاقامة فى مناطـق معينة أو أستغلالها دون غيرها • وهكذا يصبح من الممكن تحديـد نوع الفئات السكانية أو الطبقات الاجتماعية التى تسكن مختلف أجـزاء المدينة • ويضيف « ويرث » الى ذلك أن سكان المنطقة الواحدة الذين لهم خلفيات متشابهة ومطالب تكاد لاتختلف كثيرا من فرد الى آخر يواجهون ظروف الحياة متأثرين سواء بطريقة مقصودة أو غير مقصودة بطابـع الحياة الذى يميز اقامتهم •

٩ — يفوق طابع المنافسة أو الاستغلال المتبادل طابع التعاون نظرا لعدم وجود الروابط الانفعالية والعاطفية بين من يعملون معا أو بين من يسكنون المنطقة الواحدة ، ويعلق « ويرث » على ذلك فيقول أنـه اذا كانت الكثافة العالية للسكان لاتؤدى الا الى اتصالات فيزيائية كثيفة وحياة اجتماعية سطحية فان احداث التوازن فى المدينـة والابتعاد عن عوامل التصدع المحتملة ، لايمكن تجنبها الا عن طريق ايجاد نظم محددة وهادفة تستطيع أن تقوم بضبط الاتصال بين الناس وتوجيهه بصورة أو بأخرى لتحقيق التوازن بين روابط المكان والعلاقات الاجتماعية أو النظامية التى تجعل الحياة فى الأماكن المزدحمة ممكنة ، ويضرب ويرث مثلا على ذلك باشارات المرور ورجال الشرطة وضوابط الوقت وغير ذلك•

١٠ — أن التفاعل بـين الأدوار المختلفة قد يعمـل على تحطيم الفوارق الطبقية الطفيفة ، ذلك لأن ساكن المدينة ينتمى فى الواقع الى جماعات متعددة تعرضه لضوابط مختلفة ، مما يترتب عليه فى كثـير من الأحيان أن تتعدد صور المكانة الشخصية والاجتماعية ، ويستنتـج من ذلك « ويرث » أن البناء الطبقى فى المدينة أقل وضوحا منه فى أى مكان آخر ، الا أن ربطه أو تفسيره للطبقة على أسـاس الأدوار والمراكز لصاحبة لها وهو ما جرى عليه تحليل البناء الطبقى فى عـلم الاجتماع

الأمريكي ليس صحيحاً لأن الوجود الطبقي كما حددته دراسات عديدة قديمة ومعاصرة يعتمد علـــى عوامل أخرى أكثر عمقاً من فكـــرة الدور والمركز (١) •

١١ — أن الانتماء الى جماعات مختلفة يؤدى الى ولاءات مختلفة ومتصارعة لأن كل جماعة قد تتطلب نماذجا من السلوك يتعارض مع ما تتطلبه جماعة أخرى • ويستنتج « ويرث » من ذلك أن ساكن المدينـــة يكون أكثر عرضة للتنقل الاجتماعي والجغرافي وأضعف ولاءاً للجماعة أو تثبيت أو حتى للمدينة نفسها ويتحول الاحساس بضعف الولاء الـــى اتجاه للسفسطة أ والجدل خصوصا اذا كان الأمر يتعلـــق بالمبادىء أو الايديولوجيات • ان هـــذه القضية التى أثارهـــا « ويرث » وان كانت تقليدية فى تراث علم الاجتماع الأمريكي الا أنها تعرضت للنقد الشديد ذلك لأن الجماعات التى ينتمى اليها الفرد فى المدينـــة ليست بالضرورة متشابهة تنظيما وأهدافاً مما قد يوقع أعضاءها فى حيرة أو يطرح أمامهم مسألة الولاء ، وخاصة اذا كانت هذه الجماعات من النوع الذى يتكون بناء على أفكار أو مبـــادىء أو ايديولوجيات تتعلق بنظـــام المجتمع أو

---

(١) أن المناقشات العديدة فى علم الاجتماع الأمريكي عـــن الوجود الطبقي ، حاولت جميعها (تقريبا) أن تبنى منظوراً يتعارض مع المنظور الماركسي ، ويحيل الوجود الطبقي الى مناقشة عن الأدوار والمراكز ويربطه بالنسق القيمي • وجدير بالذكر أن ويرث كـــان يكتب فى الوقت الذى كان فيهلويد وورنر ومعاونيه يحاولون دراسة الحياة فى المدينة الأمريكية وكذلك الوجود الطبقي بتطبيق منهج أنتروبولوجى معدل أنظر :

Warner and Hunt : The Social life of a Modern Community, 1949

وأنظر كذلك الكتاب الهام الذى كتبه ريزمان عن الطبقة فى المجتمع الأمريكي

Leonard Reissman, Class in American Society; N.Y., 1961.

بتنميته أو بحل مشاكله كما أنه ليس من المعقول حتى فى المجتمعات التى تأخذ بنظام تعدد الأحزاب أن ينتمى الفرد الى حزبين متعارضين فى نفس الوقت . وربما كان « ويرث » يشير الى عينة من الأفراد الذين تحدمهم حياة المدينة أو يفشلون فى التكيف معها أو لا يحصلون على فرص للحياة أفضل بالمقارنة مما يمكن أن يحصلوا عليه فى مكان آخر .

١٢ — عندما يمتزج تقسيم العمل بالعلاقات الانقسامية يكون له تاثير كبير لأن الرموز التى تشير الى مكانة الشخص الاجتماعية تصبح مقننة لما لها من فائدة واضحة من الناحية الاقتصادية . ويعتقد «ويرث» أن هذا التقنين يعمل على تدعيم الثقافة المشتركة فى المجتمع لأنه يوجد بين مكونات الثقافة المادية وبين رموزها التى يشترك الناس جميعا فى تقييمها أو تقديرها ، موافقة أو تطلعا .

لقد كتب « ويرث » نظريته التى أشرنا الى أهم قضاياها فى الوقت الذى كان الاهتمام يتركز فى جامعة شيكاجو بالدراسات الاجتماعية فى الثلاثينات من هذا القرن . حيث شكلت دراساته ودراسات عدد آخر من علماء الاجتماع وعلى الأخص « روبرت ردفيلد » تأثيرا قويا على مجرى النظرية والبحث فى علم الاجتماع الأمريكى وكان الهدف من نظريته ايجاد صيغة نظرية لفهم المجتمع الحضرى الأمريكى ، باعتباره نمطا متزايد الوضوح فى الحياة الاجتماعية يقابل ذلك النمط الذى كان « روبرت ردفيلد » يحاول أن يبلور أبعاده وهو الذى سماه Folk Society . وقد أثارت نظرية « لويس ويرث » تعليقات عديدة وانتقادات كثيرة على الرغم من أنها قد اعتبرت فى ذلك الوقت ، بل وحتى وقت قريب ، من أهم الاسهامات النظرية فى توضيح معالم دراسة الحياة الحضرية . ويرى « موريس Morris » أن « ويرث » لم يقصد أن الحضرية كطريقة فى الحياة تقتصر على سكان المدينة ، لأن آثار المدينة يمكن أن تمتد الى أبعد من حدودها الادارية . كما أن سكان المدينة ليسوا جميعا حضريون بالضرورة لأن جزءا منهم ، صغر أم كبر

قد يكون مهاجرا اليها ولم يتفاعل بعد ، أو لم يكتسب سمات الحضرية، ولهذا لم يربط بين وجود السكان فى المدينة وبين اتباعهم لطرق حضرية فى الحياة ، لأن الحضرية تعبر عن مجموعة النظم الاجتماعية والاتجاهات التى تظهر عندما يستقر الناس لمدة طويلة ، وفى شكل جماعات كبيرة تتميز بالكثافة العالية واللاتجانس ، وتزداد زيادة ملحوظة وتتغير فى نفس الوقت اذا زاد حجم المدينة أو نمت الى مالا نهاية • ومن أجل هذا تكون خصائص الحياة الحضرية عند « ويرث » هى النتائج المصاحبة للبيئة الواسعة ذات الكثافة السكانية الكبيرة التى تتميز بعدم التجانس (١) •

ويترتب على ذلك أن الحجم عند « ويرث » مؤشر ضعيف للحضرية ، لأن سكان بلدة صغيرة قد يكونون أكثر تحضرا فى أساليب حياتهم من سكان بلدة أكبر منها على الرغم من أنهما يقعان فى منطقة ريفية واحدة ، لأن ظهور أساليب الحياة الحضرية لايتوقف على الحجم عندئذ ولايتوقف كذلك على كثافة السكان أو لاتجانسهم ، وانما قد يعتمد على استعداد القرويين للتأثر بمدينة حضرية قريبة • وقد دلل بيترمان Peter Mann على هذه النقطة (٢) عندما عقد مقارنة بين سكان عدد من البلدان الصغيرة الحجم القليلة الكثافة والمتجانسة ، فوجد أنهم قد يكونون أقدر على اصطناع نماذج السلوك التى سماها « ويرث » بالحضرية لأنهم يقعون داخل منطقة أكبر تزاد فيها الطرق الحضرية فى الحياة ، كذلك فانه من المنطقى ولسلامة الاجراءات المنهجية

---

(١) راجع فى هذا النقطة ومابعدها تعليق موريس على نظرية ويرث فى كتابه عن علم الاجتماع الحضرى

R. N. Morris, Urban Sociology, 1968

وما كتبه مان فى كتابه An Approach to Urban Sociology, 1970.

وكذلك تعليق كل من هات ورايس فى « المدن والمجتمع » •

2) Peter Mann, Op. Cit., PP. 28 - 69 and 149 - 183.

الا تتم دراسة مدينة بمعزل عن المنطقة المحيطة بها لأن العلاقات التى يكونها سكان المدينة بالمناطق القريبة أو البعيدة الريفيـــة أو الحضرية يمكن أن يكون له تأثير كبير فى اتجاهات وطابـــع الطرق المستخدمة فى الحياة .

ان تحليل « ويرث » يتضمن من غير شك قدرا كبيرا من التجريد أو هو بمعنى أصح نوع من النموذج المثالى الذى لاينطبق عـــلى مدينة بالذات وانما يصلح كاطار للتحليل تقترب منه المدن أو تبتعـــد حسب ظروفها وتاريخها وخصائصها ، واذا كان هذا صحيحا فهو صحيح كذلك بالنسبة لدراسة أقسام المدينة الواحـــدة اذ لا يمكن أن نقارن هـــذه الأقسام بعضها مع الآخر بناءاً على الحجم ونربط الزيـــادة والنقصان فيه بمستوى معين فى طريقة الحياة الحضرية ، وفى هذا نجد أن عبارة « ويرث » التى ذكر فيها أن تأثير المدينة من النوع الذى يطلـــق عليه اسم متروبوليس Metorpolis يمتد الى أبعد من حدودهـــا الادارية فيتخطاها الى منطقة واسعة المدى عبارة صحيحة .

ان التعريفات التى وضعها « ويرث » لم يكن يقصد منها كما يقول « موريس » استغراق جميع الخصائص التى تمثلها المدينة ، وانما كان هدفه انتقاء أقل عدد من الخصائص وأكثرها عمومية فى نفس الوقت لكى يحدد عن طريقها طبيعة الحياة الحضرية ، ولكن تأمل هذه الخصائص يجعلنا نصل الى نتيجة لا مفـــر ، هى أن « ويرث » أهمـــل الظروف التاريخية التى مرت على المدينة ،وحصر كل اهتمامه وبنى كل استنتاجاته على نمط المدينة الأمريكية أو على الأقل على نمط المدينة فى المجتمعـــات الأوربية الكبرى ، لان اقتصـــاد المدن ــ تاريخيا ــ لم يعتمد كلية ــ وبصورة مقارنة ــ على نظام المصنع أو الشركات الكبرى،كما أن كل المدن لم تكن محاطه بالضرورة بمناطق متخلفة ، يضاف الى ذلك أنه ليس من المفهوم ، لماذا تجنب « ويرث » الوصول الى النتائج الضروريـــة التى تترتب على عوامل نمو الحجم وزيادة الكثافـــة واللاتجانس ، ولو كان

قد أعتبرها متغيرات مستقلة تؤدى الى تنظيمـات اجتماعية مصاحبة ، لكانت نظريته قد سجلت اتجاها واضحا فى الدراسات الحضرية .

نقـد وتقييـم :

١ — كان « ويرث » يهدف الى اقامة تعميمات تنطبق على جميع المدن « كنموذج مثالى » الا أن بعض الاستنتاجات التى ترتبت على ذلك لاتنطبق الا على المدن الصناعية فحسب ، وقد يرجع ذلك الى أن خبرة « ويرث » والبحث الذى أجراه ومنه استنتج هذه الخصائص ، أعتمد كلية على ظروف المجتمع الامريكى فى العشرينيـات والثلاثينيات ، تلك الفترة التى تزايدت فيها الهجرة وبأعداد كبيرة من مختلف بلاد العالم التى كان أغلبها أقل تحضرا من الولايات المتحدة الامريكية . وقد تفسر نتائج هذه الهجرات ذلك الاهتمام الذى ظهر فى علم الاجتماع الحضرى الامريكى بوجه عام بمشاكل المدينة أو بتفككها والذى ظهر أيضا بنفس الدرجة وبصورة منتظمة فى تحليلات « ويرث » ، ويقول بيترمان وغيره من المهتمين بالدراسات الحضرية ، ان وصف العلاقات السائدة فى المدينة بأنها من النوع الثانوى فى مقابل العلاقات الأولية التى ينطوى عليهـا المجتمع الريفى ، وأن التغير من الريفية الى الحضرية يتضمن تغيرا فى نوعية العلاقات من الأولية الى الثانوية قول غير دقيق ، ذلك لأن حجم العلاقات الأولية التى يكونها ساكن المدينة كبير فى الواقـع اذا قورن بحجم العلاقات الأولية التى يكونها ساكن القرية . واذا كان الحضرى يكون علاقات ثانوية مع مجموعات أو تنظيمات أو أفراد داخل المدينة ، فان هذا وضع لاتنفرد به الحياة الحضرية لان سكان القرية قد يشكلون علاقات أولية — وهذا ما يحدث بالفعل — داخل أنساقهم القرابيـه الصغيرة أو الكبيرة ، ويشكلون علاقات ثانوية مع الوحـدات القرابية

الأخرى داخل القرية (١) • والآن ينظر كثير من الباحثين الى قضية التباين أو التنوع التى أثارها « ويرث » على أنها شديدة البساطة مثل كثير من قضاياه ، لأن « ويرث » استنتج من ذلك قضايا أخرى تتعلق بسطحية العلاقات ولاشخصيتها وعدم دوامها وانقساميتها ، ويميل هؤلاء الباحثون الى القول بأن الحضرية بالفعل تؤدى الى تباين وتنوع العلاقات الاجتماعية بالمقارنة بمثيلتها فى المجتمعات القروية ، الا أن هذا لايؤدى الى أن تصبح العلاقات الاجتماعية ذات طابع غير شخصى ، كما أن الروح المعنوية التى ظن « ويرث » أن قيام الصناعة ، والشركات الكبرى يؤدى الى طمس معالمها ليس له ما يبرره ، لأن المصانع الآن تقوم كمجتمعات صغيره يترابط من يعملون بها ترابطا شديدا نتيجة احساسهم بالانتماء الى مصالح واحدة وتطلعهم الى آمال مشتركة (٢) •

٢ — من المناسب أن نعاود فحص موقف ويرث ، الذى زعم فيه أن وطاة المجتمع المحلى الحضرى ، الذى يتميز ، بالحجم والكثافة واللاتجانس ، هو العامل المسيطر فى السلوك والتنظيم الاجتماعى (٣) • لقد اعتقد « ويرث » أن الحضرية كطريقة فى الحياة ذات نموذج يتميز بالعلمانية وروابط الجماعة الثانوية ، والتزايد فى الصغر للأدوار والمعايير المفتقرة الى التحديد ، ولهذا فان المدينة مكان يتميز بالعلاقات الاجتماعية المتميعة والضعيفة • وقارن من أجل ذلك المجتمعات الريفية

---

(١) أنظر ما كتبه المؤلف عن تغير العائله فى المجتمع القروى المصرى القرية المتغيرة ، دار المعارف الاسكندرية ١٩٦٤ ،

(٢) محمد على محمد علم اجتماع التنظيم ، الاسكندرية ١٩٧٢ •

(٣) يرى ردفيلد فى نفس الاتجاه الذى ذهب اليه ويرث ، أن اللاتجانس واعتقاد العزلة Lack of Isolation هى الطابع المميز للمدينة والمدخل الذى يمكن من خلاله فهم الحياة الحضرية ، أنظر
Robert Redfield, The Folk Culture of Yncatan, Chicago. 1941.

بالمجتمعات أو المراكز الحضرية ، واعتبر السمات التى تنمو فى الوسط الحضرى مصاحبة لنمو المدينة وخاصة فيما يتعلق بالحجم والكثافة ويلاحظ أن « ويرث » وأنصار نظريته نظروا الى آثار أو نتائج النمو الحضرى نظره منفصلة ومستقلة عن نتائج القيم الثقافية أو التصنيع • اذن ، ومن حيث المبدأ فان جميع المدن تاريخية و معاصرة يجب أن تظهر فيها الخصائص المشار اليها •

وقد علق عدد من الباحثين وعلماء الاجتماع على النقائص التى تنطوى عليها هذه النظرية سواء بطريقة واضحة أو ضمنية مثلما فعل وليام هوايت White William فى كتابة « انسان التنظيم » The Organization man ، وذلك على أساس البحوث التى أجريت فى المدن الأمريكية ، ومن أهم وجوه النقد ، تلك التى تتعلق بما فى النظرية من مبالغة حتى بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، فيما يتصل بدرجة العلمانية والتفكك التى تميز المجتمعات المحلية الحضرية ، أن المدينة فى رأى من نقد « ويرث » تنطوى على قدر عال من التنظيم وهو ما لم يستطيع أن يتنبه اليه من كتبوا فى خصائص المدينة على هذا النحو • وقد كان فشل ويرث واضحا فى أنه لم يستطيع أن يدرس متضمنات التحولات البيروقراطية فى الحياة الحضرية ولعله كان متأثرا وهو يكتب فى العشرينيات والثلاثينيات من خلال الاتجاه العام الذى كان سائدا حتى بين علماء الاجتماع والذى كان يحاول أن يتفهم وأن يشخص التوترات الاجتماعية التى ترجع الى الصراع الثقافى بسبب تزايد حركة الهجرة والنتائج التى تمخضت عن الأزمة المالية النقدية فى عام ١٩٣٠ وما بعدها • وقد أثبت أوسكار لويس أن نظرية ويرث لا يمكن أن تنطبق على أنماط أخرى من المدن خارج الولايات المتحدة الامريكية ، ولهذا فان كلا من ويرث وردفيلد قد فشلا فى ادراك أن الحياة الحضرية (حياة المدنية) يمكن أن تكون عالية التنظيم •

وهناك نقد آخر لايقل أهمية عن النقد السابق ، مؤداه أن «ويرث»

وعلماء الاجتماع الآخرين الذين كان لهم نفس فكرته ، فشلوا في ادراك أن المدينة من خلال ظروف أخرى غـير التى ذكروها يمكـن أن ترتبط بالنسق الاجتماعى الثقافى الكلى الذى تكون جزءا منه ، ولهـذا ينظر الى المدينة على أنها متغير معتمد أو مصاحب ولعل هذا الفشل فى النظر الى المدينة على أنها نسق فرعى هـو الذى قاد « ويرث » وغيره الى اغفال أنماط على جانب كبير من الأهمية • ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء لم يدركوا أن المدن يمكن أن تنشأ لهدف محدد ، أو أن البناءات النظامية الخارجية يمكـن أن يكون لهـا تأثير كبير فى المعـايير الاجتمـاعية والايكولوجية للمدينة •

ثانيا : الدراسـات المقارنـة :

١ — ان الاهتمـام بالدراسة الحضرية عـلى مستوى الثقافات المتداخلة يمكن تتبعه حتى القرن السادس عشر ، عندما نشر جيوفانى بوتيرو Giovanni Botero كتابه الهام عن « عظمة المدن The Greatness of Cities وفى عام ١٨٩٩ كتبت أدنا فيبر Adna F. Weber مؤلفا سوسيولوجيا عن « نمو المدن فى القرن التاسع عشر ، وبعـد عشرين عاما تقريبا كتب ماكس فيبر Max Weber •وعلى الرغم من أن هذه الأعمال وغيرها التى تمت الى الحضريه المقارنـة • كانت فى متناول يـد علماء الاجتماع الحضريين الأمريكان ، الا أنه لم يحدث الا منذ وقت قريب أن أهتم هؤلاء بالمدن فى بلاد أخرى فى انحاء العالم المتفرقة • ومن أجل هذا يتزايد ادراك أن المدن فى مجتمعات أخرى ، تاريخية أو حديثة ، تختلف عن مدن الولايات المتحدة من وجوه متعدده وخاصة فى التنظيم الاجتماعى والايكولوجى • ومع ذلك فان المدخل المقارن لازال يستخدم بشكل قليل فى علم الاجتماع الحضرى سواء فى المادة الثقافية المقارنة الموجودة فى الكتب العامة أو فى المقالات التى تنشر فى مجلات عـلم

الاجتماع (١) .

ان الدراسة المقارنة للحضريه اذن لاتزال فى مرحلة مبدئية حتى الآن ومن المناسب هنا أن نعرف المعوقـــات التى تقف فى سبيل تقـــدم البحث على هذا المستوى وكيف يمكن التغلب عليهـــا : أن الأمر يقضى استخدام المادة والتراث القائم وصياغة نظريات أكثر دقـــة واختبار الفروض من خلال الأوضاع المقارنة .

استخدام التراث القائـــم :

ان المادة المطلوبة لمواجهة كل نواحى الحياة الحضرية غير متوفرة وغير متكاملة . ومع ذلك فهناك من المعلومات التى تحت أيدينـــا والتى يمكن استخدامها مالا يتبينه علماء الاجتماع . ويعتبر كنجزلى دافيز واحداً من القلائل الذين يحـــاولون التأليف بين المـــادة المتوافرة عن المجتمعات العالمية وخاصة من المنظور الديموجرافى (١) .

وقـــد أضافت دراســـات دوتسنز Dotsons وجيست Gist وايبرهارد Eberhard وآخرين غيرهم لمعرفتنا عن المراكز الحضرية فى مجتمعات متعددة . ومع ذلك فان علماء الاجتماع المعنيين بالدراسات الحضرية المقارنة لم يتجاوزا حـــدود علم الاجتماع الحضرى كمـــا لم

---

(١) كتب روز هم لى Roze Hum Lee كتابا عن « المدينـــة » الحضرية والتحضر فى مناطق العالم الكبرى »
(The City : Urbanism and Urbanisation in Major World regions, Lippincott, 1955) حاول فيه أن ينبى المنظور المقارن فى دراسة الحضرية والتحضر بالاعتماد على مادة متوفرة عن مناطق معينة من أنحاء العالم

1) Kingsley Davis & H.H. golden, «Urbanization and the Development of pre - Industrial Areas,» Eeon. Devel. Cult Gharge. 3 (1954). 6 - 26.

يتجاوزوا حدود العلم الاجتماعى الأمريكى من أجل مـادة أكثر اتساعا وتفسير أكثر عمقا وشمولا • لقد جمع علمـاء الجغرافيا والديموجرافيا وكذلك الأنثروبولوجيا معلومات وفيرة عن المدن من جميع أنحاء العالم وكذلك فعـل المؤرخـون وعلماء الاقتصـاد والسياسـة وموظفـو الحكومة ، ويمكن النظر الى هذه المعلومات على أنها مادة أولية صالحة للدراسة وان لم تكن مادة قادرة على الالهام فى الدراسة المقارنة من الناحية النظرية •

ان المادة العلمية عن مدن أمريكا اللاتينية وكذلك عـن مدن شرق وجنوب أوربا لاتزال قليلة جدا • أما المادة العلمية عن مدن أوربا الغربية فقد توافرت الى حد كبير مما سهل فى الوقت الحاضر اجراء دراسات تعالج مسائل التغير والنمو وخاصة تلك الدراسات التى تهتـم بالبناء الاجتماعى والبناء الايكولوجى • وفى السنين الأخيرة أمكن دراسة بعض المجتمعات الأوربية الحضرية بمعاونة أدوات البحث الحديثة المستخدمة فى العمل الميدانى •

ومماهو جدير بالملاحظة أن مادة تزاداد حجما تكتب الآن عن المناطق التى تقـع جنوب الصحـراء فى أفريقيـا ، وأكثر هذه المـادة كتبه الأنثروبولوجيون من منظور التنظيم الاجتماعى والايكولوجى عن المدن التى نشأت حديثا وتتطور الآن بسرعة • ويصور بوضوح الكتاب الذى وضعته منظمة اليونسكو فى هذا الشأن (١) • وقـد أسهم الباحثون الفرنسيون فى هذه الدراسات عن طريق المادة الوصفيـة التى قدموها لعدد من المجتمعات الحضرية مثل ما قاموا به من دراسات فى مراكش •

وفى الشرق الأدنى حيث نشـأت المدن لأول مرة ، فـان المادة

---

1) **Social implicatinos of Industraization and Urbanization in Africa South of The Sahara, Paris, UNESOC, 1956.**

التاريخية ليست موجودة على النحو الذي يمكن معه تتبع النمو الحضرى خلال عدة قرون • ولكن فى الوقت الحاضر تتم دراسات تعالج وصف بناء المجتمعات الحضرية وما تتعرض له من تغيرات هـامة (١) • وجدير بالذكر أن الدراسات التى تجرى الآن فى الهند وفى نطاق واسع يمكن أن تقدم فى المستقبل القريب مادة مقارنة على أعظم جانب من الأهمية وخصوصا من وجهة نظر نسقهـا الاجتماعى الفريـد ، ويتوقع علماء الاجتماع الحضرى أن تثرى الدراسات الهنديـة الفحوص والفروض التى يمكن استخدامها فى استكشاف طبيعة الحياة الحضرية بصفة عامة• وفى نفس الوقت الذى تزدهر فيه الدراسات الحضرية فى الهند تكاد هذه الدراسات أن تكون مهملة تماما فى منطقـة جنوب شرقى آسيا الا فى اليابان حيث يهتم علماء الاجتماع هناك بتأثير علماء الاجتماع الأمريكيين بدراسة أنماط متعددة للحياة الحضرية فى هذا المجتمع •

ويرى جيبسون جوبرج Gibson Sjoberg أن موقف الـدراسات الحضرية فى المجتمعات الشيوعية فى أوربا وآسيا يثير صعوبات ومعوقات أخرى ، لأنه يعتقد أن علماء الاجتماع الأمريكيين يفتقدون المعلومات العلمية عن الحضرية فى هذه البلاد كمـا أنه يعتقد أيضا أن ذلك ربما يكون راجعاً الى فقر العلم الاجتماعى الامبيريقى ونموه البطىء (٢)

---

(١) تجرى الآن فى مصر وفى بعض بلاد المنطقة العربية دراسات عن المدن والحياة الحضريـة لاغراض تخطيطية فى الغـالب ، ولكن الدراسات العلميه من منظور علم الاجتماع فانها لاتزال فى مرحلة أولية •

2) Gouldner, A, The Coming Crisis of Western Sociology, N.Y. 1970
Friedrichs, R., The Sociology of Sociology, N.Y. 1970. وكذلك
A, Sovied Sociology, London, 1967.

على الرغم من أن نمو التصنيع فى البلاد الشيوعية لابد أن يكون مصاحبا بوجود مادة متراكمة تتصل بالنواحى الهامة للنظام الاجتماعى .

يتضح اذن من إستعراض التراث العلمى الحضرى العالمى أنـــه بالأمكان التوصل الى نتيجة هامة ، هى أن علماء الاجتماع الأمريكيين ليسوا على صلة بالمادة المتراكمة عن الحياة الحضريـــة والتى يمكن أن تكون فى متناول اليد اذا ما بـــذل أى جهد لجمعهـــا ودراستها دراسة مقارنة . وأبسط مثل على ذلك ، تلك المعلومات المتوافـــرة عن الحياه الحضرية فى كثير من المجتمعات التى جمعها المشتغلون بتخطيط المدينة. هذا ويعتقد كثير من المتتبعين لنمو الاجتماع الحضرى أن تبعيته المطلقة للتراث الامريكى قلل من الاستفادة على المستوى العـــالمى من التحليل والنظرية الذين يقومان على الماده الامريكية وحدها ، لأنـــه من المعلوم أن كفاءة النظرية وقدرتها على توجيه مزيد من الابحاث تتوقف الى حد كبير على طبيعة المادة التى تعتمد عليها ، وربما كان هذا هـــو السبب الذى من أجله يتزايد النقد الموجه لعلم الاجتماع الامريكى بصفة عامة فى السنين الأخيرة ، وخاصة من وجهة نظر قدرتـــه على فهم التجارب المجتمعية الأخرى وامكان استخدام نماذجه النظرية كموجـــه للابحاث والدراسات التى تجرى فى مجتمعات أخرى لها تاريـــخ مختلف وعندها تصورات تنطوى على مضمون فلسفى مختلف كذلك . وممـــا هو جدير بالذكر أن علماء الاجتماع الحضرى الامريكى أنفسهم قد أحسوا مرارا ودون نتيجة مثمرة ، أن اقتصارهم على المادة الأمريكية يشكـــل عقبة فى نمو نظرية يمكن أن تؤدى الى نمو الابحاث الحضرية ذاتها أو تستطيع أن تواجه المادة المقارنة المستمدة من مجتمعات غير المجتمع الأمريكى .

الدراسات الحضرية فى الاتحاد السوفيتى :

ان افتقار المادة المقارنة عن المجتمعات الأخرى خـارج المجتمع الأمريكى الذى عبر عنه كثير من الباحثين فى عـلم الاجتماع الحضرى والتى شكلت عقبة كبيرة فى نمو نظرية حضرية متكاملة وان كانت حتى الآن وبرغم الدراسات العاليـة الأخرى لاتزال تميز علـم الاجتماع الحضرى فى أمريكا ، الا أن السنين الأخيرة قد شهدت اهتماما متزايدا بهذه الدراسات فى عـدد كبير من بلاد العـالم الأوربية والافريقيـة والأسيوية • ومما هو جدير بالذكر أنه فى الوقت الذى بدأ فيه الاتحاد السوفيتى يهتم بدراسة علم الاجتماع من خلال وجهة النظر الماركسية بدأ الاهتمام أيضا ببعض الدراسات ذات الطابع الامبيريقى مثل دراسة المجتمع الحضرى • ولعل النمـو المتزايد للسكـان الحضريين وانتشار المدن ونموها الوظيفى فى الاتحاد السوفيتى هو الذى استرعى الاهتمام أولا بالاجراءات العملية الضرورية لمواجهة هذه المشاكل وثانيا بالدراسة العلمية لمحاولة معرفة ميكانيزمات العمليات التفاعليـة التى تحدث فى المدن ، تلك التى لايمكن أن تتضح الا بالبحث السوسيولوجى المركـز وبمحاولة واسعة النطاق لتنميط المدن من أجل الدراسات المقارنة (١) •

لقد ظهر واضحا كلما تقـدم البحث الحضرى من خلال المبادىء العامة التى وجهت علم الاجتماع السوفيتى أنـه من الضرورى اختيار مجموعة من العوامل تشتمل على تصميم المدن وأنواع الخدمات الثقافية

---

(١) يعتقد الكتاب الماركسيون فى عـلم الاجتماع سـواء فى الاتحاد السوفيتى أو أوربا الشرقية أن استخدام أدوات البحث الحديثة ومنها الاحصاء ضرورة ، ويشيرون الى أن ماركس فى ابحاثه قد بدأ نوعا من هذه الابحاث ذات الطابع الامبيريقى ولكن من خلال الالتزام بمبادىء المادية التاريخية ، أنظر :

Alex Simirenko (ed). Soviet Sociology. London, 1967.

القائمة الى جانب الرعاية الصحية ووسائل الاتصال والأدوات الميكانيكية وبناء المجمعات السكنية وغير ذلك ، لأن مثل هذه العوامل فى رأى الباحثين السوفيت تحديد الحجم الأمثل للمدينة التى لايجب أن تتعداه ، الا أن مثل هذه الاهتمامات بالجوانب المادية وبنوعية الخدمات كان مصاحباً لاهتمام مماثل بطبيعة الحياة الاجتماعية فى المدينة وأنواع التفاعل التى يحدث بين سكانها ، وغير ذلك من الموضوعات التى تعتبر قاسما مشتركا بين المهتمين بدراسة المدينة عن المستوى العالمى .

ان الاطار النظرى الذى تنبع منه الدراسات الحضرية متفق تماما مع القضايا الأساسية فى الماركسية والتى تفترض فى مثل هذا النوع من الدراسة ، أن العمليات الاجتماعية الاقتصادية العديدة وكذلك الظواهر المنبثقة عنها ليست متساندة فقط بل هى ممتزجة ومتحدة بشكل يؤدى فى النهاية الى نسق معقد له بناء ثابت ، كذلك فان الطبيعة الأساسية لهذه الانساق المعقدة أو المركبة هى فى أنها لاتتغير بتغير عامل واحد مستقل عن العوامل الأخرى ، لأنها من حيث طبيعتها ديناميه ومترابطة داخليا ، حتى أن التغيرات التى تحدث فى عامل تؤدى الى تغيرات فى العوامل الأخرى ، ومن هنا تأتى فائدة تنميط المدن ، لأن أى دراسة محلية لايمكن أن تؤدى الى فهم صحيح لقوانين النمو بالنسبة لنسق معين ، وبالتالى فانها لايمكن أن تسمح بضبط مؤثر اذا كان من المراد حقا أن نصل اليه ، ومن هنا تنتقل مشكلة الضبط الأمثل للعمليات الفردية الى مشكلة لضبط العوامل المركبة التى لايمكن التوصل اليها أو معالجتها الا عن طريق النموذج أو النمط .

ويعترف العلماء السوفيت أن المدينة الحديثة ظاهرة معقدة لدرجة أنها يصبح من المستحيل عملياً دراسة كل وجوهها ، ولهذا لابد من أن نقرر على المستوى المنهجى ، أى العوامل نختارها للاستقصاء العلمى وأى شكل مناسب للنموذج الذى نفكر من خلاله ويمكن أن يشابه المدينة القائمة بالفعل . ويترتب على ذلك أن نتساءل أولا وقبل كل شىء

عن : كيف نصنع النموذج ؟ وهل من الضرورى فى مثل هـذه الحالة أن نسبق هذا التساؤل بتساؤل آخر عن : مـاذا يمكن أن يتضمنه هـذا النموذج ؟

ومن الموضوعات الهامة التى يهتم بها علم الاجتمـاع الحضرى السوفيتى الآن ما يلى : —

١ — الجوانب البنائية الوظيفية للمدينة التى يجب أن تستكمـل بدراسات تتناول ميكانيزمات التفاعل وعمليات الاتصال الاجتمـاعية ونوع البيئة المادية التى تمارس عليها المدينة نشاطها • وهذا يستتبـع اهتماما بالجوانب الايكولوجية التى تتعلق بميكانيزمات التفاعـل بين المدينة والبيئات الخارجية المتصلة بها • وأخيراً لابد لاستكمـال هذا الجانب من البحث الحضرى العنايـة بالنمو التاريخى أو بمعنى آخر دراسة نمو بناء المدينة تاريخيا •

٢ — العلاقات الجماعية الحضرية : وينصب الاهتمام الأكبر فى هذا المجال على جماعات العمر المختلفة وعلى الصور المتعددة للعلاقات التى تربط الجماعات بعضها ببعض سواء على مستوى التعليم أو العمل أو النشاط الثقافى أو المنزلى • ويرى السوفيت أن البحث فى العمليات التى تتم خلال الجماعات المختلفـة التى تشغل مكانا هامـا هو الذى يستحوذ على اهتمام علم الاجتماع البورجوازى الحديث ، ولعـل كل ما يدرس الآن فى العالم الغربى تحت ما يسمى بعلم اجتماع الوحدات الصغرى Micro Sociology دليل قاطع على ذلك • وان محاولة معالجة المشاكل الاجتماعية العامة عن طريق تحويل البنـاءات الكبرى للجماعات التى تقوم على التوزيع الوظيفى المكانى لأعضائها لتسير جنبا الى جنب مع بناءاتها الداخلية التى تقوم على علاقات أعضائها السيكولوجيه المتبادلة

قد أثبت أنه مدخل لاقيمة له لحل المشاكل أو لمواجهة متطلبات النمو (١). ان النظر الى العمليات التى تحدث فى الجماعــات الصغيرة والمجتمعات منعزلة عن البيئة الأوسع هو الذى يميز من وجهة نظر السوفيت أنواع البحوث التى تجرى فى الخارج فى ميدان علم الاجتماع الحضرى .

٣ — النظر الى نشاط الجماعات من خلال دينامية البيئة الحضرية ككل ، ذلك أنه نتيجة للتفاعل المركب لكثير مــن العلميات الاجتماعية الاقتصادية التى تحــدث فى الحياة الحضرية فــان أى نسق للتفاعل الوظيفى فى الجماعات أو المجتمعات أو الأفراد ينبثق وبصورة منتظمة من البيئة الاجتماعية ، كما أن درجة نموها يمكن تحديدهــا عن طريق مجموعة من الخصائص غير المباشرة المتضمنة فى الحيــاة الثقافية فى المدينة من حيث عمقها وشدتها وكليتها . أما المؤشرات التى يمكن أن تحدد هذه الحياة الثقافية فهى عدد الجمعيات العلمية والفنية والأدبية وعدد النوادى والمكتبات ودور العرض والمسارح والمتــاحف ونسبة المترددين على هذه المنظمات أو المؤسسات .

وأخيرا فان هــذا الاهتمام فى الاتحــاد السوفيتى بالدراسات الحضرية يعكس الاهتمام العام الذى بدأ يتزايد مؤخرا بدراسة عــلم الاجتماع ، وعلى الرغم من أن كثيرا من الموضوعات التى يهتم بها البحث الحضرى تتشابه مع الموضوعات التى يهتم بها نفس البحث فى أمريكا أو فى غيرها من البلاد الأوربية أو فى دول العالم الثالث الا أن الاطــار النظرى الذى يوجه البحث السوفيتى يتم من خلال الالتزام بالاطــار

---

(١) أنظر تقييم هذا الاتجاه فى الكتابات الحديثة فى علم الاجتماع الأمريكى وبالأخص عند كل من :

a - Alvin Gouldner, The coming Crisis of Western Sociology, N.Y. 1970.
b - Robert Friedrichs, A sociology of Sociology. N.Y., 1970.

الأوسع للعلم الاجتماعى وهو المادية التاريخية أو بمعنى آخر ، وان كل بحث يتم فى مجال المدينة وأن عالج نفس الموضوعـــات المتعارف عليها فى علم الاجتماع الحضرى الآن . فانمـــا تتم وفقا للمبادىء والنظرية الماركسية بوجه عام [١] .

ثالثا : المدارس الكلاسيكية فى الدراسات الحضرية :

ان المدن نتاج قديم لحضارة الانسان . ومع ذلك لاتزال الدراسات الحضرية تمثل ميدانا حديثا للدراسة ، ويرجـــع ذلك الى أن المفكرين الاجتماعيين ، حتى عصر الثورة الصناعية ، كانـــوا ينظرون الى المدينة بوصفها صورة المجتمـــع ذاته ، وليســـت شكلا خاصاً متميـــزا للحياة الاجتماعية . ويظهر ذلك بوضوح فى الكتابات القديمة عنـــد أرسطو ، وأفلاطون ، وأوغسطين ، كما أن المدينة خلال مرحلة عودة ظهور الحياة فى المدنيه فى أواخر العصور الوسطى قد تمثلت فى كتابات مكيافيلى ، أما فى القرن الثامن عشر ، فان الارتباط بين المدينة والمجتمع أكدتـــه النظرية الاجتماعية عند روسو Rousseau [٢] .

---

(١) يمكن الرجوع الى « أوسيبوف » ، علم الاجتماع ، ترجمة فرج أحمد فرج وسمير نعيم ، دار المعارف القاهـــرة ١٩٧١ ، والى ما كتبه ؟ كل من كوجـــان Cogan ، ولوكتيف Loktev عن « الجوانب السوسيولوجية لوضع نموذج المدن فى :

G.V. Ossipov (ed). Town, Conutry and People, London, 1969.
Richard Sennett, (ed). Classic Essays on the : Culture. of Cities, N.Y. Appelton - Century - Crofts, 1969.

(٢) أنظر :

وكذلك المقالات التى كتبهـــا عدد كبير من الباحثـــين فى المجتمع الحضرى فى الكتـــاب الذى حرره كـــل من هات ورايس عن : Cities and Society وخاصة الفصـــل الثالث الذى كتبه كـــل من جوبرج وڤيز وملكنزى وفليرى والن بيجل .

غير أن الارتباط بين المدينة والمجتمع على هذا النحو أخذ يشهد تغيرا منذ الثورة الصناعية . ذلك لان المدن ذاتها تغيرت ، فقد أصبحت أكبر بكثير فى تلك المدن التى عرفت فى عصر روما ، ولم ينشأ نموها من الداخل ، نتيجة لتزايد عدد السكان ، بل كان يرجع الى تغيرات خارجية، مثل التغيرات التى حدثت فى الزراعـــة ، وشجعت سكان الريف عــلى الانتقال الى المدن . وقد ارتبطت هجرة السكان هــذه بظهور نماذج جديدة للعمل ، عملت علــى تغيير مفهومات الانسان حــول الزمان ، والحركة ، وعدلت من العلاقــات المتبادلة بين الناس خــلال حياتهم اليومية . غــير أن ذلك لا يرتبط ، أيضا ، ارتباطا مطلقــا بنمو نظام المصنع ، أو الرأسمالية ، اذ أن نظــام المصنع كان معروفــاً فى مدن العصور الوسطى وخلال عصر النهضة ، لكن الاهتمام هنا ينصب على المشكلات المعقدة فى المدن الصناعية تلك التى تحتــاج الى استكشاف علمى منظم .

ونستطيع أن نقسم الكتابــات الكلاسيكية عن الحضريــة الى مدرستين ؛ الأولى هى المدرسة الألمانية والتى تمركــزت فى هيدلبرج وبرلين ، واعضاؤها مــاكس فيبر ، وجورج زميــل ، وأخيرا أوزفالد شبنجلر . وقد كتبوا جميعا خلال الربع الأول من القرن العشرين . أما المدرسة الثانية فقد تطورت فى جامعة شيكاجو خلال عام ١٩٢٠ ، وظل أعضاؤها يحافظون على نشاطهم العلمى الى ما بعــد الحرب العالمية الثانية ، ومن رواد هذه المدرسة بارك Park وويرث Wirth .

أما أعمال الأنثروبولوجى روبرت ردفيلد R.Redfield فتمثل محــاولة للتأليف بين أفكار المدرستين الألمانية والأمريكية ، كما أنها تمثل تحولا نحو التفكير فى مشكلات المدن المعاصرة .

١ — المدرسة الألمــانية :

ظهر أول عمل علمى لدراسة الحياة الحضرية عــام ١٩٠٥ ، وكان

فيما جاء بكتاب ماكس فيبر : المدينة The City . (١) وقد عالج فيبر موضوعا جديدا عليه ، وتناوله أيضاً بطريقة غير تقليدية ، تختلف كثيرا عن الكتابات السابقة عليـــه التى عالجت هـــذا الموضوع . وقـــد يجد القارىء صعوبة كبيرة فى تتبع المفاهيم المجردة ، والصياغات والتراكيب اللغوية الصعبة التى يستخدمها فيبر فى مؤلفه ، لكن ذلك كلـــه يحجب وراءه أغراضا معينة ، وأهدافا خاصة بالمؤلف ذاته .

لقد كان فيبر فى حياته الخاصة رجل عمل وسياسة ، يهتم بالأهداف العملية والمستويات الأخلاقية ، لكنه فى الوقت ذاته كان عالمـــا يحاول تقديم وصف متحرر من القيمـــة للمجتمع ، ونجـــد فى دراسته صورة للجانب الأول من حياته ، لكنها صورة غير ظاهرة الى حـــد بعيد ، فكل ما يبدو على أنه وصف هو فى جوهـــره انتقاد . ونستطيـــع أن نبرر غموض اللغة التى استخدمها فيبر فى مؤلفه ، على أساس الهدف السابق، فقد حاول أن يكتب كملاحظ على المستوى الظاهرى ، دون أن يعترف مباشرة بالمضامين الأخلاقية لأفكاره . كما عرض فيبر أفكـــاره بصورة منظمة ، وعالج المادة العلمية التى تناولها ، معالجة تؤدى بالقارىء الى استخلاص نتائج ضرورية ، لكنه لم يحاول أن يقوم هـــو نفسه بعملية استخلاص هذه النتائج .

ولقد انتهج فيبر فى معالجته للمدينة منهجا يختلف تماما عن ذلك الذى تبنته الدراسات السابقة ، فلـــم يكتب من خلال أعمـــال تونيز ودوركايم ، وغيرهما من علماء الاجتماع المعاصرين لـــه الذين تناولوا تحليل أثر العوامل الحضرية فى بعض جوانب الحياة الاجتماعية ، ومع ذلك فشلت تحليلاتهما فى تقديم صياغة نظرية متكاملة خـــاصة بالحياة الحضرية فى ذاتها . أما فيبر ، فقد حاول أن يحقق هدفا مختلفا عن ذاك

Max weber, The Oity, Edited and Transalated by Don Martiondale and Gertude Neuwirth, Copyright (c) 1958.

تماما ، فهو لم يصف أثر المدينة في خلق الشعور بالعزلة والفقدان عند سكانها ، ولكنه بحث عـن الظروف التى تجعل دور المدينـة ايجابيا وابتكاريا فى الحياة العامة للانسان • وحينما بحث عن المـدن فى الماضى بدلا من الحاضر ، كان ذلك ، فى الحقيقة ، يمثل محور النقد الذى قدمه فيبر للحياة الحضرية الحديثة أما الأسباب التى دفعت فيبر الى الالتفات للمدن القديمة فهى معقدة ومتداخه ، وتعتمد الى حـد ما على تعريفة للمدينة ، وعلى تصوره لكيفية استكشاف هذا التعريف •

ويبدو تعريف فيبر للمدينة واضحا ، اذا حددنا ما نقصده بمصطلح وثيق الصلة به هو « الكوزموبوليتانية أو العالمية Cosmopolitan » ، ذلك لأنه من الممكن أن نطلق على منطقة للاقامة البشرية أنهـا كذلك ، اذا ظهرت فيها أساليب متنوعة للحياة ، جنبا الى جنب مع وجود أفراد ذوى اتجاهات مختلفة • وقد ترجم فيبر هـذا التعريف فى وصفه لطبيعـة المدينة ذاتها : ان المدينة هى ذلك الشكل الاجتماعى الذى يسمح بظهور أعلى درجات الفردية ، والتفرد ، حينما نعرف المدينـة لانقصد بذلك وصف أسلوب واحد للحياة ، ولكننا نصف مجموعة بناءات اجتماعية ، يمكن أن تؤدى الى ظهور أنماط متعددة وملموسة فى أساليب الحياة • فكأن المدينة ، على هـذا الأساس ، تمثـل بناءات اجتماعيـة تشجع الفردية الاجتماعية ، والتجديد ، وهى بذلك وسيلة للتغير التاريخى» (١)•

فى ضوء ذلك تحمل فيبر أعباء مهمة عسيرة فى دراسته للمدينة ، ذلك أنه افترض أن المـدن الحديثة لاتعبر عن الامكانيـة الحقيقيـة « للمدينة » كثقافة • حيث نظر الى المـدن التى وجدت فى عصره على أنها تمثل نظما غير نامية ، وذلك على العكس ممـا ذهب اليه كثير من معاصريه ، حينما قرروا أنها ناجمة عن تطـور تاريخى من خلال خطوط

---

1) Max Weber, The Nature of the City : in, Classic Essasy on the Culture of Cities, 1969, PP. 23., 26.

طويلة معقدة • حقيقة أن القوى العقلية ، ونمـو البيروقراطية يمثل عملية معقدة ، لكن فيبر يذهب الى أنها أنتجت بيئه حضريـة رجعية ، والواقع أن فيبر عـلى العكس من الماركسين ، لا يعتقـد أن التطور التاريخى يظهر بصورة جامدة ، أو يحدث فى تتابع منتظم نتيجة قوى النمو الصناعى ، ولكنه ينتهى بطريقته الخاصة ، الى أن هـذه القوى أدت الى وضع أقل تحضرا أو مدينة تشبه ما كان عليـه الأمر فى مدن العصور الوسطى المتأخرة •

ولقد كان فيبر يقصد من تعريفة للمدينة أن يقدم نموذجا مثاليـا لظروف المدينة ، أى حالة للحياة الحضرية تستطيع أن تواجه القدرات الاجتماعية الكامنة فى هذا التنظيم للاقامة البشرية • ويفترض هـذا النموذج المثالى أنه من الممكن تقديم وصف عقـلانى أورشيد لظاهرة اجتماعية ، مثل المدينة ، لكن هذا الوصف العقلانى قد قام أساساً على المنظور التاريخى ومعنى ذلك أن « النظرية العقلانية » عن المجتمع هى نتاج للتاريخ ، أى نتاج الخبرة الحقيقيه للناس ، وليست مستندة الى فروض أو أبنية فرضية تنتمى الى بعض المفكريـن • غير أن الصعوبة التى ينطوى عليها هذا الاتجاه ، تتمثل فى أن فيبر يحاول أن يحقق شيئا أوسع نطاقا من الوصف التاريخى للظواهر الاجتماعيـة • لأن المادة المتعلقة بخبرة الانسان ، وتاريخه سوف تستخدم فى بناء نموذج للحياة الاجتماعية ، تربط بين عناصره روابط عقلية ويمكن بهذه الطريقة اعطاء البناءات الاجتماعية الكبرى فى المجتمع شكلا منطقيا ، بغض النظر عن علاقاتها الزمانية • وباستخدام طريقة النماذج المثاليـة يمكن مقارنة البيروقراطيات فى العصور الوسطى بتلك التى كانت توجـد فى الصين القديمة ، كما تقارن المدن الصينية أو دولة المدينة فى الصين ، بجمهورية عصر النهضة فى ايطاليا ، الخ • فكأن الاهتمام يتركز هنا على المقارنة المنطقية بين الصور الاجتماعية المركبة ، ويستخدم العقل كوسيلة أو أداة للتعمق فى الخبرة التاريخية ، تلك التى لاتظهر اذا حصر الملاحظ رؤيته فى نطاق المادة التاريخية خلال الزمان •

ولقد استعان فيبر بهذه الطريقة فى دراسته لمدن العصور الوسطى، والمدن الايطالية الأخرى فى أوائل عصر النهضة ، وانتهى الى أن هـذه المدن تمثل نموذج الظروف الملائمة لبناء المدينه التى تسود فيها أساليب متنوعة للحياة الحضرية • كما أن هذه المدن تتميز بأنهـا أكثر ثراء من المدن التى توجد فى العصر الحديث •

أما جورج زيمل G. Simmel (١) فقد كان أحـد تلاميذ ماكس فيبر ، الذين أعترفوا بالمكانة الكبرى لاعماله ، ومع أن زيمل يتفق مع فيبر فى بعض الآراء ، الا أنه يعارضه فى تصوره لنشأة المدن ، كما أنه يرى أن الصور الحضرية التى توجد فى العصر الحديث تشير الى امكانية ظهور حياة حضرية جديدة ومعقدة • ويعتقد زيمل أيضا أنه يمكن وصف المدن بالاعتماد على النماذج المثالية ، لكن عناصر هذا الوصف يجب أن تكون سيكولوجية أكثر منها بنائية ، ذلك ان الانسـان فى المدينة يشعر بأنه يعيش حالة ضياع نظراً لتعدد جوانب الحياة فيها ، وهذه الحالـة النفسية هى التى تجعل الناس يبتعدون عن الاستجابة العاطفية نتيجة لتعقد الحياة الحضرية ، الأمر الذى تصبح معه العلاقات بين الانسان وأقرانه ، وبينه وبين البيئة عموما ، علاقات جزئية ، وانفصالية • وتعتبر البيروقراطية ، والادارة ، واقتصاد السوق الميكانيزمات التى تلجأ اليها الحياة الحضرية لكى تواجه حالة التفكك النفسى هذه • وهكـذا ، يمكن القول ان زيمل انتهى الى صورة للحياة الحضرية تشبه الى حد كبير تلك الصورة التى قدمها فيبر لخصائص المدينة الحديثة ، لكنه أى زيمل ،اعتقد أن سمات الحياة الحضرية ، اللاشخصية ، والاضطراب ، والبيروقراطية وانعدام المواجهة المباشرة ، والعمليات العقلية لاقتصاد السـوق ، هى

---

(١) Kurt Wolf; The Sociology of Georg Simmel, London; 1964, pp. 402 - 409.

أنظر على الأخص مقالة زيمل عن المتروبوليس والحياة العقلية

نتاج ظروف حضرية ذات طبيعة نفسية ــ اجتماعية ، بينما ذهب فيبر الى أنها ظهرت بتأثير قــوى اقتصادية وغــير اقتصاديــة متضمنة فى الرأسمالية .

ويعتقد زيمل أيضا أن الحياة فى الحضر تزود الأفراد بميكانيزمات دفاعية ، « فعلى الفرد أن يحرر نفسه أو يفصل بين الروح والعقل » ، اذ أن انعدام العاطفة والعلاقات الوظيفية فى المدينة ، تمثل قوى دافعة للانسان لكى يتحرر من دائرة الأفعال الروتينية ، ويحــاول أن يعيش بعيداً عن هذه الحالات النفسية . والواقع أن زيمل استطاع أن يصور جوانب كثيرة للحياة فى المــدن الحديثة ، وذلك بــدلا من الاغراق فى الماضى . أو تأمل المستقبل تأملا يوتوبيا .

أما آخر ممثلى هذه المدرسة فهو أوزفالد شبنجلر O. Spengler (١). وعلى الرغم من أنه لم يتصل بأعمال كل من فيبر وزيمل ، الا أن كتاباته عن المدينة تعكس بعض أفكارهما ، وهى التى كان لها تأثير واضح على مدرسة الاجتماع الحضرى فى شيكاجو .

ويعتقد شبنجلر أن مراحل نمــو المدينة تعكس مراحــل الحياة الحضارية فى الثقافــات الغربية ككل . وهــو بذلك يبتعد تمامــا عن تصورات فيبر وزيمل ، وغيرهما من مفكرى نهايــة القرن العشرين ، الذين اهتموا بتتبع الخصائص المتميزة للمدينة كبناء اجتماعى . كذلك ذهب شبنجلر الى أن مراحل نمو المدينة تتخذ شــكل الدورة لان نشأة المدن الثقافية وتدهورها يتخذ نمطا واضحــا يكشف عن مراحــل النمو والتدهور فى المجتمع . أما مؤلف شبنجلر الأساسى فهو : تدهور الغرب، ويرجع اختياره هذا العنوان الى اعتقاده بأن ثقافة المدن الغربية أخذت

---

(1) Oswald Spengler; The Decline of the West, Vo II, Translated by Charles Francis Atkipson, 1928 (The Soul of the city).

فى التدهور منذ بداية القرن العشرين ، لكن دورة الحضريــة ، تنطبق أيضا على الثقافات غير الغربية • ذلك أنه فى كل الحالات ، يلاحظ أن المدن ذات الأحجام المعينة سوف تعمل على افســاد سكانها ، حينما تكسب عمليات العلاقات المتبادلة بــين الناس طابعاً نظاميــا واضحا ، وتجعلها روتينية ، وخالية من العاطفة • وقد أشـــار زيمل الى هــذه الحقيقة ذاتها ، لكن فكــرة شبنجلر عن الفساد ترتبط الى حد كبير بخصائص المدن الحديثة كما أشار اليها فيبر •

ويعتقد شبنجلر أن كل ثقافة ، غربية أو غير غربية ، لها روح شعبية Folk Spirit ، تظهر فى المراحل الأولى من تطورها ، وهــذه الروح تمنح الثقافة هويتها ، وحينما تنمو المدن تدريجيا فان ذلك يــؤدى الى تغيير هذا الطابع الثقافى ، نتيجة تشجيع الفرديــة والانفصالية ، بين أعضاء المدينة • وهكذا ، تتشابه جميع المدن الكبرى ، طالما أنهــا نشأت فى الأصل عن ثقافة واحده ، وهذا التشابه هو علامــة المرض والتغير والأفول الداخلى • أما التوازن بين القرية والمدينة فهو فى رأى شبنجلر مفتاح صحة كل المجتمعات النامية •

والواقع أن الافكار التى قدمها شبنجلر ذات أصول عميقة • وقــد كتب هيردر Herder فى القــرن الثامن عشر عن الــروح الشعبية ، وظهرت أيضا معالجات تاريخية عديدة لفكرة الدورة فى نمو المدن ، ومنذ أن كتب شبنجلر عن التطور الدورى للثقافة أصبحت هذه الفكرة تتردد بوضوح لدى المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى A. Toynbee وعالم الاجتماع الحضرى الأمريكى لويس ممفرد L.Mumiford

وهكذا يمكن القول : ان أعمال رواد المدرسة الألمانية كانت تدور حول اكتشاف الخصائص المميزة للمدينة والحياة الحضرية ، باعتبارها خصائص تصدق على المدينة ككــل ، فضلا عن تعريف ثقافــة المدينة كظاهرة محددة ، من خلال مقابلتها بالوحدات الاجتماعية الأخرى •

أما الممثلون الأول لمدرسة شيكاجو فقد ساروا فى طريــق مختلف حينما درسوا المدينة . وحين طرحوا تساؤلات حول الطبيعة الداخلية للمدينة ، وكيف يؤدى كل قســم فيها دوره أو وظيفتــه ، الى جانب الخبرات المختلفة والمتنوعة التى تشهدها واتخذ هــؤلاء الدارسون من المدينة عالما فى ذاته ، وحاولوا تعريفه فى ضوء العلاقات بين أجزائه ، وهكذا كانت محاولتهم بداية جديدة مختلفة عن العلماء الألمان ، حيث لم تبذل أية محاولة خلال بداية مدرسة شيكاجو لفهم المدينة مــن خلال علاقتها بالوحدات الاجتماعية الأخرى . ولكن فى المراحل الأخيرة فقط من تطور هذه المدرسة ، اختلط الاتجاه الواسع للمدرسة الألمانيــة فى دراسة المدينة ، بمعرفة البناء الداخلى لها فى كتابات ردفيلد .

(٢) ـــ مدرسة شيكاجو :

أحدثت مدرسة شيكاجو تطورا ملحوظا فى الدراسات الحضرية . وأخذت هذه الدراسات تتجه نحو التكامل بصورة واضحة بفضل أعمال روبرت بارك ، ولويس ويرث ، وارنست بيرجس ، وروبرت ردفيلد . ويمكن القول ، إن الأفكار الرئيسية لهذه المدرسة كانت تتمركز حــول الاجابة على سؤالين هما : ما هى القوى غير الاقتصادية التى تعمل على خلق ثقافة المدينة ؟ وما هى امكانيات الاختيار الحر والتجديد فى ثقافة المدينة ؟ يضاف الى ذلك أن روبرت ردفيلد وميلتون سينجر M. Singer قد تمكنا من التوصل الى وسيلة لوصف تطور المدن ، ومن ثم استطاعا التغلب على بعض الصعوبات التى أثارتها المدرسة الألمانية ، والأعمال المبكرة لمدرسة شيكاجو أيضا حول طبيعة تطور بناء المدينة ذاته .

وقد بدأت مدرسة شيكاجو تأخذ شكلها العلمى بعد الحرب العالمية الأولى . حينما استطاع روبرت بارك أن يجذب اهتمام كل من لويس ويرث وبيرجس نحو الاهتمام بدراسة ثقافة المدينة . ولقــد أتم بارك رسالته للدكتوراه بجامعة هيدلبرج بألمانيا قبل الحرب ، وتأثر هنــا

تأثرا واضحا بمحاضرات جورج زيمل • وكانت أولى ثمار هــذا العمل المقال الذى ظهر له عام ١٩١٦ عن : « المدينة : بعض المقترحات حول دراسة السلوك الانسانى فى البيئة الحضرية » (١) ، وكانت هذه المقالة علامة مميزة فى الدراسات الحضرية ، أثرت بعد ذلك فى توجيه البحوث فى أوروبا وأمريكا على حد سواء •

ويذهب بارك فى هذا المقال الى أنه يحاول فهم المدينــة بوصفها مكاناً ، وكذلك باعتبارها نظاما أخلاقيا moral order • وهو يعتقد أنه يجب وصف المدينة بطريقة يمكن معها ، عن طريق التحليــل الوظيفى ، اظهار امكانيات الحياة الثقافية والاخلاقية فيها • أما ما وصفه بارك بأنه ايكولوجية المدينة Ecology of The City ، فانه لايعنى الاقتصار على تتبع التقسيم المكانى الداخلى للمدينة ، أو وضع خريطة لمختلف الأشياء التى توجد بها ، وانما ما أراده فى الحقيقة اكتشاف تأثير هذه الظواهر الفيزيقية فى خبرة سكان المدينــة الانسانية والعاطفيــة ، ودورها فى تشكيلها •

ويفترض بارك أن الظروف النفسية والأخلاقية للحيــاة فى المدينة سوف تعكس نفسها بصور طبيعية ، فى كيفية استغلال المكــان ، وفى أنماط الحركة الانسانية والانتقال •• الخ • وافتراض بارك ، بعبارة أخرى ، أن الثقافة تتجلى فى الأشياء المصنوعة ، وأن المدينة لهــا طابع عضوى • والواقع أنه كــان يريد من ذلك الاشــارة الى الموضوعات والجوانب التى يجب أن تتجه اليها البحوث • وجدير بالذكر أن بعض

---

1) **Robert Park; The City : Suggestions For The Investigation of Human Behaviour in the Urban Environment. form A.J.S, Volxx 1916**

وقد ظهرت هذه المقالة فى عدد كبير من الكتب التى تجمــع مادة متنوعة من الدراسات الحضرية •

الدارسين اهتموا أكثر بالجوانب الايكولوجية المكانية ، ولم يبرز العنصر الانسانى المتضمن فى التصورات النظرية لكتابات بارك ، الا فى أعمال تلاميذه لويس ويرث وردفيلد ، وفى البحوث الحديثة عن المدن التى تجرى فى جامعة شيكاجو •

وقد رأينا كيف أن زيمل وشبنجلر استخدما مفهوم تقسيم العمل فى وصف حياة سكان المدينة الانقسامية والتخصصية ، أما السبب فى هذا التقسيم الدقيق للعمل فهو الحاجة الى الكفاءة العقلية فى أداء الوظائف ، وهو أيضا ميكانيزم دفاعى ضد العلاقات العاطفية المتضمنة فى الانفعال الاجتماعية • أما كتابات أعضاء مدرسة شيكاجو ،وبخاصة بارك وويرث ، فقد اهتمت بابراز الفكرة التى مؤداها : أن الحاجة الى العقلانية أو الرشد ، تظهر فى الترتيب المكانى للمدينة ذاتها • وأن جغرافية المكان هى التعبير الملموس عن تقسيم العمل ، وتباين الأدوار الاجتماعية ، والواقع أن هذا التصور الايكولوجى والجغرافى تظهر أهميته فى المدينة الصناعية ، التى يسود فيها التخصص فى العمل والمكان، وهو الذى لم يكن معروفا فى مدن العصور الوسطى • ويعتقد بارك وويرث أن المدينة الصناعية تنقسم الى وحدات وظيفية متجانسة ، وأن لهذا الانقسام المكانى أثره فى السلوك السائد فى المدينة ، ومن ثم تتحدد حرية السلوك أو التعبير فيها • وقد عالج بارك أثر الانقسام الوظيفى فى المدينة ، فى قدرتها على ضبط سلوك الأعضاء ، وما أدى اليه تعدد الأعمال فى المدن من حالات الولاء المزدوج التى توجد لدى سكانها •

أما ويرث فقد اهتم بمعالجة مسألة التخصص وكيفية تأثير تقسيم العمل ، كظاهرة حضرية ، فى الاقتصاد الحضرى ، واستغلال الأرض ، والبناءات السياسية ، والعلاقات المتبادلة بين كل هذه العوامل ، وحاول أن يعالج هذه الموضوعات معالجة نظرية متكاملة كما أوضحنا من قبل (١)•

---

(١) أنظر ما كتبناه عن نظرية ويرث ونقدها •

والواقع أن كتابات ردفيلد وزميلـــه ميلتون سينجر M. Singer تمثل أهم اسهامات مدرسة شيكاجو • وقد ذهب ردفيلـــد الى أن أفكار الرواد الأوائل لمدرسة شيكاجو عـــن المدينة الحديثة ، ترتكز عـــلى افتراضات تتعلق بأنمـــاط الحياة غير الحضريـــة ، أو ما أطلق عليـــه « المجتمعات الشعبية Folk Societies وحاول أن يوضح كيف أن الفروق بين المجتمعات الحضرية والشعبية ترتبط بتطور بناء المدينة ذاتها • وبهذه الطريقة استطاع ردفيلد أن يحقق التكامل بين أعمال مدرسة شيكاجو عن البناء الداخلى للمدينة ، ودراسات المدرسة الألمانية للمدينة فى السياق الشامل للمجتمع والتطور الاجتماعى (٢) •

ولقد كان منهج التحليل الذى استعان به ردفيلـــد يشبه الى حد كبير طريقة ماكس فيبر ، فقد استخدم صورا مركبة للمجتمعات (أى نماذج مثالية) حتى يمكن بناء تصور عقلى للحياة الحضرية • واهتم ردفيلد بصياغة نموذج مثالى عن خصائص الحياة الريفيـــة أو المجتمع القروى ، بصورة تتنـــاقض أو تعارض تماما كتابات بـــارك وويرث فى وصفهما للمدينة • وتعتمد الثقافة الشعبية ، فى رأيه على أن كل أعضاء المجتمع يشاركون فيها ، وليس هناك مستوى عالى للتخصص ، كما حاول ردفيلد أن يستعين بمعلوماته الأنثروبولوجية فى تتبع تأثير هذا المجتمع غير الانقسامى فى الدين ، وممارسة القوة ، وعلاقات القرابـــة • وكان يهدف من كل ذلك الى وصف سلوك الناس حينمـــا يتصرفون ككائنات

---

(٢) تعتبر المقالة الكلاسيكية لردفيلد عن The Folk Society والتى نشرت فى عدد كبير من كتب عـــلم الاجتماع أساســـا لدراساته وتحليلاته التى ضمنها كتبه عن المجتمعات الصغيرة وللدراسة التى أجراها بالاشتراك مع ميلتون سنجر عن الدور الثقافى للمدن فى الجزء الثالث من كتاب

Economic Development and Cultural Change, Chicago, 1954.

عاطفية ، أى حينما يختفي مبدأ تقسيم العمــل والأدوار فى حياتهم • وهكذا أكد ردفيلد أهمية المقارنـــة بين هذين الشكلـــين من الاستيطان البشرى ، واعتقد أن المدينة والمجتمع الشعبى يكتسبان وجودهما مـــن الفوارق القائمة بينهما •

واعتمد ردفيلد على هذه الفكرة البسيطة فى تطوير وصفه لعملية الانتقال من حياة مجتمع الفولك الى المجتمع الحضرى • وهى عملية تتم على مرحلتين : الأولى الامتصاص الذى يحدث لحياة مجتمـــع الفولك داخل بناء المدينة ، والثانية ، التغيرات الداخلية فى الاتجاه العقلى عند الحضريين • غير أن عملية التحضر التى وصفها ردفيلد تتسم بالغائية ، لان الحركة من ثقافة الفولك الى الحضرية لها بداية محددة ، وغـــاية بالذات • ولكن هذه الغائية تنتهى حينما يتم التحول الى الحضرية ، وحين تحدث تطورات مستقلة فى المدينة لاتتجه نحو غاية معينة •

وأخيراً فان أعمال هاتين المدرستين ــ برغم أنها تواجه الآن بعض الانتقادات ، أهمها أنها كتبت بطريقـــة انطباعية ، وأنهـــا تفتقر الى الملاحظة العلمية والمعلومات الكمية عن الحياة فى المدينة ، استطاعت أن تمس أهم المشكلات التى تواجه الانسان فى مجتمع المدينة ، وأن تقدم أسسا نظرية للدراسات الحضريـــة والمعاصرة التى لا تلتفت كثيرا الى التحليل النظرى والصياغات التصورية •

الفصل الثامن

النمــاذج والمتغــيرات

(موقف نظرى)

نحاول فيما يلى استخلاص فهم واضح للملامح الجوهرية المميزة لعلم الاجتماع الحضرى ، وذلك من خلال كتابات بعض رواد عــلم الاجتماع ، على أن نبدأ بتصور « المجتمع المحلى » كنقطــة محورية ، باعتبار أن علم الاجتمــاع الحضرى يهتم بجانب معــين فى الموضوع الشامل الذى يتناوله علم الاجتماع بصفة عامــة ، ذلك الموضوع الذى يتمثل فى دراسة سلوك الأفراد والجماعــات الذين يعيشون فى نماذج معينة من المجتمعات توصف بأنها مجتمعات محلية .

والواقع أن اختبار أو فحص قيمة أى مصطلــح أو تصور مثل « المجتمع المحلى » يعتمد على توضيح فائدته التحليلية فى وصف السلوك وصفا موضوعيا ، ومن ثم فان تصور المجتمع المحلى قــد يفقد قيمته كمفهوم سوسيولوجى ، اذا كان من العسير تحديد السلوك الملموس الذى يشير اليه . فى ضوء ذلك نستطيع أن نخضع مصطلــح المجتمع المحلى لمناقشة تحليلية على أساس الاعتبارات التالية :

١ ــ أشار بيترمان P. Mann الى أننا لانستطيع بأى حال من الأحوال أن نزعم بأن مصطلح المجتمع المحلى قــد تحدد تحديدا دقيقاً ، ويتعين علينا لكى نصل الى فهم كامل لهذا التصور ، أن نجرى المزيد من البحوث حول مضمون هذا المصطلح ، أو العوامل المكونة لما نطلق عليه « المجتمع المحلى » ، كما أنه من الضرورى أن تكون المناهج المستخدمة فى الدراسة أكثر دقة ، بحيث تكون قادرة على عرض الحقائق عرضا منظماً ، وبحيث يعرف كل باحث ماذا يجب عليه أن يفعله ، وكيف

يستخلص نتائجه.» (١) . ويؤكد مان أن هذين الشرطين يمثلان مطلبا حيويا للوصول الى وضوح وفهم متكامل للمجتمع المحلى ، مالم تحدد مناهج الدراسة فى هذا الميدان بدقة ، فاننا لن نصل الا ألى مزيد من اللبس والغموض .

٢ ــ يشير مصطلح المجتمع المحلى فى علم الاجتماع ، الى جماعات انسانية ، تصنف طبقا لمعيار معين ، ويعد التفاعل هو الاساس السوسيولوجى المميز لهذا التصنيف . أما استخدامنا لمحكات أخرى مثل : الاقامة فى اقليم محدد ، والسن ، واللون ، فان ذلك يرجع الى أن هذه الخصائص الموضوعية الواضحة ، والتى يسهل قياسها انما ترتبط ارتباطا شديداً بالتفاعل (٢) .

٣ ــ اننا اذا حاولنا دراسة المجتمعات المحلية كجماعات تتمايز فيما بينها عن طريق التفاعل القائم بين أعضائها ، فمن الضرورى أن نتوقع وجود درجات وأنماط مختلفة سواء على مستوى الجماعة الواحدة ، أو على مستوى العلاقة بين الجماعات كما يتدخل فى ذلك أيضا تأثير عوامل أخرى مثل حجم الجماعات . ومدى استقرارها ، وصور العلاقات بينها وداخل كل منهما . ويتمثل هذا التوقع الاطار العام الذى يجب أن نبدأ به . وربما يكون من الملائم فى هذا الصدد أن نستعرض عناصر التعريفات التى ظهرت لمصطلح المجتمع المحلى ، ونختار بصفة خاصة تعريف كل من لندبرج ، ماكيفر ، لأن هذين التعريفين يختلفان اختلافا كبيرا وواضحا من حيث المدخل الذى أكده كل منهما فى دراسة المجتمع ، اذ يذهب لندبرج الى أن المجتمع المحلى هو أى جمع يوجد فيه الحد

---

1) Mann. P.H., An Approach to Urban Sociology. London. Routledge & Kegan Paul, 1958. P. 183.

2) Lundberg. G. Foundations of Sociology. N.Y. The Macmillan. Company, 1939, P. 360.

الأدنى من التجانس الجغرافى ، وأنماط التفاعل العديـــدة ، وللمجتمع المحلى ثلاثة أبعاد أساسية — فى رأيه — هى : الزمن ، والمكان أو المنطقة الجغرافية ، والتفاعل ، وهناك دور أساسى للبحـــوث فى تحديد درجات هذه الأبعاد الواقعية (١) • أما ماكيفر فانه يرى أن مصطلـــح المجتمع المحلى يشير الى أى منطقة تسود فيها حياة مشتركة ، قريـــة أم مدينة صغيرة ، بحيث تتحقق لها مجموعة خصائص تجعلها متميزة عن المناطق الأخرى • ذلك أن حياة الأفراد معا فى اطار المجتمع المحلى ، تعمل على تطوير خصائص متميزة تتمثل فى الطباع ، والتقاليد ، واللهجات •• الخ، لكن المجتمع المحلى هو دائما جزء من مجتمع محلى أوسع ، ولهـــذا فان المجتمع المحلى مسألة درجة ، أو بعبارة أخرى انه يعتمد الى حـــد كبير على درجة وكثافة الحياة المشتركة (٢) •

وعلى الرغم فى أن كلا من لندبرج وماكيفر ينظـــر الى تصور المجتمع المحلى من زاوية مختلفة تمام الاختلاف عن الآخر ، الا أن هناك بعض نقاط اتفاق اساسية فمن الملاحظ أن المجتمع المحلى يرتبط بمنطقة جغرافية معينة ، وأنه يشير الى جمع فتحقق له درجة معينة من الحياة المشتركة ، وشكل خاص من أشكال التفاعل ، الذى يميزه عن غيره من الجموع الأخرى ، وأخيراً أن المجتمع المحلى اصطلاح فيه غير قليل من النسبية ، اذ من الضرورى أن نأخذ فى اعتبارنا علاقته بجماعات أخرى قد تكون أوسع نطاقا منه •

٤ — واذا ما أخذنا فى اعتبارنا نقاط الاتفاق الواردة فى التعريفين السابقين بوصفها تصلح بداية ملائمة لتحليل تصور المجتمع المحلى ، فان ذلك معناه أن هناك جوانب تتعلق : بالحشد ، وبالجماعـــة ، وبدرجات التفاعل التى يجب التعرف عليها باستخدام مقاييس موضوعية ، فكأنه

---

1) Ibid, PP. 361 - 2.
2) Mac Iver, R. Community, London, PP. 22 - 25.

من الضروري تحديد العوامل المختلفة التي سوف تخضع للقياس قبل دراستها ، وهنا بالذات نستطيع أن نستعين بفكرة النموذج المثالي . ولا شك أن النماذج المثالية ذات قيمة تحليليـة نظرية كبرى ، وان كانت عناصرها لاتتحقق بصورة كاملة في الواقع . وقد أشار كل من فون فيز Von wiese وهوارد بيكر H. Becker الى أن كل العلماء يتعاملون مع نماذج مثالية ، أو تخيلات مقصودة تفتح أمامهم آفاقـا جديدة في دراسة الواقع الاجتماعي ، وقد استخدم ماكس فيبر النماذج المثالية بكثرة في تحليله للظواهر الاجتماعية المختلفة ، باعتبارهـا تشير الى مفردات فرضية يقيمها الباحث بنفسـه ، لكي يفيد بها في دراساتـه التاريخية المقارنة . وقد يعترض البعض على فكرة النموذج المثالي بأنها ترمز الى تخيلات لاتتحقق ، ولاتلاحظ في عالم الواقع ، ومـن ثم فهي تزيد الموقف تعقيدا . لكننا نجد باحثا مثل بيرجس Burgess ، الذي اهتم بمناقشة هذه المسألة ، يقرر : « أن هذا الاعتراض لايضير الباحث الذي يستخدم النموذج المثالي في شيء ، طالما أنه يؤكد أن ما يمكن أن يوجد في المجتمع عباره عن تقديرات تقريبية ، ولذلك تتحـول مسألة القياس لتصبح بحثا عن درجـة هذه التقديـرات التقريبية . وهناك مقاييس تطورت من أجل الكشف عن القيم المتقاربة لخصائص المجتمع المحلي » (١) . وهكذا يبدو أنه من الأفضل بالنسبة لعلماء الاجتماع أن يضعوا تصورا مثاليا للمجتمع المحلي ليشمل على كل العوامل الملائمة ، بحيث تصبح لديهم قاعـدة يرتكزون عليها عنـد اجراء الملاحظات . ولسوف تكون المهمة الرئيسية عند صياغة هذه النمـاذج المثالية هي اكتشاف عوامل الحياة المشتركة ، وصور التفاعل الاجتماعي التي تظهر في هذه الحياة أكثر من غيرها ، وبالتالي يتعين ابرازها بوضوح .

---

1) E.W. Burgess, Research Methods in Sociology, in : Gurvitch & W. E. Moore, 20 th Century Sociology, N.Y, 1945, P. 31.

التصورات المثالية للمجتمع المحلى :

تعتمد التصورات المثالية للمجتمـع المحلى على قـدرة الباحث فى استيعاب عناصر الحياة المشتركة ، ثم التأليف بينها فى صيغـة منطقية تشكل نموذجه المثالى . وربما يكون من المناسب هنا أن نبدأ بالتصور الذى قدمه تونيز عن المجتمع المحلى والمجتمع ، وجدير بالذكر أن تونيز استخدم مصطلحين ألمانيين هما : Gemeinsckaft & Gesellschaft وهناك ترجمات انجليزية عديده لهما ، لكن الشىء الذى يعنينا أن تونيز استخدم المصطلحين فى وصف نموذجين متعارضين للحيـاة الاجتماعية يمثلان قطبى متصل ، وباعتبار أن أى جماعة تخضع للدراسة ، يمكن بعد فحص خصائصها أن توضع على نقطة قريبة أو بعيدة عن أحـد هذين القطبين ، ولكن ليس مـن الضرورى أن تتطابق الجماعات تمامـا مع خصائص القطبين المتعارضين . وقد أوضح هيبرل Heberle ذلك بقوله: « لقد كانت تصورات المجتمع المحلى والمجتمع بالنسبة لتونيز هى مفاهيم خالصة تنطوى عليها النماذج المثالية . ولاتتحقق فى العالم الواقعى ، ومن ثم فهى لاتستخدم كمفاهيم تصنيفية . وهى الى حد ما تعتبر « سمات » توجد بنسب متقاربة فى الواقع الاجتماعى . فاذا ما حاول الباحث أن يعرف الأسرة ــ مثلا ــ بأنها مجتمع محلى ، فسوف يجـد الطريق الى الفهم السوسيولـوجى مسدودا أمامـه ، ذلك لأن المهمة الأساسية لعلماء الاجتماع تتمثل فى توضيح كيف أن الأسرة فى الموقف الواقعى الملموس (الأسرة فى المدينة الكبيرة مثلا) تقترب من نموذج « المجتمع » بدرجة أكثر من الأسرة فى موقف آخر . واذا أخذنا المفاهيم أو التصورات بهذا المعنى ، لأصبح من اليسـير استخدامها فى دراسة الظواهر التاريخيه ، دون أن يؤدى ذلك الى أى اختلال فى النسق »(١).

ويتفق لوميز Loomis مع هيبرل فى القول بأن الفكرة المحورية الموجهة لصياغة تونيز هى فكرة النموذج المثالى لكل من المجتمع المحلى

---

1) R. Heberle, The Sociology of Ferdinand Toennies. American Sociological Review, Vol 2, No. 1, 1937.

والمجتمع ، لكنه يضيف الى ذلك قضية أخرى مؤداها : أن تونيز أقــام هذا النموذج المثالى عــلى أساس للتفرقة بــين الارادة الطبيعيــة Natural Will ، والارادة العاقلة Rational Will . أما الاراده الطبيعية ، عند تونيز ، فهى المرادف السيكولوجى للجســم البشرى ، أو هى مبدأ وحدة الحياة بينما الارادة العاقلة هــى نتاج التفكير ذاتــه ، وبالتالى تكتسب وجودهــا من انتمائها الى شخص معــين ، أو الى الفرد الذى ابتكرها . ويمكن تفسير الارادة الطبيعية فى ضوء المــاضى فقط ، أما الارادة العاقلة ، فانه يمكن فهمها فقط على أساس التطورات القادمــة التى تحظى باهتمامنا ، واذا انتقلنا بعد ذلك لمفهوم تونيز عن المجتمع المحلى والمجتمع . سوف نجد أنه يقرر : « اننى أطلق لفظ المجتمع المحلى على كافة أنواع الروابط التى تسيطر عليها الارادة الطبيعيــة ، بينما أطلق لفظ المجتمع على تلك الروابط التى تتشكل أو تكون مشروطة بوجود الارادة العاقلة ، ان أهم ما يميز المجتمع المحلى هــى الحياة العضوية الواقعية ، بينما أهم خصائص المجتمع البنــاء الآلى التخيلى . وحياة المجتمع المحلى تتميز بأنها خاصة ، وودية ، وتآلفية ، أما حياة المجتمع فهى عامة ، أو هى العالم ذاته (١) . كذلك يرتبط المجتمع المحلى باللغة ، والطرائق الشعبية ، والأعراف والمعتقدات ، أما المجتمع فانــه يرتبط بالمهنة والعلم أساسا . وهكذا يجب أن نفهــم المجتمع المحــلى ككائن عضوى حى ، أما المجتمع فاننا ننظر اليه بالضرورة بوصفه مركب آلى ، أو شىء مصطنع . أما صورة الوحدة التى تربط الأفراد ببعضهم كأعضاء

---

(١) عرضت نظرية شوليز بالتفصيل فى كتاب : مفاهيم أساسية فى علم الاجتماع ترجمة وأشرف على تحريره تشارلز لوميز ، ثم نشر هذا المؤلف حديثا فى بريطانيا بعنوان : المجتمع المحلى والرابطة ، لندن ، ١٩٥٥ .

See, F, Toennies Fundamental Concepts of Sociology (Gemeinschalt and Gesellschaft) (trans. Looms) N.Y, 1940.

فى كل من الجماعتين فتتمثل فى أن الأفراد فى المجتمع المحــلى يظلون محافظين على اتحادهم رغم كل العوامل التى قد تؤدى الى التفرقة ، على حين أنهم فى المجتمع ينفصلون أساسا برغم كل العوامل التى تؤدى الى تجمعهم وترابطهم • ولكى يوضح تونيز طبيعة الروابط السائدة فى المجتمع المحلى يستخدم مصطلح « الفهم » فيقول : « اننا نطلــق على العواطف المتبادلة كارادة خاصة بالمجتمع المحلى اسم « الفهم » ويمثل « الفهم » قوة اجتماعية خاصة ، أو تعاطفــا وجدانيا يحفــظ ارتباط الكائنات الانسانية ببعضها بوصفهم أعضاء فى تركيب كلى • ان المصدر الحقيقى للوحدة ، وبالتالى لقيام المجتمع المحلى يتمثل أولا فى الارتباط بعلاقات الدم والتزاوج . وثانيا فى التقارب الفيزيقى . وأخيرا التقارب العقلى بين الناس ، ولهذا فاننا نجد فى هذا البناء مصادر كــل أنواع الفهم » •

ولقد منح تونيز الأسرة أهمية خاصة بوصفها تشــكل الاساس العام للحياة فى المجتمع المحلى ، فهو يرى أن المجتمع المحلى يوجــد فى حياة القرية ، كما يتمثل فى حيــاة المدينة ، طالما أننا ننظر الى هــذين الشكلين من الجماعات الانسانية على انهما امتداد لحياة الاسرة ، وهنا تكون القرابــة الحقيقية والمكانــة الموروثة من بين العوامــل الهامة والاساسية فى تحديد الاشتراك فى الملكية العامــة والحقوق الأخرى • ويذهب تونيز الى أبعد من ذلك . حينما ينــاقش الأسرة ، والقرية ، والمدينة فى ضوء أسس متشابهة للترابط ، فهناك ثلاثة نمــاذج للحياة تسود فى المجتمع المحلى والمجتمع على حد سواء : أما بالنسبة للمجتمع المحلى نجد حياة الأسرة وهى تعادل التوافق أو الفهم حيث يشارك الفرد فيها بكل عواطفه واحساساته ، والشعب هو القوة الضابطة هنا ، وحياة القرية وهى تساوى الطرائق الشعبية والأعراف ، وفيها يشارك الفرد بكل عقله وقلبه ، وتتمثل القوى الضابطه فى الثروة المشتركة،وأخيراً حياة المدينة الصغيرة وتوازى الدين . ويشارك فيها الفرد بضميره ، والكنيسة

هى القوة الضابطة فيها ، أما فيما يتعلق « بالمجتمـع » كطرف مقابل ، فهناك حياة المدينة الكبيرة وتساوى الاصطلاح أو الاتفاق ، وتتحدد على اساس حسابات معينة يقوم بها الفرد ، وتكون القـوة الضابطة هى المجتمع ذاته ، ثم حياة القومية وتقابل التشريع ، الـذى تحكمه أيضا تقديرات وحسابات الفرد ، وتتمثل القوة الضابطة فى الدولة • وهناك أخيرا الحياة العالمية وتقابل الرأى العام ، ويحكمها شعور الفرد ووعيه ، كما تتمثل القوة الضابطة فى جمهورية المثقفين •

ويستطرد تونيز بعد ذلك بقوله اننا نجد فى كل فئة من هذه الفئات الثلاثة للمجتمع المحلى والمجتمع ، حياة مهنية خاصة ، واتجـاه فكرى مسيطر : أما بالنسبة للمجتمع المحلى فاننا نجد الاقتصاد المنزلى الذى يقوم على أساس الرغبة والتفضيل والفهم ، والزراعة التى تعتمد على أداء أعمال متكررة ومنتظمة تحتاج الى تدعيم التعاون ، وأخـيرا الفن الذى يرتكز على الذكريـات ، والقواعـد التى يتصورهـا الفرد ، والاعتقادات والميول الخاصة • أما فيما يتعلق بالمجتمـع كطرف مقابل فاننا نجد التجارة وتقوم على أساس التفكير ، والانتبـاه ، والمقارنة ، والتقدير ، ومن ثم تصبح التجارة هى أساس كل الأعمـال ، والصناعة التى تعتمد على اتخاذ القرارات ، أى استخدام رأس المـال والقوى العاملة بكفاءة ، ومن ثم تتحكم التنظيمات فى ادارة المصانـع • وأخيرا العلم ويقوم على تصورات ومفاهيم واضحة بذاتها ، وقد تنتشر حقائقه وأفكاره فى مطبوعات ونشرات لتصبح جزءا من الرأى العام •

هكذا يبدو واضحا أمامنا كيف أقام تونيز نماذجه المثالية للمجتمع المحلى والمجتمع ، وما هى العناصر الأساسية التى ضمنها هذه النماذج ، ثم يبرز أمامنا أيضا حقيقة أخـرى وهى أن تونيز استعان بالثنائيات والماثلات التى استخدمها غيره من علماء الاجتماع • مثال ذلك النظرية التطورية عند سبنسر من تجانس غير محدد وغـير مترابط ، الى تغاير محدد ومترابط ترابطا منطقيا • وثنائية دوركايـم عن التضامن الآلى

والتضامن العضوى ، وكذلك فيبر حينما استخـدم العلاقات المحلية والعلاقات التعاقدية •

وقد علق تولكوت بارسونز على الأهمية السوسيولوجية لتصورات تونيز ، وذلك عندما حاول أن يوضح الاختلافات الجوهرية بين المجتمع المحلى والمجتمع ، حيث كتب فى مؤلفه : بناء الفعل الاجتماعى يقول : « ان المعيار الأساسى هنا هو الطريقة التى نتحدث بهـا عن الاطراف المتقابلة والتى يكون لكل منها غرض معين من الدخول فى العلاقة • ففى حالة المجتمع نجد أن هناك غرضـا محددا ونوعيا ، ومتبادلا للسلـع والخدمات ، وهدفا عاجلا يراد تحقيقة ، أما فى حالة المجتمع المحلى فان الأمر مختلف عن ذلك تماما ، كذلك نلاحظ أن أطراف العلاقة فى المجتمع يتمسكون بالتزامات تؤكدها جزاءات معينة • غير أن الالتزامات فى هذه الحالة تكون محدودة بالعقد ، بحيث لايمكن فرض التزامات جديدة فى أى موقف ، اذا لم تكن هذه الالتزامات منصوص عليها صراحة فى العقد، ولذلك فان أى طرف يطالب بتنفيذ أو أداء التزامات غير منصوص عليها صراحة ، علية أن يتحمل مسئولية اثبات صحة ادعائه • أمـا التزامات المجتمع المحلى فهى غير محددة وغير متخصصة ، وحتى فى الحالات التى تكتسب فيها هذه الالتزامات بعض التحديد ، فـان ذلك يحدث بطريقة عامة جدا ، لايمكن مقارنتها بالتزامات المجتمع (١) •

والسؤال الآن ، ما الذى يمكن أن نفيد بـه من تحليلات تونيز وبارسونز للمجتمع المحلى والمجتمع ، ان الاجابة على هـذا التساؤل تتطلب أولا حصر العناصر والمكونات المتضمنة فى النموذج المثالى ، ثم الاستعانة بها فى دراسات المجتمعات المحلية المختلفة • ولكننا قبـل أن نشير الى هذه المكونات بالتفصيل ، وبصورة منظمة ، علينا أن نبرز نقطة

1) Parsons, the Structure of Social Action, N. Y, 1937, P. 687, et. Seq.

هامة وهى أن هذه الأبعاد التى تنطوى عليها النماذج المثالية ذات فائدة تصنيفية ، اذ يمكن على سبيل المثال أن ترتب المجتمعات المحليه ذاتهـا بجعل تلك التى تقوم على روابط الدم تحتل مرتبة عليا ، ثم تأتى بعدها المجمتعات التى تقوم على أساس التقارب الفيزيقى فى المحل الأول ، ثم نضع فى المرتبة الثالثة من هذا التصنيف تلك المجتمعـات المحلية التى ترتكز على العقل أو الدين ، وكذلك الأمر بالنسبة للمدينة . فكأننا اذن نستطيع أن ندعم معيار التفاعل ، الذى سبق أن أشرنا اليه ، كأساس محدد للمجتمع المحلى .

أما فيما يتعلق بعناصر النموذج المثالى فى ضوء تحليلات كل من تونيز وبارسونز ، فانه يمكننا أن نعرضها بصورة مخظمة كمـا قدمها بيترمان P. Mann على النحو التالى (1) .

المجتمع المحلى	المجتمع
— ارادة طبيعية .	— ارادة عاقلة .
— الذات .	— الشخصى .
— المهنة .	— الثروة .
— الأرض .	— المال .
— القانون الأسرى .	— القانون التعاقدى .
— عضوى .	— آلى .
— حياة خاصة .	— حياة عامة .
— أفراد مترابطون .	— أفراد منعزلون .

---

1) Mann, Op. Cit., P. 197.

التسلسل	التسلسل
— اقتصاد الأسرة .	— التجارة .
— اقتصاد القرية الزراعية .	— الصناعة .
— المدينة الصغيرة كنقطة التقارب العقلى والدينى والفنى .	— الحياة العالمية والعـلم أساس الـرأى العام .
— مركز ومكانة موروثة .	— مركز ومكانة مكتسبة .
— أغراض عامة وغير محددة .	— أغراض خاصة ومحددة .
— التزامات عامة وغير محددة	— التزامات يحددها العقد .
— الاثبات يقع على الشخص الذى يتخلص من الالتزام .	— الاثبات يقع على الشخص الذى يطالب بتنفيذ الالتزام .
— الاستعانة بالتزامات المجتمع المحلى العليا للتخلص من الالتزامات الأدنى .	— ليس هناك ترتيبا هرميـا للالتزامات ، وانما المهـم هو بنود العقد .

هكذا تتضح أمامنا العوامل الرئيسية المحددة لكـل من المجتمع المحلى والمجتمع ، كما حددها تونيـز وبارسونز ، واستخدامنـا لهذه العوامل يعنى فى حقيقة الأمر تطبيق فكرة النمـاذج المثالية فى دراسة وحدات اجتماعية ملموسة . لكن ذلك بالطبع قد يثير بعض الاعتراضات، أهمها أن هذه التصورات تعكس مراحل معينة من التطـور التاريخى ، وأن الاغراق فى التاريخ قد لايفيد الدراسات الراهنة . والرد على ذلك أننا لانستخدم خصائص المجتمع المحلى لدرسـة قرى العصور القديمة أو المجتمعات البدائية ، وانما نستعين بكل عناصر النموذج المثـالى فى دراسة المجتمع الحديث ، فاذا كشف هذا المجتمع عن انتقال أو تحول

فى علاقات المجتمع المحلى الى علاقات المجتمع ، وكان التحقق من هذا الانتقال ممكنا ، فان ذلك سوف ينطوى على قيمة كبيرة فى تحليلنا للمجتمع المحلى . كما أننا سوف نستخدم هذه المعلومات فى تحقيق أهداف دراستنا . واذن ، فنحن لانقوم بدراسة تاريخية ، ولكن اذا كانت المعلومات التاريخية ذات فائدة ، فليس هناك ما يمنع من الاستعانة بها .

والواقع أننا نستطيع أن نتتبع أصول هذا الاتجاه فى دراسة المجتمع المحلى من خلال النماذج المثالية ، فى تراث علم الاجتماع . فقد أشار هربرت سبنسر فى كتاباته الى تصورين متناقضين هما : التجانس غير المحدود وغير المترابط ، والتغاير المحدود والمترابط منطقيا ، ويمكن القول الى حد ما أنه استخدم هذين التصورين كنماذج مثالية فى وصف وتشخيص أبعاد التنظيم الاجتماعى الانسانى . أما أميل دوركايم فقد تحدث فى مؤلفه : « تقسيم العمل » عن التضامن الآلى والتضامن العضوى ، فالتضامن الآلى يربط الفرد مباشرة بالمجتمع دون أى وساطه بينما التضامن العضوى عميق التكامل بين أجزاء متباينة الوظائف . كذلك أشار تشارلز كولى فى دراسة للتنظيم الاجتماعى الى الشروط البنائية التى تعمل على ايجاد جماعات أوليه ، والتى تتعارض مع شروط أخرى تؤدى الى ظهور نماذج للجماعات تشبه تلك التى تتضامن تضامنا عضويا عند دوركايم ، ويقول كولى فى هذا الصدد : « اننى أعنى بالجماعات الأولية تلك التى تتميز بالتعاون والترابط الوثيق بين الأفراد، وهى أولية بمعانى عديدة ، ولكنها أولية فى الأساس لأنها ضرورية وحيوية فى تكوين الطبيعة الاجتماعية للفرد ومثالياته . ومن نتيجة هذا الارتباط الوثيق ، على المستوى النفسى ، التحام شخصيات الأفراد فى وحدة كلية ، ومن ثم تصبح الذات الفردية ، معبرة عن حياة الجماعة وأهدافها » (١) . ومع ذلك ، فان كولى قدم أمثلة توضيحية تقل بكثير

---

(1) Cooley, Social Organization, London, 1947, P. 124.

عن تلك التى قدمها تونيــز ، حيث ذهب الى أن الجمــاعات الأولية الأساسية هى الأسرة ، وجماعة اللعب عند الأطفال ، وجمــاعات كبار السن فى المجتمع المحلى ، أما قوة روابط هــذه الجماعات ، فهى تشبه تلك التى وصفها دور كايم فى حالة العشيرة •

أما ماكس فيبر فقد ذهب الى أن العلاقة الاجتماعية توصف بأنها محلية ، طالما كان توجيه الفعل الاجتماعى يستند الى شعور ذاتى مــن الأطراف بالانتماء والاشتراك ومن ناحية أخرى تكون العلاقة الاجتماعية ترابطية اذا كان توجيه الفعل الاجتماعى يعتمد على توافــق المصالح بصورة رشيدة • وأخيراً أكد هوبهاوس أن المجتمع المحلى لايمثل رابطه طوعية يدخل الأفراد ، أو يخرجون منها كيفما أرادوا ، ولكــن تنظيمه ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية تفرض نفسها على كل من يحاول معارضتها ، ويتميز ، المجتمع المحلى أيضا بتجانس العواطف والمصالح• ولقد أدرك هوبهاوس أن أفكارة تنطوى على قدر كبير من التجديد ، ومن ثم ذهب الى « أننا لانستطيع ببساطة أن نعرف المجتمع المحــلى بأنه كائن عضوى ، ولكننا نستطيع على العموم أن ننسب اليه طابعا عضوياً من نوع معين ، وبدرجة محددة » ، كذلك نجده يبرر استخدامه للنماذج المثالية بقوله : « ان النمــوذج المثالى لــه قيمته العلميــه بوصفه يوضح خطوط المقارنة » (1) •

مناقشة وتقييــم :

فرغنا الآن من عرض التصورات المثالية للمجتمع المحلى ، وتنظيم هذه التصورات عبر اتجاهين أساسين هما : استخدام النماذج المثالية ، ثم فكرة الثنائيات التقليدية ، التى ظهرت فى تراث عــلم الاجتماع • والواقع أن دراسة موضوع معقد مثل بناء المجتمع عن طريق الاستعانة

---

1) See, L.T. Hobhouse, Social Development; London, 1924. p. 34.

بالثنائيات سوف ينتهى بنا الى نوع من القسمة الحاسمة بين نموذجين مختلفين تمام الاختلاف للحياة الاجتماعية ، مع أن واقــع الأمر ليس كذلك تماماً ، كما أننا نستطيع القول بأن صياغـــة النماذج المثالية ليس الا خطوة أولية ، نحو الربط بين القطبين المتعارضين عن طريـــق فكرة الامتداد أو المتصل Continuum . اننا بذلك نستطيـــع المزاوجة بين العناصر المختلفةالتى أشار اليها كل من سبنسر ، ودوركايم ، وكولى ، وفيبر ، وهوبهاوس ، وتونيز ، وبارسونز ، ولندبرج وماكيفر ، فقــد رأينا كيف أن ماكيفر ولندبرج يذهبان الى أن أهــم عنصرين للمجتمع المحلى هما : المنطقة الجغرافية ، والحياة المشتركة . والمنطقة الجغرافية عند لندبرج ليست عاملا سوسيولوجيا بالدرجة الأولى ، ولكنهـــا عامل ثانوى له أهمية خاصة ، كذلك تبين من كتابات هوبهاوس عن الثقافات البدائية أن أهمية العامل الجغرافى تتمثل فى درجة العزلة التى تفرضها البيئة على الجماعات . أما عامل الحياة المشتركة ، فقد أظهرت الكتابات المختلفة أهميته الكبرى التى تفوق أهمية العامل الجغرافى ، ومـــن ثم يجب التأكيد على هذا العامل فى دراسات المجتمع المحلى .

وتتضح أهمية المزاوجة بـــين العناصر المختلفة ، والأخـــذ بفكرة المتصل ، اذا علمنا أنه برغم التغيرات الكبرى التى يتعرض لها المجتمع المحلى الآن ، مما يؤدى الى اكتسابه لخصائص « المجتمع » عـــلى نحو ما ذهبت اليه الثنائيات ، الا أنه حتى فى هذه المجتمعات المتغيرة التى تقوم على التعاقد والعقلانية ، لا تزال توجد نماذج للعلاقات الأولية ، كما لاتزال توجد أيضاً عناصر غير منطقية للسلوك وللنظم القانونية ، والدينية ، والعائلية ، والاقتصادية ، والسياســـة . ولاشك أن ذلك يقتضى الاستعانة ، بكلا التصورين النظرين الواســـع والضيق ، أمـــا التصور الواسع Macro - Conception فسوف يستخـــدم فى تحليل العلاقات الاجتماعية القانونية التى تظهر بوضوح فى المجتمع الحضرى الصناعى وتكشف عن تأثـــير تغيرات اجتماعية كبرى ، عـــلى حين أن الاعتراف بأن الفرد لايعيش بعلاقاته الثانوية فقط ، سوف يجعلنا نطبق

التصور الضيق Micro - Conception فى دراسة العلاقـات الشخصية المتبادله التى لاتزال تقوم بين الأفراد فى المجتمع الحضرى على أساس المواجهة المباشرة .

١ — نحو موقف نظرى متكامل فى علم الاجتماع الحضرى

يبدو واضحا الآن أن هناك كما من المادة الواقعية عن المدن متوافر فى أنحاء العالم المختلفة على الرغم من أنها قد تكون قاصره على تغطية بعض وجوه الحياة الحضرية أو تكون دقتها محل نظـر . الأمر الذى يجعل الحاجة ملحة لمادة وصفية أكثر وأوسع احاطة من المادة الحالية ، الا أن هذا المطلب لايجب أن يحجب الحاجة الضرورية للتركيب والتأليف النظرى ، لأنه كلما زاد تراكم المعلومات تصبح مسألة ايجاد نظام يربط هذه المادة بنموذج نظرى مسألة جوهرية لنمو المعرفة السوسيولوجية بصفة عامة . ويقول « البرت رايس » فى مقاله عن علم اجتماع الحياة الحضرية (١) أن هنـاك ميلا لدراسـة أجزاء من البنـاء الاجتماعى والايكولوجى الحضرى أكثر من دراسة البنـاء الكلى أو عـلى الأقل استخدام المدينة كمعمل لاختبار النظريات والفروض التى تتصل بوجه خاص بقضايا علم الاجتماع الحضرى ، وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه يمكنأن يستمر فانـه من المأمول أن يتحـول البحث الحضرى الى الاهتمام بالمنظور الكمى الذى يمكـن اذا حدث أن يعاون عـلى فهم العلاقات التى تربط عناصر البناء الاجتماعى ، وكذلك العـلاقات التى تربط النسق الاجتماعى الثقافى بالتنظيم الايكولوجى .

---

1) Albert J. Reiss Jr. «The Sociology of Urban life 1946 - 1956» in Paul K. Hatt and Albert J. Reiss, Jr, (eds)., Cities and Society : The Revised Reader in Urban Sociology, Free Press, 1961 PP. 3 - 11.

أن أهم ما يواجه المنظرين فى علـم الاجتماع الحضرى ابتداء ، الحاجة لتوضيح وتهذيب كثير من المفهومات المتداولة فى هـذا الميدان مثل « المجتمع المحلى » « والمدينة » « الحضرية » « والمجتمع الحضرى» « والايكولوجيا » لأن هذه المصطلحات تستخدم بطريقة غـير محددة ومتناقضة أحيانا ، ويـرى « جوبرج » Sjober; أن هنـاك أربعة موجهات نظرية فى علم الاجتماع الحضرى يجب أن نعالج وأن توضح لأهميتها الكبـيرة فى الدراسة المقارنة للتنظيـم الاجتماعى الحضرى وايكولوجية المدينة ، ويعتقد أن أهمية هذه الموجهات النظرية تكمن فى أنها متغيرات ذات قيمـة بالغـة فى تفسير الأنمـاط الأساسية للحياة الحضرية .

١ــ معالجة المدينة كمتغير أساسى . أن مفهوم المدينة كمتغير فى علم الاجتماع الحضرى ظهر أولا وكما أشرنا الى ذلك على يد « بارك » « وويرث » « وردفيلد » وغيرهم ممن ينتمون الى مدرسة علم الاجتماع فى شيكاغو » (١) . الا أن محاولتهم واجهت عـددا من الصعوبات لأن تفسيراتهم للمدينة التى تضمنت جوانبها الايكولوجيـة لم تتقابل مع جهودهم لشرح أوجه النشاط الاجتماعى . ويلاحظ أن من كتبوا بعـد ذلك متأثرين بأفكار « بارك » درسوا الايكولوجيا الانسانية من خـلال الاطار البيولوجى . وعلى الرغم من أن هؤلاء قد فسروا نظرية «بارك» تفسيرا مختلفا الا أن النظرية ذاتها حذفت الجوانب الاجتماعية للعلاقات الانسانية المتبادلة كميكانيزم لشرح الأنماط الايكولوجية ، وركزت بدلا من ذلك على قوى أخرى مثل البيئة الطبيعية والمنافسة غير الشخصية وقد حاول « هولى » Hawley أن يضم العوامل التكنولوجية والاقتصادية

---

(١) أنظر عرضنا لمدرسة شيكاغو فى الفصل الاول .

فى الاطار البيولوجى المرجعى (٢) •

ان النظرة البيولوجية مع ذلك ذات قيمة قليلة اذا عولجت على أنها متغير مستقل ، وخاصة اذا كان الأمر سيتعلق بالأنماط الايكولوجية التى تظهر فى المدن على المستوى العالمى ، لأنه لو كانت هذه النظرية صحيحة فان كل المراكز الحضرية العالمية سوف تنم عن متشابهات واختلافات واحدة متسقة ومستقلة عن القيمة الثقافية وبناء القوة والتكنولوجيا ، ولهذا يعتقد « جوبرج » ، أن المدينة يمكن أن تؤخذ على أنها متغير مستقل لشرح بعض نماذج النمط الايكولوجى •

وعلى الرغم من النقد الذى يوجه الى الصياغات النظرية التى تعتبر المدينة متغيرا مستقلا ، يصلح لتفسير أى ظواهر أخرى مرتبطة بالحياة الحضرية الا أننا لانستطيع أن نرفض هذا الاتجاه من وجهة نظر الدراسات المقارنة رفضاً كليا ، وذلك أنه بغض النظر عن النسق الثقافى فان المجتمعات المحلية الحضرية والريفية تختلف بعضها عن الآخر • اذ أنه خلال التاريخ كانت المدينة باعتبارها حلقة الاتصال بين أجزاء المجتمعات ، مركز كل أنواع التغيرات وخاصة تلك التى انبعثت من النشاط الفكرى الخلاق • ان المدينة تهيىء كل الظروف الضرورية لأنواع معينة من التغير التى تتعلق بالسلوك الجمعى ، وهذا بالاضافة الى أن المراكز الحضرية تمثل اليوم مراكز التنظيم والقوة السياسية وتتركز فيها كل أنواع التعليم وتمارس ضبطا اجتماعيا متعدد الجوانب على المجتمعات المحلية الريفية • اذن يجب معاودة النظر فى المدخل

---

(٢) حاول هولى أن يدعم الاتجاه البيولوجى ويجعله أكثر قدرة على استيعاب مجموعة متغيرة من العوامل المفسرة للحضرية ولطابع المدينة ، الا أنه لم يستطيع فى نهاية الأمر أن يتجاوز التناقض الصريح الذى ينطوى عليه هذا الاتجاه ، أنظر :

Amos, H. Hawley, Human Ecology, Ronald Pres, 1950.

النظرى الذى يعتبر المدينة متغيرا مستقلا على الرغم من الفائدة التى يمكن أن يؤديها هذا المدخل فى الأبحاث الحضرية المقارنة •

٢ — القيم الثقافية كمتغير أساسى مستقل :

ان هذا المنظور النظرى يصطدم بالمنظور السابق حيث يفسر التنظيم الايكولوجى والاجتماعى الحضرى من خلال القيم الثقافية وقد أسهم فى تدعيم هذا الاتجاه عدد كبير من علماء الاجتماع من أمثال : « ديكنسون » و « كولين » فكتب « فون جرونبوم «Von Grunebaum» مقالا يؤيد هذا الاتجاه ويطبق أفكاره على المدن الاسلامية التقليدية التى تهيمن القيم الدينية فيها على أنواع النشاط المختلفة فى الحياة الحضرية وقد توصل الى ذلك حين استنتج من الصلاة التى تقام خمس مرات فى اليوم وصيام شهر كامل فى رمضان نتائج تتصل بغلبة القيم والمعتقدات وتأثيرها فى طابع الحياة الحضرية (١) •

ان النظر الى القيم كمتغير مستقل يؤدى الى نتائج على البناءات الحضرية الاجتماعية الدينية أو العائلية أو التربوية يمكن أن تتأيد باستمرار البحث فى ثقافات مختلفة على المستوى العالمى • الا أن العلاقة الدقيقة والمحددة التى تربط القيم بالبناء الاجتماعى أو الايكولوجيا فى المجتمعات المعقدة أو المركبة مسألة تحتاج الى نظر،ذلك أنه فى المجتمعات الحضرية الصناعية بوجه خاص يكون من الصعب استكشاف القيم التى يشترك الجميع فى اعتناقها أو تلك التى تؤثر فى السلوك الفعلى للغالبية العظمى من السكان ، واذا كان المطوب معرفة

---

(١) جاءت هذه الاشارة فى المقالة التى كتبها جرونبوم فى العدد الذى أصدرته الرابطة الأمريكية للانتروبولوجيا رقم ٨ سنة ١٩٥٥ الفصل الثامن •

حقيقة تأثير القيم فى البناء الاجتماعى الحضرى فــان دراسات نظرية وامبيريقية لابد أن تجرى على أسس ثقافية مختلفة .

٣ ـ التكنولوجيــا كمتغير أساسى مستقل :

يعتقد أنصار هذا الاتجاه أن التكنولوجيا بازدياد أثرها على الحياة الاجتماعية فى المجتمعات بصفة عامة ، تصبــح بالنسبة للمدينة متغيرا مستقلا ويكون التصنيع فى هذه الحالة ، الذى يتضمن نسق الانتاج . وما يتطلبه من استخدامــات لمصادر الطاقــة ، نموذجا خــاصا من التكنولوجيا . ويعتبر « وليم اجبرن » و « هولى » من بين أولئك الذين دعموا هذا المدخل (١) ، وقد تمت دراسات عديدة لاثبات مدى التأثير الهائل الذى تحدثه عناصر التكنولوجيا فى حياة المجتمع الحضرى ، الا أن النقد الذى يوجه الى هذا الاتجــاه ينبعث من اقتصار أنصاره على دراسات أجريت على المجتمعــات المعقدة وخاصــة تلك المجتمعات التى ازداد فيها التقدم التكنولوجى وأصبحت الآلية سمة من سمات الحياة اليومية ، كما أن ابراز التكنولوجيا والتركيز عليها عزل مؤثرات عديدة يمكن أن تحدث آثاراً فى حياة المدينة من خلال عوامل أخرى كالدين وبناء القوة والايكولوجيا ، خاصة اذا كنا نريد أن نتعرف بنــاء على وجهة النظر المقارنة على الظروف المختلفــة لحياة المدينة بوجه عــام . ومن الملاحظات الجديرة بالنظر هنا أن التعميم من النتائــج التى استمدت من الدراسات الحضرية الصناعية يمكن أن تتناقض بعضها مع بعض ، ولايجب أن ننسى هنا أن بعض أنصار الاتجــاه البنائى الوظيفى قد

---

(١) أجرى وليام أجبرن عددا من الدراسات عن تأثير التكنولوجيا فى المجتمع الحديث ضمنها أغلب كتبه ، وأورد هات وراس مقالته عن:

Inventions of Local Transportation and The Patterns of Cities and Society 1961. PP. 274 - 282.

بالغوا فى درجة الانسجام القائمة بين الأنساق الاجتماعيـة ، اذ ليس هناك ما يدعونا الى تأكيد الصراع الـذى يقوم حتى فى أكثـر المراكز الصناعية الحضرية تقدمـا • وخاصة بين الحاجـة الى بيروقراطيات عقلانية واسعة النطاق ذات ترتيبات تدرجيـة واضحة المعالم ، وبـين الحاجة الى نسق طبقى يتسم بالمرونة والى توزيع متعادل للقوة ، وربما يكون لهذا المدخل آثار هامة فى نمو النظرية المقارنة لو أن من يتبنون تشجيع الدراسات التى تجـرى فى المراكز الصناعية الحضريـة أو فى المجتمعات التى تحمـل نفس الطابـع ، تجنبوا النظر الى الانســاق الاجتماعية على أنها أنســاق مغلقة ، على الرغـم من أن بعض علماء الاجتماع يهتمون بالتكنولوجيا وينظرون اليهـا كمتغير مستقـل ربما يقولون ان الاهتمام بمثل هـذا الموضوع خارج عن نطـاق الدراسة الحضرية •

٤ ـ القوة كمتغير أساسى مستقل :

لقد أدخل وليم فورم هذا الاتجاه فى الايكولوجيا الحضرية ليفسر أنماط الاستخدامات الحضريـة للأرض ولكن هذا المدخل يحتـاج الى تدعيم ، لأن فورم كان يركز على أنماط المجتمع المحلى وفشل فى ادراك أهمية هذا الاطار فى تحليل نمو المدن والتنظيـم الاجتماعى الحضرى بوجه عـام •

ان البناء الاجتماعى والايكولوجى للمدينة يمكن أن يتأثر بالقرارات التى تصدرها مراكز القوة على المستوى القومى ، والأمثلـة على ذلك كثيرة من كل أنحاء العالم ذلك أنه قد ترتب على تنفيذ بعض المشروعات أو على تنفيذ برامج التخطيط على المستوى القومى اقامة مدن لتؤدى وظائف معينة ، ولعل هذا المدخل فى الدراسة الحضرية لازال يحتاج الى تدعيم خاصة وأن الدراسات المتعلقة بالقوة السياسية أو أية قوة أخرى ذات تأثير فى التنظيم الاجتماعى الكلى أو الجزئى لازالت تنمو ببطء فى

علم الاجتماع ، على الرغم من الاهمية المتزايدة لدور القوة فى المجتمع المعاصر (١) .

ان المداخل النظرية الأربعة السابقة ليست هى كل ما يمكن أن نتوصل اليه نظريا فى دراسة المجتمع الحضرى الا أن ابرازها على هذا النحو يجعلنا كما يقول « جوبرج » نصل الى النتائج الآتية :

١ — لابد من بذل جهود أكبر لتوضيح ما قد يتضمن عند أخذ المدينة أو القيم الثقافية أو التكنولوجيا أو القوة كمتغيرات مستقلة لمحاولة تفسير بعض وجوه البناء الاجتماعى أو الايكولوجى الحضرى . ذلك لانه يبدو أن كلا من هذه المتغيرات يمكن أن يستخدم بطرق متعددة ويكون فى نفس الوقت مفيدا .

٢ — ان الاطار النظرى الذى يتضمن كل متغير يمكن أن يكون كافيا ومنتجا لو أن علماء الاجتماع الحضرى بذلوا اهتماما أكبر لاستيعاب النظرية السوسيولوجية العامة ذلك لأن الجهد الأكبر فى الدراسة الحضرية قد وجه الى جمع المادة وأهملت بالتالى المسائل ذات الطابع النظرى .

---

(١) أنظر من أجل الدراسات والاتجاهات التى تجرى عن القوة وبنائها ووظيفتها فى المجتمع الحديث مثل :

a - Robert Nisbet : The Sociological Tradition, N.Y., 1966. PP. 107 - 173.

b - C. Wright Mills Power-Elite, 1957.

c - Bendix and Lipset (eds). Class. Status and Power, 1953.

٣ — ان العلاقات بين المتغيرات الأربعة يجب أن تخضع للبحث ، لأنه من المحتمل ألا نستطيع فهم النسق الاجتماعى الحضرى دون أن ندخل فى اعتبارنا كل هذه المتغيرات وفى هذا الصدد قـد تنشأ مشاكل عديدة ، لأن هذه المتغـيرات لاتنتمى الى نفس مستـوى التجريد أو التحليل ، ومثال ذلك ، ان متغيرى التكنولوجيا والمدينة يختلفان فى نواح أساسية عن متغيرى القيم الثقافية والقوة .

الفصل الثالث

المجتمع المحلى الحضرى

ان اتساع نطاق المجتمع الحديث خلق ظروفا لم تخبرها المجتمعات القديمة أو البدائية ، كما أن اتساع نطاق العمران فى مختلف بلاد العالم غير من التنظيم الاجتماعى التقليدى الذى كان يقوم على وحدات صغيرة نسبيا • ومن الحقائق التى توصل اليها علم الاجتماع ، أنه كلما زاد المجتمع تعقدا زاد اتساع التنظيم الاجتماعى وتعددت أقسامه وأنواعه، كذلك ترتب على زيادة السكان وتقسيم العمل والتخصص والتغير المستمر فى طبيعة الانتاج . وجود اختلافات كثيرة بين القوة البشرية المكونة لكل مجتمع ، ويضاف الى ذلك أن المجتمعات أصبحت تشغل مناطق جغرافية محددة ذات ظروف طبيعية متمايزة ، الامر الذى أدى الى زيادة الضغط على مصادر الثروة الطبيعية وخلق ظروفا ومواقف تعتبر جديدة على تجربة الانسان الماضية •

ان علم الاجتماع عندما يدرس المجتمع دراسة واقعية ، يركز على التجمعات القائمة فعلا والتى من مجموعها يتكون هذا المجتمع • أو بمعنى آخر ، أن المجتمع عند كثير من علماء الاجتماع يعتبر فكرة أو تصورا . أما ما هو موجود فى الواقع والذى يخضع للملاحظة العلمية ويمكن معه استخدام أدوات البحث المختلفة فهو الجماعات ومركبات الجماعات . ولهذا يهتم علم الاجتماع الحديث بموضوع الجماعة ويجعله نقطة الارتكاز فى البحث والتحليل •

وهذه الجماعات كما أنها تعيش واقعا اجتماعيا محددا ، تمارس نشاطها فى منطقة جغرافية محددة تضيق أو تتسع حسب الظروف . عندما يتجمع عدد من الجماعات فى منطقة جغرافية معينة لتمارس أنواعا

متشابهة من النشاط الاجتماعى والاقتصادى والسياسى • فانها تتميز اختلافا عن جماعات أخرى تعيش على منطقة جغرافيـــة مختلفة ، وهنا تبرز عندنا فكرة تنميط المجتمع الى أنماط رئيسية تقوم علـــى ما لدينا من معرفة بالاختلافات بين هذه الأنماط كل عن الآخر ، واذا ضيقنا دائرة التشابه وأبرزنا دائرة الاختلاف ، يمكن أن تنحصر هـــذه الأنماط فى نمطين كبيرين يوجدان تقريبا فى كـــل مجتمع انسانى ، ويكـــاد علماء الاجتماع أن يجمعوا على أن هذيـــن النمطين همـــا : الريف والحضر • وطالما أنهمـــا ينتميان الى منطقـــة جغرافيـــة واحـــدة ويخضعـــان لسلطة واحدة أيضا ويضمها مجتمع واحد وثقافة واحدة ، فقد أصطلح علماء الاجتماع على اطلاق اسم المجتمع المحلى على كل منهما ، وهكذا نتبين أن الباحثين فى المجتمع الانسانى يلتقون حول نقطة هامة • وهى ضرورة وجود أساس اقليمى أو جغرافى للمجتمع المحلى ؛ وقد يختلفون فى الخصائص التى تنسب الى هذا المجتمع المحلى ، ولكنهـــم فى نهاية الأمر يسلمون بأن المجتمعات المحلية حقيقة واقعيـــة أدق تصورا وأكثر تحديدا من المجتمع ذاته (١) •

ومن أجل هذا وجدنا من المناسب أن نعرض فى بداية هذا الموضوع لمجموعة من التعريفات التى تناولت المجتمع المحلى وخصائصه لنتبين موقف علم الاجتماع الحضرى اليوم من هذا الموضوع الذى يحمل طابع الأهمية فى دراساته المتعدده •

---

(١) ظهرت فكرة المجتمعات المحلية فى تراث علـــم الاجتماع ، وكانت تعالج على أساس أنها نمط متكامل للدراسة والتحليل ، وبنمو علم الاجتماع الريفى وعلم الاجتماع الحضرى ومحـــاولات تنميط المجتمعات داخل مجتمع أكبر ، أصبحت المجتمعات المحليه تعالج بمستوياتها المختلفة فى نطاق هذين الفرعين من علم الاجتماع •

٢٩ — يقول اجبرن ونيمكوف (١) Ogburn & Nimkoff أن هناك أنواعا كثيرة من المجتمعات المحلية يمكن أن نختـــار من بينها للعرض والدراسة ، فهناك مثلا المجتمعـــات المحلية الريفية والمـــدن المزدحمة ، وهناك القرى والمدن الصغيرة ، ولا تختلف هذه المجتمعـــات فى الحجم فقط بل أنها تختلف أيضا فى خصائصها العامة . ذلك أننا نلاحظ أن بعض هذه المجتمعات المحلية ذات طابع صناعى يظهر حول المصانع ، كما أن بعضها يحمل الطابع الزراعى ويقع وسط الأرض الخصيبة التى تروى بانتظام . ويقولان أننا لن نستطيع أن نتعرض بطريقة واضحة لتغير المجتمعات المحلية أو لأنواعها المتعددة ما لم نعرف مقدما « ما المجتمع المحلى ؟ » ولهذا يعرفان المجتمع المحلى ، بأنه جماعة أو مجموعة مـــن الجماعات التى تعيش على اقليم معين ، ويعتبران أن رابط الاقامة فى منطقة محددة أحد الخصائص التى تميز المجتمع المحـــلى عن غيره من المجتمعات . ولكن الاقامة فى منطقة واحدة وارتباط الناس برابط الاقامة الواحد لايجعل منهم فى الواقع مجتمعا محليا ، فقـــد يعيش الناس فى منطقة واحدة ، وعن قرب أيضا دون أن تنشأ بينهم صـــلات اجتماعية يمكن أن ترقى الى مرتبة العلاقة الاجتماعية المنظمة التى تشمل كـــل نواحى النشاط الانسانى ، ولهذا يضيـــف أجبرن ونيمكوف الى شروط الاقامة شرطا آخر ، وهو التنظيم الكلى للحياة الاجتماعية فى المنطقة التى يوجد عليها المجتمع المحلى ، وعلى هـــذا الأساس تكون جمعية البحوث الاجتماعية جماعة . وتكون قرية القيطون مجتمعا محليا .

ويرجع أصل كلمة « المجتمع المحلى » الى الوقت الذى كانت فيه المناطق المسكونه صغيرة ، وتتكون من عدد قليل جدا من الأسر ، ولذلك كانت جماعة الأسر التى تعيش فى مكان معين هـــى التى تكون المجتمع

---

1) Ogburn & Nimkoff A Handbook of Sociology. London. 1960 p. 1965

المحلى هناك . وقد ظل هذا اللفظ يطبق على مثل هذه الأمـــاكن عندما تزداد اتساعا أو تزداد حجما من الناحية السكانية مثل المدن الصغرى والمدن الكبرى التى تحتوى كل منهما على جماعات مختلفة قد لا تربطهما روابط القرابة أو الدم ، ويلاحظ أن اصطلاح المجتمع المحلى قد يطبق على مناطق متسعة جدا ، فيقال مثلا المجتمع الدولى أو المجتمع العالمى .

٢ — ويرى أرنولد Arnold green أن المجتمـــع المحلى ، تجمع من الناس يعيشون فى منطقة صغيرة دائمـــة ، ويتقاسمون طريقة مشتركة فى الحياة . ولذلك فان المجتمع المحلى يعتبر جماعـــة اقليمة وفى المجتمعات البدائية يكون المجتمع المحلى والمجتمـــع شيئا واحدا ، أما فى المجتمعات المتحضرة . فان المجتمع يتكون من مجتمعات محلية منفصلة تتقاسم كل منها بطريقة أو بغيرها حياة اجتماعية مشتركة ، وفى نفس الوقت تكون هذه المجتمعات المحلية شبه مستقلة يمكن أن تتميز الواحدة عن الأخرى فى الزى أو الخلق أو العادات أو القواعد الاجتماعية (١) .

ويختلف جرين قليـــلا عن أجبرن ونيمكوف ، لأنه يعتقـــد أنه فى المجتمع الحديث لاتكـــون الجماعات الاقليميـــة المحلية حـــرة التنظيم الاجتماعى الكلى ، لأن التنظيم السياسى فى المجتمع الكبير لايفرق بين القرية وبين المدينة . ومعنى ذلك أن التنظيم الاجتماعى الكلى فى المجتمع الحديث ينفذ الى كل أجزائه المحلية ويفرض نوعا من التشابـــه فى هذا المجال ، ويدلل جرين على رأيه هذا بقول ، ان جزءا من مدينـــة كبيرة « كمنطقة البلد أو الرمل فى الاسكندرية » لا تكون مجتمعا محلياً ، على الرغم من أنها تجمع من ناس يشغلون منطقة جغرافية محددة ، كما أن ظروف المدينة الحديثة تجعل الناس يسكنون فى مكان ويعملون فى مكان آخر ويتبضعون فى مكان ثالث . ولهذا تكون الحركـــة الاجتماعية فى

---

1) Arnold Green, Sociology, New York, 1960 PP 254 - 156.

المدينة الكبيرة من شأنها أن تقلل من انطباق اصطلاح المجتمع المحلى على مثل هذا النوع من التجمعات الانسانية •

وواضح أن جرين يحاول أن يبين أن اصطلاح المجتمع المحلى لا ينطبق الا على المجتمعات المعزولة نسبيا ذات الطابع الاجتماعى والثقافى المحدد ، أما تطبيقه على المدينة ، والمدينة الكبرى بالذات فانه يحمل بين طياته عدم ادراك الخصائص الحضرية والتنقل الاجتماعى وحركة السكان الدائمة بين أقسام المدينة الواحدة • ولكن جرين ينسى أن من يطلقون اصطلاح المجتمع المحلى على المدينة أيا كان حجمها لا يقسمونها الى مجتمعات محلية فرعية ، وانما ينظرون اليها ككل • ومن غير شك ، ان خضوع المدينة لادارة واحدة ولتنظيم اقتصادى وسياسى واحد أيضا ، واشتراك سكانها فى عدد كبير من الصفات المشتركة ، يجعل سكان المدينة يعيشون حياة اجتماعية كلية ويخضعون لتنظيم اجتماعى متكامل يواجه كل أنواع نشاطهم •

٣ — من الدراسات المبكرة عن المجتمع المحلى تلك الدراسات التى كتبها روبرت ماكيفر Robert Maciver عام ١٩١٧ (١) • وقد لخص هذه الدراسة مع تعديلات متعددة فى كتابه عن « المجتمع » الذى كتبه بالاشتراك مع تشارلس بيج Charles Page ، وفيه يعرفان المجتمع المحلى بقولهما : اننا نطلق كلمة المجتمع المحلى على أعضاء أى جماعة صغيرة أو كبيرة يعيشون معا بطريقة يترتب عليها أن يشاركوا فى الظروف الأساسية للحياة المشتركة ، ولا يشتركون بالذات فى مصلحة دون غيرها • وعلامة المجتمع المحلى أن الفرد يستطيع أن يقضى حياته كلها داخله فالفرد لا يستطيع أن يقضى حياته فى أحد المنظمات أو المؤسسات • ولكنه يستطيع أن يعيش هذه الحياة داخل قبيلة أو قرية

---

1) Robert Naciver, The Community, London, 1917.

أو مدينة ، واذن فالمقياس الأساسى فى المجتمع المحلى هو أن نجـــد كل علاقات الفرد الاجتماعية موجودة فيه ويرى ماكيفر أن المجتمع المحلى يقوم على أساسين هامين هما ، الاقليم الذى يشغله والشعور المشترك الذى يربط أعضاء هذا المجتمع المحلى معا ، ويعطيهم طابعــا خاصا ويؤدى فى نفس الوقت الى تماسكهم الاجتماعى .

٤ — ويتناول هنط Hunt (١) المجتمع المحلى بقوله : انه يتكون من الناس الذين يعيشون فى منطقة محلية ، والذين تكون لهــم نتيجة للمعيشة المشتركة مصالح معينة ومشاكل مشتركة . ونظرا لقرب أعضاء المجتمع المحلى أحدهم من الآخر ، فانهــم يتعاونون وينتظمون ويتعين عليهم نتيجة لذلك أن يبحثوا عن طرق توفير الخدمات والسلع من جميع الأنواع واقامة كل التنظيمات الأخرى التى يتميز بها المجتمــع ككل . ويقول هنط أيضا أن المجتمعات المحلية تختلف فيما بينها من حيث الطابع والحجم ، فالمجتمعات الريفية أو القريـــة المحلية يبدو عليهــا الوحدة والتجانس أكثر من المجتمعات الحضريـــة الكبيرة التى تتميز بالعلاقات غير المباشرة بين أعضائها . ويجب أن نميز بين المجتمع المحلى ، (طالما اننا جعلنا القرب المكانى شرطا فى وجود المجتمع المحلى) وبين الجوار ، ذلك لأن الجوار أصغر وأقل تنظيما من الناحية الرسمية .

٥ — أما لندبرج (٢) Lundberg فيقول أن تأثير الجغرافيا على حياة الانسان مشروط دائما ومعقد فى نفس الوقت عن طريــق العوامل الثقافية . ولهذا فان المجتمع المحلى الانسانى ليس مجرد تجمع من بنى الانسان يعيشون معا تحت ظروف فرضها المناخ ومصادر الثروة الطبيعية، وكل النواحى الفيزيائية للاقليم المحلى . فالمجتمع المحلى لــه تقاليد

---

1) Hunt, Social Sciences, N.Y. 1955, PP. 198 - 200.

2) George Lundberg & others, Sociolgy, New York; 1958. PP. 126 - 136.

وعادات وعرف ينظم العلاقات بين الانسان وبين الطبيعة ، كما تنظمها فى نفس الوقت بين الانســان والانسان • اذن فالمجتمع المحــلى ظاهرة ثقافية تحل بمكان معين أو هــو بصورة أكثر تحديــدا ، السكان الذين يعيشون داخل منطقة جغرافية محددة ويمارسون حياة مستقلة مشتركة، وليس معنى معيشة الانسان فى منطقة جغرافية أنه يصبح خاضعا لها ، بل ان الانسان فى واقع الأمر قد استطاع خلال تاريخه الطــويل وعن طريق التكنولوجيا التى يطورهــا باستمرار ، أن يروض الطبيعة وأن يخضع البيئة الجغرافية لمشيئته • ولذلك فان العلاقة بين الانسان وبيئته الطبيعية ليست علاقة سلبية من جانب الانسان ، وايجابية من جــانب البيئة ، بل ان العكس هو الصحيح ، ويزداد الأمر وضوحا كلما تقدم علم الانسان وزادت خبراته وتجاربه •

من هذا نرى أن كل التعريفات السابقة تجمع على أمرين يعدان من الخصائص الرئيسية للمجتمــع المحلى « همــا المعيشة الاجتماعيه الكلية والاقليم المحدد الدائم » وليس معنى هذا أن حركة الانسان فى المجتمع مقيدة بالمجتمع المحلى « فالتنقل الاجتماعى والهجرة الداخلية »• وخاصة فى المجتمعات التى تتميز بالتسلسل الطبقى المفتــوح ، تجعل الحدود الفاصلة بين المجتمعات المحلية داخلها مرنة الى حد كبير • ومن الحقائق المعروفة أن الناس يغيرون مناطق اقامتهــم ويغيرون مهنهم ، فيغيرون بذلك فى مدى حياتهم ، المجتمعات المحلية التى ينتمون اليها • ومن أجل هذا كان المجتمع المحلى القروى والمجتمع المحلى الحضرى من أكثر المجتمعات وضوحا وتغيراً فى وقتنا الحاضر •

يهتم عالم الاجتماع بالمجتمعات المحلية من وجهات نظر متعــددة يمكن أن نلخصها فى جملة واحدة ، وهــى التنظيمات الاجتماعية التى تجعل الحياة الكلية ممكنة فى كل نوع من أنواعها • ولذلك يعالج الباحث كل الموضوعات التى ترد دائما فى مؤلفات علم الاجتماع عنــد محاولته التعرف على المجتمع المحلى كالثقافة والشخصيــة والضبط الاجتماعى

والأسرة والنظام الاقتصادى والتغير الاجتماعى . ولما كانت المجتمعات المحلية كما وضح من العرض السابق مشروطة من حيث التعرف عليها بوجود اقليم محدد تعيش عليه . فان التعرف على ما فى هـذا الاقليم من ثروات طبيعية أمر شديد الأهمية لفهم المجتمع المحلى ، فنحن لغرض استكمال الدراسة نبحث عن مكونات البيئة الطبيعية من تربة ونبات ، وحيوان ومعادن ، ومصادر المياه الى جانب المناخ الذى يعطينا درجات الحرارة المختلفة التى يتعرض لها المجتمع المحلى فى أوقات السنة . ويسمى هذا الاهتمام بالبيئة الطبيعيـة والمناخ فى عـلم الاجتماع « المدخل الايكولوجى » لدراسة المجتمع الانسانى ، والايكولوجيا كما هو معلوم فرع من البيولوجيا تعنى فى المحل الأول بمعرفـة مواطن الحيوانات والنباتات . وقد أستفاد منها عدد من الباحثين فى علوم مختلفة لمعرفـة الطرق التى تسير عليها بعض هذه الكائنات فى بناء مأواها وفى تنظيمها الاجتماعى . وعندما طبق هذا الاتجاه على الانسان سمى « الايكولوجيا الانسانية » على الرغم من أننا نعلم أن تأثـير البيئة الطبيعية محدود جدا ، ولايمكن أن نعتمد عليه فى تفسير مقنع لنشاط الانسان فى المجتمع . ومع ذلك فاننا نحتاج فى بعض الأحيان لمعرفة أثر البيئـة الطبيعية فى تحديد العمران الانسانى ، أو فى تحديد مصادر غذائـه ، أو فى طابع العمل .

لقد ارتبط التفكير فى الانسان بالتفكير فى المجتمعات المحلية التى عاش فيها ، كما أن كل تغير أصاب الانسان كان نتيجة للتغيرات العديدة التى حدثت فى هذه المجتمعات ولهذا يمكن أن يوصف التاريخ الانسانى بأنه تاريخ الخبـرات والتجارب الثقافيـة والاجتماعية ، التى مكنت الانسان من احراز التقدم المستمر فى نضاله لاستخلاص أقصى امكانياته واستخدامها لرفاهيته .

ان المجتمع المحلى يعنى الكثير بالنسبة للانسان ، فهو المكان والبيئة التى جعلت حياته ممكنة وأعطت لفكرة ولعواطفه قيمتهما ، ولذلك كـان

هذا المجتمع محور دراسات شملت الـدين والفلسفـة والفن والأدب والاقتصاد والجغرافيا والسياسة ، كما أنه ألهم عـدداً من الحركات الاصلاحية التى صنعت المذاهب الفكرية والايديولوجيـة الكبرى • الا أن هذه الدراسات والاهتمامات ، قدمت كل منها المجتمع المحـلى من جانب أو آخر ، بل ان بعضها لم يكن القصد منه دراسة من أى نوع لما نعرفة اليوم عن الدراسات العلمية المتخصصة أو حتى الدراسات العامة للمجتمع المحلى •

ويعتبر علم الاجتماع وحده هو العلم الذى اهتم خـلال تاريخه الطويل بدراسة المجتمع المحلى كأساس ارتكز عليـه الوجود الانسانى أو الاجتماعى ، أو كوحدة أو كنمط يتكرر خـلال استمرار الانسان فى الحياة من خلال أنساق اجتماعية لها صفة العمومية والدوام (١) • ومن التعريفات التى سبق ذكرها للمجتمع المحلى برزت عدة نقاط ، من الملائم معاودة التأكيد عليها وابرازها ، على النحو التالى :

١ ــ اذا كانت المجتمعات المحلية من خلق عمليات تفاعـل معقدة تدخلت فيها عوامل وأبعاد تدور كلها حول تراكم الخبرة الانسانية ، فان أول ما يجب الالتفات اليه فى أى دراسة علمية لمثل هذا النموذج ، هو طابع السكان ، وبخاصة سماتهم الفيزيائية المتعلقة بأعدادهم وكثافتهم ونوعهم ومعدلات أعمارهم •

٢ ــ تشكل الأرض (الاقليم) الذى يمثل قاعدة النشاط والامتداد

---

(١) يمكن الاستدلال على ذلك بالدراسات التى أجراهـا هنرى مين وتونيز وسيمل ودوركايم وتعتبر دراسة روبرت ماكيفر Maciver عن المجتمع المحلى The Community من الدراسات المبكرة التى أبرزت أهمية هذا النموذج سواء بالنسبه لفهم المجتمع أو فى تحقيق ميدان محدد لعلم الاجتماع •

والانتشار لسكان المجتمع المحلى عنصراً أساسيا ، ولهـذا لابد من التعرف على طبيعة هذه الأرض من حيث الحجم ودرجة الخصوبة ونوع التربة والمناخ والمصادر الطبيعية ... الخ .

٣ — تعمل الدوافع والحاجـات والمطالب بأنواعهـا البيولوجى والاجتماعى الثقافى ، دوراً حيويا فى التعرف على طابع المجتمع المحلى، ولهذا لابد من ابراز أثر ماهو بيولوجى فى العمر والاختلافات الجنسية والطاقات وعمليات الخلق والابداع ، وكذلك ابراز كل ما هو اجتماعى ثقافى وأثره فى القيم والمعايير والأهداف ، وكل ما من شأنـه السيطرة على الدوافع البيولوجية أو تعديلها أو ضبطها وتوجيهها .

٤ — نتوزع المهارات الفنيـة بين أعضـاء المجتمع المحلى بطرق مختلفة ، وهذه يجب معرفتها ، لأنها تؤثر فى مدى استخدام وتوجيـه وتدعيم الحاجات البيولوجية أو المكتسبة لاتباع المطالب المعروفة والثابتة والمطالب التى قد تجد نتيجة للتغير الاجتماعى والثقافى .

٥ — يرتبط بكل مجتمع محلى نمط من التنظيم الاجتماعى يحتوى على مجموعات أو جماعات تتفاعل بطرق متعددة ، ويناط بهـذا التنظيم تنسيق العوامل السابقة والحفاظ على التوازن واستمرار المجتمع المحلى فى البقاء والنمو .

ان فهم المجتمع المحلى الحضرى لابد أن يعتمد على وصف مفصل لهذه الأبعاد الخمسة التى يمكن اعتبارها مقابلة للواقع الاجتماعى . كما أن هذه الأبعاد تصلح أيضا كاطار للتحيل على مستوى معين من التجريد، على أن يتم ذلك من خلال خمسة مستويـات هى : مستوى الجماعة ، والمجتمع المحلى ، والاقليم ، والمجتمع ، والمجتمع العالمى .

يرى ألفين بوسكوف Alvin Bosokoff أن المجتمع المحلى الحضرى قد أدى بماله من خصائص الى استدماج أو احتـواء مجتمعات محلية

أخرى محيطة به ، دخلت معه فى علاقات متبادلة ، ممـا أدى الى قيام نوع جديد من التجمع المحلى الحضرى الكبير له محـور أو مركز محدد ويرى أن من الأفضـل تسمية هـذا التجمـع « الاقليـم الحضرى Urban Region وينبنى علىذلك أن دراسة السلوك الحضرىفى مركز الاقليم الحضرى لايمكن أن يكون صحيحا الا اذا استكمل بدراسة هذا السلوك فى كل الاقليم الحضرى ، ويصدق هذا أيضا على كل دراسة أخرى من التنظيم الى التفكك ومن التخطيط الى النمو .

ان الاقيم الحضرى بوضعه الراهن فى المجتمعات الحديثة ، يربط الجماعات المكونة له ، ويربطها من ناحية أخرى بالمجتمـع المحيط به وبالمجتمع العالمى ، ولهذا كان كل تغير يحدث فى الاقليم الحضرى مؤديا الى ذبذبات تصل آثارها بسرعة الى مكوناته الداخليـة والى ارتباطاته المجتمعية والعالمية . ويستنتج بوسكوف من ذلك ، أن دراسة الاقليـم الحضرى وجعله محور اهتمام علم الاجتماع الحضرى هو الذى سوف يتيح فهما أفضل لشاكـل المجتمع الحـديث ومركباته وانجازاتـه وحدوده (١) . ومن أجل تدعيم فكرته يتصور بوسكوف اطاراً للدراسة يمكن أن يحقق فهم المجتمع الحضرى من خلال دراسة الأقاليم الحضرية على النحو التالى :

١ — فهم وتحليل ظهور أو توطن المراكز الحضرية ، بالاضافة الى نظرة تاريخية لتطور المجتمع المحلى والاقليمى ، وهـذا يتطلب ادراك ميكانيزمات التنظيم والترابط المؤدية الى تحديد كيان الاقليم الحضرى، على أن يتم كله من خـلال التفهم المتعمق لعوامـل وعمليات التغـير الاجتماعى والثقافى وما يترتب على ذلك من نتائج .

---

1) Alvin Boskoff; The Sociology of Urban Regions, New York, 1970, PP. 3 - 10.

٢ — النظر الى الاقليم الحضرى كنسق مغلق نسبيا ، لــه بناء وظيفى محدد ، ونمط ثقافى يجعل للاقليم طابعاً معيناً . ويتم الوصف والتحليل من خــلال التركيــز على العلاقات الاجتماعيــة والأدوار والجماعات والمكانة والطبقة والصــفوة ، ويتم فهم الجــانب الدينامى بدراسة العمليات الاجتماعية والتغير الاجتماعى والثقافى .

٣ — ويتدعم المدخل السابق ، وهو المدخل الأساسى ، الذى يعالج الاقليم كنسق مغلق نسبيا عن طريــق مجموعة من المداخــل الأخرى المعاونة هى :

أ — المدخل التاريخى الذى يمد الباحث الحضرى بمــادة تصلح للمقارنة عن الصور المبكرة للمجتمعات المحلية الحضرية .

ب — المدخل الديمو. افى الــذى يزود البحث الحضرى عــلى مستوى الاقليم بالاحصاءات الهامة التى تتعلق بحجم السكان وتوزيعهم وكثافتهم وتركيبهم العمرى ومعدلات المواليد والوفيات ... الخ .

جـ — المدخل الايكولوجى الذى يمكن عن طريقه دراسة ميكانيزمات التوافق والتعديل المتبادل بين البيئة والانسان ، الى جانب ما يمكن أن يطرحه البحث فى هذا الجانب من ابراز للعلاقات المكانية بين الجماع وأنواع النشاط .

د — مدخل التقييم الثقافى الذى يمكن أن يزودنا بـ[illegible] عما يسمى باقتصاديات الثقافة كتوزيــع الخدمات ، و[illegible] الانسانى ، واتاحة الفرص للخلق والابداع الانسانى و[illegible] من أجل التقدم .

هـ — المدخل السيكولوجى الذى يواجه بالدراسة [illegible] لخبرات الحياة الحضرية وعلى الأخص فيما يتعلق بالجهود [illegible]

وبناء الشخصية الانسانية وما يحدث فيها من تباين (١) .

ان الاطار الذى قدمه بوسكوف على هذا النحو لدراســـة الاقليم الحضرى ، يظهر منه أنه لكى تنتمى الدراسة الى علم الاجتماع فلا بد أن يعالج الاقليم على أنه نسق واعتبر ذلك هو المدخل الأساسى ، وكل المداخل الأخرى معاونة ، ومع ذلك فمن المعتقد أن تجربة الدراسة تجعل من الصعب الفصل بين هـــذه المداخل جميعاً من أجل الفهـــم المتكامل تاريخيا وشموليا وامبيريقيا .

المجتمع المحلى الريفى والحضرى :

ان الصورة الحضرية المتزايدة الوضوح فى المدينة الغربية ، تعبر عن ظاهرة تنمو حديثا ، وربما كـــانت هذه الحداثة هـــى السبب فى أن المنهج الذى يقارن بين الجماعات الريفية والجماعات الحضرية هو المنهج الملائم لفهم التغيرات التى حدثت والتى لاتزال تحدث حتى الآن .

ويرى بيتر مان Peter Mann ، أن منهج المقارنة بين الريف وبين الحضر ، يمكن أن يكون ذا قيمة فعليـــة ، اذا كان ما نريـــد أن نقارنه واضحاً تماما ، خصوصا اذا أمكن تجنب الوقوع فى خطأين محتملين . أولهما : اجراء المقارنة بين الريف والحضر فى المـــاضى والحاضر دفعة واحدة ، لأن كثيرا من الخلط وعددا من النتائج غير الصادقة ، قد توصل اليها باحثون من مقارنة لم تحـــدد أبعادها ولـــم تتم فى زمن معروف مقدما . وأوضح مثل على ذلك أن توماس شارب Sharp Tomas انتهى من دراسة قام بها الى أن القرية الزراعية يمكـــن النظر اليها .

---

1) Ibid . PP. 5 - 10.

بصورة أو بأخرى ، على أنها كائن اجتماعى بسيط (١) ، والخطأ فى هذه النتيجة التى توصل اليها ، اهمال الباحث لعامل الزمن ، خصوصا وأن الباحث فى معرض مناقشته للقرية ، ذكر أنها تعرضت لتغير .. ولهذا ، فانه مهما كانت طبيعة هذا التغير ، فلا بد أن يتضح من خلال بعد زمنى مجدد . وثانيهما : متصل بالخطأ الأول ، وهو أن تدور المعالجة على أساس نماذج ثابتة ، ولا تقوم على تعميمات ، ومثال ذلك ، عندما يشير باحث الى المجتمع الريفى ،فان أحداً قد لايعلم ماذا يقصد بالضبط ، لأن المجتمع الريفى يمكن أن يتضمن درجات متفاوته ، قد تبدأ من المجتمع البدائى الى القرية الأوربية . كذلك قد يكون عند الباحث اتجاهات محددة بصدد المجتمعات الريفية تظهر فى أحكام قيمية ، وهذا ما نلاحظة فى كتابات بعض الباحثين المنحازين الى « الريفية » وآخرين ممن ينحازون الى الحضرية أو الى حياة المدينة .

ان المقارنة بين الحياة الريفية وبين الحياة الحضرية ، على الرغم من محاولات اجرائها على أسس موضوعية ومن خلال اطار نظرى معين، لاتزال تحمل رأى من يقومون بها من الباحثين ، ويحتمل أنها تعكس وجهات نظرهم ازاء مايتصورونه من مشاكل تزداد تفاقما بتزايد المدن حجما ، ومع ما يحاولون اثباته ، أن الانتقال من الريفية الى الحضرية، قد صاحبه تمزق فى الشخصية الانسانية وضياع لعدد من القيم التى كانت تجعل للحياة معنى . وقد يترتب على ذلك ، النظر الى المجتمع الريفى والى المجتمع الحضرى عى أن كلا منهما يمثل نوعاً قائما بذاته أو نموذجا ، ويتعين طبقا لذلك رفض المنهج الذى يضعهما على « متصل واحد » Continuum وربما يفسر ذلك ، من جانب واحد فقط ، ذلك

---

(١) أنظر ما كتبته روث جلاس Ruth Glass ، عن علم الاجتماع الحضرى فى :

Current Sociology. Vol. 4 No., 4. 1955.

الاهتمام المركز ، حتى فى البلاد الأوربية المتقدمة ، بالدراسات الريفية والقروية • ومع ذلك فان الاهتمــام بالحضرية وبالحيــاة فى المدينة وبالمدينة ذاتها ، قد نال اهتماما يتزايد وضوحاً فى السنين الأخيرة وان كان الاتجاه الغالب ، فى جانب النمو والانتشار والتخطيط والمشاكل (١)•

ان ما كتبه كل من سوروكن Sorokin وزيمرمان Zimmerman عن المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى لازال حتى الآن ، وبرغم مرور وقت طويل نمت فيه دراسات وتحليــلات من منظورات مختلفــة لمادة الأبحاث المتراكمة ، يحمل طابع الأهمية والجدة • لقد شغلتهما مشكلة التصنيف فى علم الاجتماع ، وعند دراستهما للظواهر الريفية والحضرية كان يعتقدان أنه من خلال تصنيف هذه السلسلة المعقدة مــن الظواهر وردها الى نماذج قليلة ، فان العلماء يستطيعون التغلب على تعقد الواقع وابراز سماته وصوره الأساسيــة • وعن طريق هذا المنهــج استطاع سوروكن وزيمرمان أن يتوصلا الى أن « المهنة » هى المقياس الأساسى للاختلاف بين المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى ، ويمكن من خلال هذا الاختلاف الجوهرى اكتشاف مجموعة من الاختلافات الأخرى ، فينظر

---

(١) هناك أمثلة عديدة على هذا الاتجاه تظهر فى الكتب العامة التى تعالج علم الاجتماع الحضرى أو المدينة الى الدرجة التى أدت الى ظهور رد فعل قوى يطــالب بضرورة ربط هــذا الفرع من علم الاجتماع بالنظرية السوسيولوجية العامة مع الاستمرار فى الاتجاه الذى بدأه بارك وماكس فيبر ولويس ويرث وردفيلد • راجع فى ذلك Richard Sennett فى الكتــاب الذى أشرف علــى اصداره وتضمن عدة مقالات هامة فى النظرية الحضرية ، بعنوان
Classio Essays on the Culture of Cities, N. Y., 1969
وكذلك الطبعة الثانية من كتاب Aivin Boskoff عن علم اجتماع الاقاليم الحضرية : The Sociology of Urban Regions N.Y. 1970.

اليها بمعنى آخر على أنها « متغـيرات معتمدة أو مصاحبة » • وقـد حصرت هذه المتغيرات أو الخصائص فى ثمانيه نعرضها فى ايجاز على النحو الآتى :

١ ــ المهنة Occupation يعمل الغالبية العظمى من السكان الريفيين وعائلاتهم فى الزراعة ، وهذا لايعنى عدم وجود مهن أخرى قد تحتاجها الزراعة أو يحتاجها الريفيون فى حياتهـم اليومية ، الا أن حجـم من يعملون فى هذه المهن الثانوية قليل جداً • أما فى المجتمع الحضرى الذى يقوم على تنوع المهن ، فان الغالبيـة العظمى من السكـان يعملون فى الصناعة وما يتصل بها من عمليات • وفى التجارة وعمليـات التبادل ، والوظائف المتخصصـة والادارة والحـكم ، أو بصفة عـامة يعمل « الحضريون » فى كل الأعمال غير العمل الزراعى •

٢ ــ البيئة Environment : يتصل الريفيون اتصـالا مباشراً « بالطبيعية » أو الأرض ، وصلاتهم بها تحدد نشاطهم ونظرتهم للحياة • ويكون للبيئة الطبيعة فى حيـاة الريفيين الغلبة عل البيئـة الاجتماعية والانسانية ، أما السكان الحضريون فهم منعزلون بشكـل واضح عن الطبيعه ، ومعنى ذلك أن أهم صلة لهم وأبعدها أثرا فى حياتهم ، هى البيئة التى صنعها الانسان •

٣ ــ حجم المجتمع المحلى Size of Community : يعيش الريفيون مجتمعات محلية صغيرة وعلى أرض « واسعة » يحولونها الى «مزارع» ولهذا يتناسب حجم المجتمع المحلى الريفى (القرية) مع الأرض التى يمارسون عليها نشاطهم تناسبـا عكسيا • أما حجم المجتمـع المحلى الحضرى فى نفس المجتمع وفى نفس الفترة فهو كقاعدة أكبر بكثير من حجم المجتمع المحلى الريفى • ولهذا يتناسب حجم المجتمع المحلى مع الحضرية تناسبا ايجابيا •

٤ ــ كثافة السكان Density of Population : تتميز المجتمعات

المحلية الريفيه بانخفاض كثافتها ، فى نفس المجتمع وفى نفس الفترة ، بالمقارنه بالمجتمعات المحليـــة الحضرية ، وبصفة عامـــة ترتبط الكثافة بالمجتمع المحلى الريفى ارتباطا سلبيا • وتتعاظم كثافة الحضر وترتبط ارتباطا ايجابيا بالحضرية •

٥ — تجانس ولاتجانس السكان **Homogenity and Hetrogenity**

يتميز السكان الريفيون بالمقارنة بالسكان الحضريين بأنهم أكثر تجانسا سواء فى السمات العنصرية أو السمات السيكولوجية الاجتماعية ومعنى هذا أن « الريفيه » ترتبط ارتباطا سلبيا باللاتجانس ويعنى «سوروكن» و « زيمرمان » عندما يشيران الى الخصائص الاجتماعيـــة والنفسية المكتسبة ، تلك الخصائص التى لاتتغير كثيرا فى المجتمـــع الريفى والتى تتغير بدرجات متفاوتة بين السكان الحضريين مثل : اللغـــة والمعتقدات والآراء والأعراف وأنماط السلوك •

٦ — التباين والتدرج الاجتماعى **Differentiation and Stratification**

لايظهر التباين الاجتماعى أو التدرج الذى يؤدى الى قيام الطبقات فى المجتمعات المحلية الريفية بينما يظهر ذلك بوضوح فى المجتمعات المحلية الحضرية وربما كانت هذه الخاصية من أهـــم الخصائص التى توضح الفرق الجوهرى بين هذين المجتمعين المحليين •

٧ — التنقل **Mobility** تبدو كل صور التنقل الاجتماعى المكانية والمهنية غير واضحة ان لم تكن قليلة الظهور والحدوث فى المجتمع المحلى الريفى • ولكن ليست هذه هى القاعدة ، فهناك ظروف عديدة وخاصة فى هذا القرن جعلت أعدادا كبيرة من السكان الريفيين يهاجرون الى المدينة لأسباب متعددة ، وتعرف المدينة على أنها مكان يتميز بالتنقل الاجتماعى الكثيف ولهذا يرتبط التنقل بالحضرية ارتباطا ايجابيا ولاتحدث الهجرة من المدينه الى القرية وتسجل معدلات مرتفعة الا فى أوقات الكوارث أو الأزمات •

٨ ـ نسق التفاعل System of Interaction اذا قسنا عدد الاتصالات التى يجربها الفرد فى المجتمع المحلى الريفى مع غيره فان مدى التفاعل يكون ضيقا الى درجة ملحوظة ولكن التفاعل على مستوى العلاقات الأولية التى تقوم داخل وحدات القرية الصغيرة (العائلة) فانه يكون واضحا وعميقا ، وتتميز التفاعلات بصورتها السابقة بالبساطة والمودة والاخلاص ذلك لأن الانسان فى المجتمع المحلى الريفى يتفاعل من الزاوية الانسانية أساسا . أما فى المجتمع الحضرى المحلى فانه يتميز بكثرة الاتصالات التى تغطى منطقة واسعة من نسق التفاعل سواء بالنسبة للفرد أو بالنسبة للمجموع ومع ذلك تسود المدينة العلاقات غير الشخصية والسطحيه والقصيره المدى ، الا أنها من جانب آخر تتميز بالتعقيد والتداخل والشكلية فى أغلب الأحيان ، وعلى عكس ما هو حادث فى القرية فان الانسان يتفاعل « كرقم وكعنوان » (١) .

ان هذا التصنيف الذى قدمه « سوروكن وزيمرمان » يعتمد على أساسين الأول الأساس الذى يتبنى فكرة المتصل الريفى الحضرى Continuum وهو الاتجاه الذى يرفض فكرة الانفصال نوعيا بين الحياة الحضرية من خلال النتائج التى أسفرت عنها بحوث كثيرة عن الحضر تلك التى أثبتت وجود كثير من الرواسب الريفية لاتزال تشكل جانبا من الاتجاهات والعلاقات الحضرية . والثانى الأساس الذى يأخذ بفكرة النماذج المثالية لأن الخصائص الثمانية التى أشرنا اليها من قبل لاتنطبق بالضرورة على كل أنواع المجتمعات الريفية أو الحضرية وانما توجد بصورة أو بأخرى فيهما ، وهذا يتفق مع المنهج الذى أخذ به كل من « سوروكن وزيمرمان » فى استخلاص فئات أقل من فئات أكثر تعقيدا يمكن أن تمثل الظواهر المتعددة والمعقدة والمتنوعة التى ينطوى

---

1) P.A. Sorokin and C.C. Zimmerman: Principes of Rural - Urban Sociology, N.Y., 1929, p. 13.

عليها الواقع (١) .

خصائص الحضرية من منظور المقارنة الريفية الحضرية :

من المسائل الهامة فى علم الاجتماع عامة الاختلافات التى تظهر عن طريق الدراسة بين الحياة الاجتماعية فى القرية والمدينة . والواقع أن الاختلاف يرجع أساسا الى اختلاف البيئة الاجتماعية فى كل منهما . وقد أدى ذلك الى سهولة الفصل بين نموذجين كبيرين من التنظيم الاجتماعى . فالمدينة بيئة خلقها المجتمع خلقا ولأجل ذلك تغيرت معالم البيئة الطبيعية التى تقوم عليها وهنا يظهر أول اختلاف أساسى بين المدينة والقرية خصوصا اذا وضعنا أمام أعيننا الاتجاهات الاجتماعية والظروف التى تساعد على قيام حياة اجتماعية من نوع معين .

وتتبع هذه الخلافات يجعلنا نبحث مسألة من المسائل التى شغلت علماء الاجتماع زمنا طويلا ولازالت تشغلهم حتى اليوم . وهى أثر البيئة على الانسان أو بمعنى آخر ، مدى ما للبيئة من آثار على التنظيم الاجتماعى فى منطقة معينة ، وما من شك أن البيئة مهما تقدمت وسائل الانسان العلمية لاخضاعها ، لاتزال تؤثر فى حياة الناس بوجه عام ، وان لم تؤثر بطريقة مباشرة فانها تؤثر بطرق غير مباشرة حيث ينتقل التأثير عن طريق الانتشار من منطقة لأخرى .

ويمكن القول انه عند المقارنة بين الحياة الحضرية والحياة الريفية، نجد أن دور البيئة فى التأثير على سكان القرى أكثر من تأثيرها على سكان المدينة ، ومع ذلك فالمسألة ليست نهائية بل هى مسألة درجة على

---

(١) أنظر الى ماكتب عن هذا الموضوع فى الكتاب الذى أشرف على اصداره كل من هات ورايس

Hatt and Reiss, Cities and Society : The Revised Reader in Urban Sociology, N.Y. 1961, PP. 22 - 35.

كل حال ، لأنه لو تتبعنا المدن فى مراحل نموها ، لوجدنا اختلافا فى مدى التأثير النسبى للبيئة فى كل مرحلة من هذه المراحل ، وكقاعدة يمكن القول أن تأثير البيئة فى مراحل نمو المدينة الأولى أكثر من تأثيرها فى المراحل المتأخرة .

وينبغى أن ننبه الى خطأ يقع فيه الكثيرون عند المقارنة ، فهم يقارنون بين أشياء ليس بينها عوامل مشتركة ، ولهذا تكون المقارنة خاطئة من أساسها ، مما يتعين معه أن نسير فى حذر عند مقارنة المدينة بالقرية ، لأن المقارنة لاتنطبق فى كل الأحوال على جميع المدن والقرى بغض النظر عن الزمان والمكان . لأن لكل حالة تاريخا ، ويجب أن نتثبت أولا وقبل كل شىء من العوامل التاريخية التى تسببت فى الأوضاع الراهنة حتى يمكن أن تسير المقارنة على ضوء الحقائق دون غيرها . ومثال ذلك أن هناك مدنا تطورت عن قرى ، وهناك مدنا أخرى نشأت بطريقة ارادية لأغراض معينة ولسوف نجد عند الدراسة اختلافا من حيث الخصائص بين كل النوعين وذلك لوجود الرواسب التاريخية التى ربما يكون لها بعض الأثر حتى الآن .

وهذا فان عملية مقارنة الحياة الحضرية بالحياة الريفية ، تواجه صعوبات كثيرة . وعلى ذلك ينبغى أن نأخذ أقوال المنتمين الى المدرسة الأقليمية Regional school بحذر شديد . فالمدينة والقرية ظلتا لعدة قرون الشكلين الأساسيين الذى يتركز فيهما نشاط الانسان . وليست هناك خطوط واضحة بين الاثنين بحيث يمكن أن نعين فى دقة أين تنتهى القرية وأين تبدأ المدينة . فقد كانت الحياة الحضرية والحياة الريفية مسألة جغرافية .

ولو جعلنا عدد السكان مقياسا للفصل بين المدينة والقرية لواجهتنا صعوبات عديدة نظرا لاختلاف التقدير فى الدول المختلفة من ناحية ، والفوارق العظيمة التى قد نجدها بين المدن ذاتها ، خصوصا اذا كنا

نبحث مدينة تعدادها ١٠,٠٠٠ نسمة ومدينة أخرى يصل تعدادها الى عدة ملايين نسمة . ولهذا فخير طريقة للمقارنة أن نعين حدا أعلى للقرية وحدا أعلى للمدينة من حيث عدد السكان على أن تتدرج درجة التحضر بين الحدين .

ان الباحث فى الولايات المتحدة الأمريكية قد يميل الى القول أن خصائص الحياة الريفية فى سبيلها الى الزوال ، أو أنهـا لاتكون جزءا مهماً فى المجتمع الأمريكى ، وذلك لغلبـة الخصائص الحضرية عـلى السكان . ولكن هذا القول اذا انطبق على المجتمعات التى بلغت مستوارا عظيما من التقدم خصوصا فى ميادين الصناعة فانه لاينطبق على أجزاء كبيرة من العالم خصوصا فى آسيا وأفريقيا ، حيث لاتزال الزراعة المهنة الرئيسية للسكان الذين يعيشون فى مجموعات تسكـن القرى ، وتكون المجتمعات الريفية . ولهذا كان البحث عن خصائص هذه المجتمعات من الأهمية بمكان لا فى علم الاجتماع الريفى فحسب بل فى علم الاجتماع الحضرى بنفس الدرجة أيضا . لأن المقارنة بين نوعى الحياة الحضرية والريفية يكشف عن مدى التغير والتطور ، ومدى بعد هذين النوعين من الحياة أحدهما عن الآخر ، وما يكون وراء هـذا الاختلاف من ظروف اجتماعية واقتصادية وثقافيا وجغرافية تصلح أساسا مناسبا لاختيار أثر هذه العوامل فى النظم الاجتماعية بوجه عام .

١ — وأهم ظاهرة ندركها فور دراستنا لهذه الخصائص ، العزلة النسبية لحياة الريف ، وهى عزلة لاتتصل بالفرد وانمـا تنصب أساسا على الجماعة الى حد كبير وعلى الأخص عزلة العائلة . ولهذا فالعائلة فى القرية عليها أن تشبع الى درجة ما الحاجات الاقتصادية والاجتماعية لأعضائها وتكون داخل القرية وحدة مستقلة وتصبح روابطها أشد مـا تكون كلما زادت درجة الاشباع ووصلت الى حد الاكتفـاء الذاتى . ومفهوم العائلة الذى نستخدمـه هنا أوسع مما هـو مألوف فى علم الاجتماع ، ذلك لأننا نقصد به العائلة الكبيرة التى تتشكل داخل القرية

وحدة مستقلة ، وتنقسم هذه العائلة الى أسر كبيرة تسمى الأسر الأبوية، أى التى تعيش فى داخلها عدة أجيال يخضعون لرئاسة أكبر أفرادها سنا سواء كان ذكراً أم أنثى . وتتميز هذه الأسر بالعمل الجماعى والانتاج الجمعى . ومن أهم الخصائص التى تميز الفرد أنه قد يعيش حياته كلها ولايتصل بأفراد القرية الا قليلا وفى المناسبات العامة . ويقوم كبار السن عنه بجميع المعاملات ويدخلون فى مختلف العلاقات مع الغير ، وكذلك تكون العادات والتقاليد سيطره كبرى على تصرفات الأفراد وسلوكهم العام والخاص على حد سواء .

وعلى هذا الأساس يكون الفرد أشبه بجزء متكامل من أداة كبيرة تؤدى عملها ككل . وقد أدى هذا الوضع بالاضافة الى أهمية روابط الدم والقرابة الى سيادة القانون العرفى وظهور المسئولية الجمعية ، فالجريمة مثلا لايحاسب مرتكبها وانما تحاسب العائلة أو الجماعة التى ينتمى اليها الفرد . ولذلك قد ينصب القصاص أو الأخذ بالثأر على أى فرد دون مرتكب الخطأ نفسه الذى يظل مدى حياته بمنأى عن العقاب.

كذلك نجد أن العلاقات السائدة فى القرية هى من طبقة العلاقات المباشرة ، فالتعاون أو الصراع يحدث بين أطراف متفاعلة يعرفون بعضهم ولا تكون هناك حاجة الى واسطة بين الطرفين فى أى ناحية من نواحى التعامل . ولهذا يقال ان الخاصة التى تميز جماعة القرية أنها جماعة أولية .

٢ — ليس هناك فى المجتمع الريفى مجال للتخصص ، فالعمل فى الزراعة مثلا هو المهنة السائدة ، ولذلك تشكل جميع نواحى النشاط فى القرية . فعلى كل فرد فيها أن يتقن جميع العمليات الزراعية فى جميع مراحلها . وقيمة العمل الزراعى هى القيمة العليا ، بحيث أن أى مهنة أخرى ينظر اليها على أنها أقل درجة . وتؤثر هذه النظرة فى علاقات الجماعات المختلفة داخل القرية ، وقد تؤدى فى النهاية الى وجود

طبقات على أساس نوع العمل . وعادة يرفض الفلاح مثـلا أن يزوج ابنته لرجل لايشتغل بالزراعة ، لأنه يعتبر مثل هذا الزواج زواجا غير متكافىء .

٣ ـ العمل الزراعى بطبيعته غير متخصص ، ولهذا فان الفـلاح عكس ساكن المدينة عليه أن يجيد أشياء كثيرة . عليه أن يعمـل فى كل نواحى الانتاج الزراعى وعليه أيضا أن يجيد بعض الأشياء المكملة للعمل الزراعى كقطع الأخشاب أو اصلاح الجسور وأدوات الزراعة وما الى ذلك . ومع هذا يقوم الفلاح بعمله فى عدد النواحى بصورة مضطردة تشبه الروتين ولا يجد غرابة فى أى أمر من الأمور التى تلقى على كاهله .

وقد ترتب على ذلك أن كان دوره فى الحيـاة الاجتماعية ثابتا ، وكذلك الأمر بالنسبة لأفكاره وآماله . فطموحه يتصل بالزراعة وآلامه أيضا متصلة بها أيضا . وقد أدى عدم التخصص الى وجود نظام معين لتقسيم العمل ، فالرجال مثلا يقومون جميعا بنفس العمل مهمـا كان عددهم فى الأسرة الواحدة وكذلك الأمر بالنسبة للنساء .

واذا كان هناك نظام حقيقى لتقسيم العمل فانه يقوم على أساس الجنس والسن . فالأطفال من السابعة حتى العاشرة ومن العاشرة حتى الخامسة عشر لهم أعمال يؤدونها وأدوار محددة فى العمل الزراعى . وكذلك النساء . فبجانب الاعمال المنزلية ، لهن دور معين فى العمـل الزراعى أيضا ، ويظهر عمل المرأة فى الزراعة بوجه خاص حين يستقل الرجل المتزوج عن أسرته الأبوية ويتخذ لنفسه مسكنا مستقلا ويختص بقطعة من الأرض يقوم على رعايتها ، عند ذلك تقوم المـرأة ببعض الأعمال التى يقوم بها الرجال عادة .

٤ ـ بساطة الحياة من المسائل الهامة التى يلحظهـا الباحث فى الريف ، وتظهر فى بعد الفلاح عن مظاهر التعقيد الموجودة فى المدينة . وهذا يرجع الى بساطة الأعمال التى يقوم بها ، والتى اتخـذت شكل

الروتين على مر السنين ، الى جانب بساطة الأهداف التى يسعى الى تحقيقها . فالفلاح ليس كساكن المدينة يشعر شعورا مؤرقا بالمنافسة ، لأن المنافسة عنده تأخذ طابعاً مختلفا جدا قد ينحصر فى ادخار مزيد من المال أو محاولة التفوق على الجار بزيادة فى المحصول ، أما رغبته فى الظهور أو التميز على أقرانه من الناحية الاجتماعية فهذه أمور لايعيرها اهتماماً كبيرا ، ولاتكون جزءا من سيكولوجيته أو حوافزه على العمل بطريقة أو بغيرها . ومن مظاهر بساطة الحياة فى الريف أن الفلاح لا يعلق أهمية بالغة على الكماليات التى تصبح فى المدينة فى مرتبة الضروريات : فطلبه للكماليات نادر جدا ، ويستطع فى ظروف كثيرة أن يستغنى عنها . ولاتصبح هذه الكماليات من المسائل التى تشغل الفلاح الا اذا ازداد أثر المدينة زيادة كبيرة ، ودفعته اليها عوامل التقليد والمفاخرة (١) .

أما فى المدينه فان الباحث يجد أختلافا بينا فى هذه الظاهرة فبدل العزلة يجد التجمع فى جماعات ومنظمات مختلفة تقوم مقام الجوار فى القرية أو روابط العائلة الكبيرة ، وسيادة أنواع « الجماعات الثانوية Secondary groups واتصالات على مدى ونطاق واسع مع الأفراد ومع المواد الثقافية ، أكبر من الاتصال بالطبيعة ، وتمايز فى الطبقات الاقتصادية ، وتخصص فى النشاط الاقتصادى ، وعمل محدد ومركز واضح فى نفس الوقت ، وذلك بالاضافة الى الفرص التى لاحد لها لجمع الثروة أو الصعود من طبقة الى طبقة أعلى .

---

(١) يمكن الرجوع الى تحليل مفصل عن الحياة القروية الى ما كتبته فى مؤلفى « التغير الاجتماعى فى المجتمع القروى » ، الاسكندرية ١٩٦٧ ، والى أندرسون فى كتابه Rural Sociology وكذلك الى لوميس وميجل فى كتابهما عن Rural Social Systems ومن أهم الاسهامات فى هذا النطاق الكتب الحديثة التى كتبها ردفيلد وخلاصة دراسته عن The Jitle Community.

أثر التخصص على البناء الاجتماعى :

ان مزيداً من البحث فى الفروق بين التنظيم الاجتماعى الريفى من ناحية والحضرى من ناحية أخرى ، يجعلنا نستخلص من ذلك أن أهم فارق هو الذى يتصل بطبيعة البناء الاجتماعى ، وعلى الأخص فيما يتصل بأنواع النشاط التى يميز كل طائفة من سكان المدينة ، وهذا يؤدى بدوره الى اثارة مسألة التخصص الذى يعتبر من أهم مميزات المدينة الحديثة .

١ — حجم السوق يعتبر عاملا من أهم العوامل التى يترتب عليه وجوده أنواع متعددة من النشاط الصناعى أو التجارى . ولهذا طالما كان حجم سوق القرية صغيرا ، فان القروى يعمل كل شىء فلا نجد فى القرية مظاهر التخصص المعروفة ، أما فى المدينة فنظرا لكبر حجم السوق فيها ، فان بها طوائف مختلفة من العاملين : كالعمال غير المهرة ، المتخصصين فى المهن والحرف المختلفة والفنيين والموظفين وأصحاب المهن الحرة ورجال الادارة والسياسيين والاقتصاديين والفنانين وغيرهم . وتبعا لوجود هؤلاء وتنوع مشاربهم نجد أيضا أنواعا متشابكة ومتخصصة من الأعمال أيضا . والعمل فى المدينة يستوعب جميع الأنواع ، حتى أن العامل غير المتخصص يجد له تخصصا . ولما كانت الأعمال التى تتطلب مهارة عالية فى المدينة قليلة نسبيا ، فان الطلب يزداد على العامل نصف الماهر . وتبعا لذلك فالعمال شبه الماهرين يزداد طلبهم باتساع الصناعة وتنوع أغراضها وازدياد العمليات المتصلة بها ، خصوصا ما تعلق منها بالادارة أو التخليص أو الاستيراد أو التصدير والنقل وغير ذلك .

هذا التمايز الاقتصادى يؤدى الى وجود جماعات اجتماعية مختلفة بنوعيها الرأسى الذى يتصل بأنواع المهن وأقسامها المختلفة ، والأفقى الذى يتصل بالمركز الاجتماعى والوضع الطبقى ، ولكن هذه

الأقسام على تعددها وتنوعها لاينبغى أن تختلط فى الأذهان بالاقسام المتحجرة التى لاتتغير الا نادرا والمميزة للحياة فى المجتمعات الريفية ، ذلك لأن المنافسة هى الخاصة الأساسية للمدينة الحديثة . وهذه المنافسة تؤدى بدورها الى خلق نوع من المرونـــة بين مختلف أقســـام الحياة الاجتماعية ، الأمر الذى يجعل الصعود أو الهبوط من طبقـــة أو طائفة لأخرى أمراً ميسورا ولذلك فالتنقل الاجتماعى Social Mobility من أهم مميزات البناء الاجتماعى الحضرى (١) .

والمنافسة من ناحية أخرى مصاحبة للتخصص ، وذلك تبعاً لاتساع نطاق الفرص المتاحة أمام المجتمع للترقى أو الانتقال من وظيفة لأخرى. وتلعب الامكانيات الفردية دورا كبيرا فى مستقبل الفرد ، بعكس الحال فى المجتمع الريفى الذى يتحدد فيه مستقبله بولادته ، ولذلك كانت علاقة الفرد بالمنظمات الصناعية والتجارية عـــلاقة غير شخصية ، والعـــامل الأساسى فيها مبلغ الحاجة اليه ، ومدى ما يمكن الاستفادة منه . وهكذا لاتدخل القرابة أو الدين أو العادات والتقاليد طرفا ثالثا فى تحديد نوع العلاقات فى المدينـــة أو اتجاهاتها المختلفـــة ، كما أن صعـــود السلم الاجتماعى أو هبوطه أمر موكول للفرد نفسه ، وتتدخل فى هذه الحركة عوامل خارجية عن نطاق العملية الاجتماعيـــة المباشرة التى يكون الفرد طرفا فيها (٢) .

---

(١) كتب الكثير عن التنقل الاجتماعى المصاحب لتزايد حجم المجتمع الحديث وزيادة التقدم التكنولوجى والتغيرات الاجتماعية الثقافية ومن أهم الدراسات التى خصصت لهذا الموضوع دراسة سوروكين Social and Cultural Mobility, 1959.

(٢) تعبر هذه الفكرة عن الاتجاه السائد فى علم الاجتماع الأمريكى الذى يدعى أن المجتمع (الأمريكى) مجتمع مفتوح الطبقات وأن اقتناص الفرص مرهون بالنجاح فى المنافسة ، ولايتصل بطبيعة بناء المجتمع وأوضاعه التاريخية ، راجع فى ذلك ما كتبه ريزمان فى مؤلفه Class in American Society, 1961

٢ — ولما كان التخصص والمنافسة من العوامل المميزة لحياة المدينة، فان عامل التصميم والتخطيط يعتبر نتيجة لهما . وكلما زادت الحركة الاجتماعية وكثرت النقلة من هذا المكان الى ذاك ، زادت نسبة القلق خصوصا فيما يتصل بالمستقبل ، فليس هناك فرد فى المدينة يستطيع أن يتأكد أن طريقه فى الحياة ، خصوصا فى عمله ، مضمون تماما لأنه يخضع لذبذبات كثيرة بعكس الحال فى القرية . فالقروى يعلم لحاضره ومستقبله أنه على الأقل سيظل فلاحا زارعا للأرض مهما تغيرت الأحوال، ويستطيع أن يبنى حياته على هذا الأساس ، ويظهر القلق من المستقبل وعلى الأخص فى الدول الرأسمالية التى تقوم على أساس المشروعات الخاصة فى نشاطها الاقتصادى ، فقد يلتحق الفرد بعمل فى مؤسسة لاتستمر طويلا فتفلس بعد مرور فترة وجيزة من الزمن ... وهكذا .

٣ — ولايكون التخصص فى المدينة قاصرا على نوع العمل ، بل يمتد أيضا الى مناطق العمل نفسها ، فكل منطقة فى المدينة لها خصائصها الثقافية والاجتماعية المميزة تبعا لنوع النشاط الغالب عليها . وكلما زاد حجم المدينة ، صار التخصص من حيث المناطق أكثر وضوحا وظهورا وهذا يجعل المدينة كما يقول علماء الايكولوجيا Ecologists « نموذجا معقدا من المناطق المتخصصة داخل بناء ايكولوجى أكثر عموما فى المجتمع الحضرى » ويتغير البناء على هذا النحو من مدينة لأخرى بحسب اختلاف الحجم والموقع الجغرافى والنمو التاريخى والوظائف الرئيسية التى تقوم بها . ولكن الغالب فى المدن جميعا ، أن تكون هناك مساحة معينة تتركز فيها مظاهر النشاط التجارى ، ومساحات أخرى ينزل فيها أفراد الطبقة المتوسطة والعمال وهكذا ، وطبيعى أن تختلف طبيعة الحياة الاجتماعية فى هذه المناطق ، وعلى الأخص بالنسبة لتنوع مستويات المعيشة . الأمر الذى يخلق تمايزا فى المراكز الاجتماعية لساكنى كل هذه المناطق . وهذه خاصة أخرى من الخواص التى تميز البناء الاجتماعى للمجتمع الحضرى .

٤ — وثمة ناحيه هامة من نواحى البناء الاجتماعى الحضرى تأثرت الى حد كبير بالتصنيع والتخصص وغلبة الطابع التجارى ، وهى العلاقه بين الجنسين • ومن المسائل المسلم بها الآن ، أن المدن أصبحت مكانــ ملائما للنساء بوجه عام ، فقد وجدت أمامهن فرص كبيرة خصوصا لغير المتزوجات لأن يمارسن أنواعا متعـددة من النشاط ، وأن يكـون لهن استقلال اقتصادى ومركز اجتماعى متميز عن مركز الرجل ، وليس هذا غريبا ، فهناك نسبه كبيرة تتزايــد فى المدن من الرجــال والنساء غير المتزوجين ، وهذا يتضح من أنواع النشاط المختلفة التى نلاحظهــا فى أغلب المدن والتى تتجه الى خدمة غير المتزوجين ، بحيث يستطيع الرجل أو المرأة أن يجد المأوى والمأكل فى سهولة ويسر من غير حاجة الى الوجود فى منزل خاص • وقد أدى مثل هذا الوضع الى نتائج بعيدة المدى على سيكولوجية سكان المدينة بوجه عام ، وما يظهر عليهم من مظاهر القلق والاحساس بالفقدان نظرا لانعدام جوالود والمحبــة والعطف ، الذى توفره الجماعات الأولية كالأسرة مثلا •

وقد لوحظ مدى تأثير البيئــة الحضرية على الحيــاة الاجتماعية والاتجاهات الخاصة بالنساء الى درجة معينة • فقد كان تغــير وظيفة العائلة التى تسببت فيهــا المدينة من الأهمية بمكان بالنسبــة للمرأة خصوصا فى دورها كأم وكزوجة أو كمنتجة أى مكتسبة للثروة • ولذلك فان واجباتها أصبحت محدودة وتحررت الى حد كبير من روابط المنزل، ولكن الى أى حد يمكن أن يتطور مركز المرأة والى أى درجــة ستذهب اليها فى استقلالها ، هل ستكون النتائج النهائية فى صالح المرأة وبالتالى فى صالح الحياة العائلية ؟

فى هذا المقام نلحظ اختلافا كبيرا بين المدن فى المدنيــات القديمه والمدن فى أيامنا هذه ، لأنه من الخطأ أن نقول ان طبيعة الحياة فى المدينة عامه ، هى التى تؤدى الى ذلك بالنسبه لمركز المرأة • لأن التطور الذى حدث كان فى المدينه التى تأثرت بالتصنيع • ففى المدينــة القديمه ، فى

الشرق أو الغرب لم تكن للنساء الحرية التى نشاهدها اليوم اللهم الا حفنة منهن ينتمين الى الطبقة العليا .

وبناء على المادة التى تحت أيدينا اليوم ، نستطيــع أن نتنبأ أن التغير فى حياة النساء الاجتماعية مندفع بخطوات سريعة ، وسوف يؤدى فى المدى الطويل الى تغييرات هامة فى البناء الاجتمــاعى بأسره ، ذلك لأن فكرة سيادة الرجل وتبعية المرأة أخذت فى الانكماش ان لم تكن قد زالت فى بعض المدن ، وأصبحت للمرأة الحقوق الاقتصاديــة والمدنية المساوية للرجل تماما ، ولا نعنى بها الحقوق المدونة ، بل الحقوق كمــا تمارس فعلا وفى واقع الأمر . أما كيف سيكون البنــاء الاجتماعى فى مجتمع تختفى فيه رواسب الماضى بالنسبة للنساء ، ويصبحن على تواز تام مع الرجال فى الرغبات والميول والسلوك العلــمى ، فذالكــم أمر يصعب التنبؤ به وقد لايتم فى جيلنا الحاضر .

خصائص الحيــاة الحضرية :

عندما نشرع فى دراسة موضوعية للحياة الحضرية يجب أن يكون تحليلنا قائما على التعرف العلمى المقارن على أبعاد الواقــع وبالتالى يجب أن يكون بعيدا الى درجة كبيرة عن الأحكام القيمية ، على أن نختار مصطلحاتنا بعناية فائقة قبل محاولــة مناقشة أى جــانب من جوانب الحياة فى المدينة . مثل هذا الاحتراس المبدئى أو التحفظ الأولى يبعدنا عن الوقوع فى أخطاء "الأحكام القيمية التى ذاعت على ألسنة الصحفيين أو المفكرين الرومانطيقيين أو مخططى السياسة العامة .

ويمكننا أن نقول بصفة عامة أن علماء الاجتماع قد أبدوا اهتماما بطرق مختلفة فى دراسة أنماط الحياة الاجتماعية التى تنبثق فى المدينة وفى النتائج التى تحكم التعميم العلمــى من مجرد الابقاء على هــذه الانماط ذات فاعلية فى الحياة المستقلة ... ومــع ذلك نجــد أن أغلب

الابحاث عن المدينه اتجهت اتجاها تجريديا ونظريا ولاتجد الا عددا قليلا من الأبحاث الواقعية ، كما أنها لاتستخدم استخداما متكاملا فى اثبات النظريات أو تعديلها أو تغييرها ، وهذا يدلنا على أن تاريخ علم الاجتماع ليس به معلومات أو نظريات عن المدينة تستحق أن تكون الأساس النظرى الذى تقوم عليه الدراسة الآن ••• وكل ما هو موجود متمخض عن المحاولات الأخيرة التى بدأت تزدهر فى هذه الايام •• وعلى ذلك فأننا نتوقع أن تكون كتابات اليوم عن الحياة الحضرية مقتصرة على البناء النظرى المتكامل الذى يصلح كنقطة بدء لدراسة الواقع ولذلك فمن الواجب أن نبدأ فى فحص ما هو موجود من معلومات واقعية استمدت من بحوث أجريت بالفعل لمحاولة اقامة بناء نظرى بالمعنى السابق وهذا مطلب يصبح فى الدرجة الأولى من الأهمية ، كما أننا نعتقد أن الوضوح النظرى يعتبر خطوة مبدئية لابد منها لتستنير بها الدراسة الواقعية حتى تتمخض الدراسات الحضرية عن اضافات جديدة للنظرية السوسيولوجية العامة •

والمتتبعون للتفكير فى الحياة الحضرية يستطيعون وضع أيديهم على أنواع ثلاثة منه معادية للمدينة كتجمع أنسانى متقدم :

أولا : الاتجاه الذى نلمح فيه ازدراء للجماهير فى الفكر الاوربى الذى انطوى على أمثلة عديدة لهذا الازدراء ••• مثال ذلك ما ظهر فى الفكر اليونانى وخاصة الأفلاطونى ، وكذلك المعجبون بالارستقراطية فى أوربا الغربية والذين يشاركهم فى هذا الشعور كثير من الأرستقراط الجدد فى بلاد أخرى وقد تزايد هذا الازدراء اثر نجاح الث[ورة] الفرنسية ، وخاصة عندما بدأ الكتاب يصورون المدينة على أنها م[...] الدهماء والجماهير غير المسؤله التى يمكن تحريكها بسهولة فتؤدى ا[لى] قلب الأنظمة ، فالمدينة مركز التجمعات البشرية التى ينظرون اليها [...] والازدراء معا •

والذين يؤيدون هذا الاتجاه هم ممن ساندوا فى مراحـل التاريخ المختلفة الطبقات الحاكمة أو المستغلة صاحبة الثروة مما جعلهم يتهمون المدينة بدلا من اتهام النظام القائم عـلى أساس استغـلال الانسان للانسان • فليست المدينة مرادفة للفوضى ، ولكن الصحيح أن الجماهير يمكن أن تكون عاملا هاما فى ازدهار المدينة وتحويلها لنمط جديد يثرى الحياة الاجتماعية لو لم تكن هناك تلك العزلة الواضحـة بين الطبقات الاجتماعية ولا التفاوت الضخـم سواء من حيث العـدد أو الأساس الاقتصادى • ولذلك فالاتهام أو الازدراء مصدره من غـير شك الخوف من كل احتمال يؤدى الى هدم مراكز القوة التقليدية سـواء من ناحية السلطة أو الانتاج الذى كان يستمتع به نفر قليل فى كـل مدينة عبر التاريخ •

ثانيا : الاتجاه الثانى الذى يظهر عند هؤلاء الذين يعشقون الحياة الريفية ، ومثل هذه الدعوة للعودة الى الطبيعة فكرة نستطيـع تتبعها وترسمها فى الفكر الأوربى أيضا ، وفى كل جهة من العالم نستطيـع أن نجد أفرادا يمجدون الزراعة كطريقة فى الحياة ••• ولايقتصر الأمـر فى هذا المضمار على باحثين فى علم الاجتماع بل اننا نجد مصداقا لذلك فى الأدب والشعر وبعض الفنون الأخرى •

وسر ذلك أن الحياة الريفية فى نظرهم مركـز الاستقرار وموطن القيم والشجاعة والأخلاق والايثار وغير ذلك من المبادىء التى يعتقد كثير من الناس أن المدينة وطريقتها فى الحياة قد حطمتها •

ولذا فاننا لنجد فى كثير من كتب عـلم الاجتماع الحضرى الآن تركيزا على المقارنة بين الحياة الريفية والحضرية فى القيـم والعادات والروح المعنوية والعلاقات الاجتماعية المباشرة وغير المباشرة •

ثالثا : الاتجاه الذى يعقب على ظهور كثير من الانحرافات التى تصيب الفرد والجماعة وينسب الى طابع المدينة المسؤولية الكاملة عنها•••

وما وجه من نقد الى الاتجاه الأول يمكن أن يوجه الى هذا الاتجاه ...
فليس صحيحا أن الحياة الريفية كانت بالنسبة لسكان القرى مسألة سهلة وهينة ، بل ان تاريخ المجتمع الزراعى يكشف عما فعله الاقطاع وكيف تحول الفلاح الى رقيق للأرض ... وكل ما فى الأمر أنه كان يقابل هذا الاستغلال بايمان عميق بالقضاء والقدر .

أما فى المدينة فالروابط والعلاقات الريفية التقليدية لاتكون ظاهرة، وبالتالى تتاح للافراد بعض الحرية للتعبير عن الرأى والاحساس بتخلخه الموجودة فى النظام نتيجة افتقادهم لمعنى الاسهام فى الحياة سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية التى كانت سائدة فى القرية وتؤدى الى نمط معين فى الحياة .

من أجل ذلك وفى ظل نظام اجتماعى مفكك ووجود ترابط فى أدنى نمط من التكامل فان جماهير المدينة سرعان ما تجمعهم مشاعر واحدة ويمكن أن يحركهم نداء واحد . خاصة اذا اتصل بأساس حياتهم الاقتصادية .

ويمكن فى هذا الصدد أن نلاحظ فرقا واحدا بين المدن الرأسمالية والمدن الاشتراكية هو أنه فى الرأسمالية يعبر عن التذمر والمطالب بالاضراب الذى يأخذ صورا عنيفة قد تشل الحياة الاقتصادية . أما فى المجتمع الاشتراكى فالوصول الى قرار والتعبير عن الرأى يتم بطريقة معروفة يحكمها التنظيم السياسى السائد عن طريق الاجتماعات والاقناع الجماعى فى شكل من الآراء المدروسة التى تستنير دائما بخطة الدولة فى التنمية الاجتماعية والاقتصادية .

التركيز الحضرى وخصائص المدن :

تتركز الحياة فى عصرنا الراهن فى المدن ، وبينما يتزايد عدد السكان فيها يقل تدريجيا فى الريف ... كما يلاحظ أن حياة الريف

بدأت تتأثر بحضارة المدينة وتنقل عنها بعض خصائصهـا حتى أصبح يخشى الآن زوال الظاهرة الريفية بتعاقب الزمن •

ويرجع ذلك إلى عاملين هامين :

أولهما : ــ اتساع حركة التصنيع الأمر الذى يـؤدى الى هجرة كثير من القرويين من الريف الى المصانع فى المدن وبذلك تقـل الأيدى العاملة فى القرى وبالعكس فى المدن •

ثانيهما : ــ المدينة لها خاصية الجذب مما فيها من مظاهر العظمة والترفيه وفرص العمل مما يدعو الكثيرين الى التمسك بحيـاة المدينة وهجر الريف الذى أصبح لايطاق من وجهة نظـر البعض ثم لا ننسى أن المدينة الآن اتجهت الى اصلاح الريف وتزويده بالامكانيات الواسعة التى تجعله يتجه تدريجيا الى الحضرية •

وتدل الاحصاءات العالمية المتعددة على أن السكان بدأوا يتركزون فى المناطق الحضرية دون الريفية ، فالأولى بدأ نطاقها يتسع والثانية بدأ نطاقها يضيق حتى أنه يمكن القول انه من الجائز أن يندثر الريف بحياته الريفية ، وتصبح الحياة كلها فى المستقبل حياة حضرية ، الامر الذى قد ينشأ عنه مشاكل لابد من دراستهـا حتى يمكن علاجها ، مثـل مشكلة الاسكان والمواصلات والخدمات العامة والعمالة والصحة والوقاية من الجريمة والأنحراف وغيرها •

والحضرية وان كانت تحمل بين طياتها الاشارة الى انبثاقها من المدن الا أنها فى الواقع مجرد طريقة فى السلوك وحسب ، أى سلوك له طريقته الخاصة وسماته التى تميزه عـن غيره ••• وهى ليست تعبيرا مقصورا على الحياة فى المدن فقد نجد أنسانا متحضرا وسلوكـه الكلى حضرى بينما يحيا فى الريف ونجد آخر يحيا فى أكثر أحياء المدن تحضرا

وهو مع هذا لايزال قرويا فى تفكيره وطريقة معيشته بل وفى سلوكه ؛ فالمسألة اذن مسألة سلوك وليست مسألة مظهر .

وتتميز الحضرية بالتغير السريع سواء من حيث الحركة السكانية أو من حيث التغير فى النظم الاجتماعية أو الاقتصادية أو من حيث التغير فى القيم والعادات والتقاليد والنظرة الى الحياة ، وأهم خصائص الحضرية ما يلى : —

١ — الحضرية تتناسب طرديا مع عدد السكان بحيث كلما ازداد عدد السكان فى مدينة ارتفعت فيها نسبة الحضرية ارتفاعا ملحوظا .

٢ — المهاجرون من الريف للمدينة يحتفظون بالرواسب الريفية ، وآثارها تظل عالقة بسلوكهم أول الأمر ثم يتحررون منها تدريجيا حتى تختفى فى الجيل الثالث وما بعده .. فلابد اذن من المرور على مراحل مختلفة متعددة حتى ينتقل السكان من الريفية الى الحضرية .

٣ — ان أهم سمة للحضرية هى شكل العلاقات التى تقوم بين الناس ونوع العمل الذى يقومون به والتخصص وتقسيم العمل ومدى اتساع نطاقه .

وليست المسألة فى الحضرية مسألة عدد ، فقد تجد قرية من القرى يزداد عدد سكانها زيادة كبيرة جدا ، وقد تجد أخرى عدد سكانها قليل، فالعبرة ليست بعدد السكان ولكن بنوع العلاقات الانسانية التى تميز الحياة الحضرية عن الريفية .

٤ — ان انتشار الصناعة فى أغلب المجتمعات يميل الى خلق مراكز صناعية مستقلة تصبح مدنا بعد حين ، ولهذا فالحياة الحضرية الخالصة تختلط بالحياة الاجتماعية المتأثرة بالتصنيع حتى أنه يصعب التمييز بينهما .

٥ ــ أن الحياة الريفية وما فيها من روح الجماعــة وشدة تماسك أعضائها وتعاونهم تجعل من الجماعة فرداً أو من الفرد جماعة ، حتى أن الاشياء الجميلة أو الخطأ الذى يقوم به فرد تتحمل مسئوليته الجماعة والعكس فان ماتقوم به الجماعة قد يقع على عاتق فرد واحد ، وعكس هذا يحدث فى المدينة ، فكل فرد مسئول عن نفسه فقط ان قـام بشىء حسن أو أخطار فلا يشاركة فى هذا سواه .

وقد أسلفنا القول بأن الحياة الحضرية تتسم بالاستقلال الى حد لا يقتصر على الحياة الاجتماعيــة وحدها وانما يمتــد الى المسئولية وتحملها .

٦ ــ ان المدينة تحدد نوع العمل الذى يقوم به الفرد ، فكل فرد يتخصص فى نوع معين من العمل حتى يمكن القول بأن هنــاك مطابقة للتقسيم المهنى والترتيب الطبقى ، وهذا راجــع الى كثرة عدد السكان فى المدينة .

٧ ــ الحياة الحضرية أوسع نطاقا من الريفية ففى الأولى يكون الشخص حرا فى نوع تعليمه وحرفته وسكنه وطريقة حياتــه الخاصة والعامة بينما فى الريف نجد الظروف العائلية تفرض على الشخص كثيرا من أنماط السلوك يضطر الى تنفيذها بحذافيرها ، فهو ليس حــرا على الاطلاق ولكنه مقيد بقيود العادات والتقاليد التى تخضع لها قريته .. وهو لايستطيع أن يأتى تجديد أو يقوم بالتعبير الخــلاق فهو يدور فى اطار ضيق محدد تماما بعكس الحياة الحضرية ففيها التجديــد والخلق والابداع لذا فهى ــ أى الحضرية ــ ديناميكية وليست استاتيكية .

٨ ــ تمتاز الحياة الحضرية بالتكيف السريع ، فالفرد الجامد الذى لا يستطيع التكيف سرعان مــا يتخلف بل يتنبأ لــه الباحثون بالمرض النفسى ، ولكن الفرد المتكيف المتفاعل هو الذى يمكنه البقاء فى المدينة ، فالتكيف السريع شرط أساسى للحياة الحضرية الناجحة .

٩ ـ الحياة الحضرية تمتاز عن الريفية بأنها مرنة غير جامدة فيها التغير السريع ، وفيها التنقل لايحدهما جمود الريف ، وعلاقات الناس فيها تتسم بالمرونة والقابلية للتغير والتكيف للمواقف المختلفة التى قد تكون نتيجة تغير المراكز والأدوار التى يقوم بها كل منهم ••• وعلى هذا فالطبقات فى المدينة مفتوحة ويمكن القول بأن الحياة الحضرية تمتاز بالدينامية •

هذه بعض خصائص الحياة الحضرية أوجزناها فى النقاط التسع السابقة ومع هذا فالحياة الحضرية أوسع من أن تحدد سماتها •

الوظائف الحضرية المتخصصة :

يمكننا أن نتساءل الآن عن الوظائف الحضرية المتخصصة التى يجب على المجتمع أن يؤديها بالنسبة للسكان والاقتصاد العام الذى تكون المدينة جزءا فيه •

تؤدى كل مدينة وظائف متخصصة لأنها بذلك تبرر وجودها فتنفق على الغذاء والكساء والسلع الأخرى التى يحصل السكان عليها من خارجها ، وتؤدى معظم المجتمعات الحضرية غالبا مزيجا من الخدمات المتخصصة التى تشمل الخدمات التجارية أو الصناعية أو الادارية والثقافية أو الترفيهية ، ولكن يلاحظ أن كل المدن لاتعطى اهتماما متساويا لكل هذه الأنواع من الخدمات • فبعض المدن يسودها الطابع التجارى ، وبعضها يسودها الطابع الصناعى ، والبعض الآخر يغلب عليه الطابع الترفيهى ، وحتى المدن الصناعية نجد أنها تختلف فيما بينها فمنها ذات الصناعة الثقيله ومنها ذات الصناعة الخفيفة •

وقد وجد أنه عند وضع تخطيط للنموذج الداخلى لأى مدينة كبيرة يحتاج المخطط أن يقدر كثيرا من الأمور ، منها الوظائف الحكومية والسكن والمؤسسات التجارية والمؤسسات الصناعية ومكاتب البريد

والمحاكم وأماكن العبادة والمدارس والمكتبات والمعاهد والشوارع والمواصلات •

مستقبل الحياة الحضرية :

ظل الانسان لقرون طويلة يعيش فى المدينة دون أن يفكر كثيرا فى المستقبل ، واذا حدث أن فكر فى التغيير ، فقد كان فكره محصورا فى النمو والتقدم الفنى والمزيد من الجمال أو بمعنى آخر لم تكن عند الانسان فى هذا الوقت الرغبة ولا التصور أن هناك أفضل من طريقة الحياة الحضرية •

ولكن القرن الحالى واجه البشر بحيرة ازاء حياته فى المدينه ، فقد بدأ الانسان يفكر فى الفرص المتاحة له فى الحياة والتى من أجلها بدأ يدبر الخطط التى تؤدى الى احداث تغيرات جذرية فى الظروف الطبيعية وفى البناء الاجتماعى لطريقة الاقامة الحضرية [1] •

لقد تشاءم الكثيرون فى مجرى التاريخ من مستقبل الحياة الحضرية ، لما لها من آثار سيئة على حياة البشر وما تؤدى اليه من تدمير للقيم الانسانية واهدار لمبادىء الحياة الكريمة وانحطاط للنفس الانسانية ، فشبنجلر أكبر مفكر يتهم الحياة الحضرية ، يرى أن المدينة

---

(١) ان تقييم الحياة الحضرية ايجابيا أو سلبيا لم يكن أمرا مقتصرا على الأدباء أو الانسان العادى بل أنه امتد الى الباحثين فى المجتمع الحضرى أنفسهم ، وكانت أحكامهم القبلية موجهة لنظرتهم ولتحليلهم لمشاكل المدينة، أنظر فى هذا الموضوع Nels Anderson: Urban Community وكذلك Bergel, Urban Sociology حيث عرض البعض الاتجاهات المختلفة بشأن النظرة : العلمية وغير العلمية لمستقبل الحياة فى المناطق الحضرية •

فاتها عبارة عن شر يدمر كل شيء وفى النهاية تغرق المدينة موتا فى آثامها ، ويقول ان مولد المدينة يحمل فى نفس الوقت علاقة موتها ، ولعل تشاؤم شبنجلر جاءه مباشرة من هيجل وماركس ، حينما زعما أن طبقة البورجوازية تحفر بنفسها قبورها • ويحاول كثير من المفكرين أن يردوا على هذا التشاؤم بقولهم ، انهم لم يعثروا على مدينة كانت فريسة للتدمير الذاتى ، كما أن المدن فى العصر الحديث مستمرة فى النمو حجما وعددا • ويمثل لويس ممفرد هذا الاتجاه التشاؤمى فى علم الاجتماع على الرغم من أن آراءه أقل خيالية ، وهجومه على الحياة الحضرية أكثر اعتدالا وتشخيصاته ليس لها الطابع المميت • وينصب نقده على ضخامة وقوة بعض أنماط المدن وبعض مراحلها بالذات التى يسميها المتروبوليس والميجابوليس والنكروبوليس ، فهذه المراحل من نمو المدينة كما يقول «ممفرد» تدمر المدينة وتسبب الحروب وتدمر العلوم والفنون •

لكننا لا نستطيع أن نسلم معه ومع غيره بهذه الاتهامات دون دليل قاطع ، ذلك أن المدينة والحضرية كطريقة فى الحياة لايمكن أن تكون مسئولة عن مثل هذه الكوارث لافتقارها الى الدليل العلمى • حقيقة أن المدينة قد تسببت فى وجود أنواع جديدة من الجرائم ، وزيادة فى انحراف الأحداث ، وزيادة كبيرة فى تصدع الأسر واحتمالات كثيرة للمرض والانهيار العصبى وقيام فرص كثيرة لظهور التفكك والقلق والاضطراب فى المجال الفردى والجمعى ، الا أن جذور هذه المشاكل جميعا كانت موجودة قبلا فى الحياة الريفية ،وتضخمت أو ظهرت واضحة فى المدينة تبعا لزيادة حجمها وازدحام السكان فيها • وعلى العكس مما يقوله المتشائمون فان الحضرية كطريقة فى الحياة تنمو باستمرار وتفرض نفسها على كل طريقة أخرى فى المجتمع •

نحن نعيش الآن مرحلة انتقال وفى عصر يتميز بالدينامية الشديدة يتغير فيه كل شيء ، والمدينة من هذه الزاوية تمر أيضا بهذه الفترة ،

وقد تنبه العلماء الى ضرورة توجيـــة القوى المفيدة لتحقيـــق مصالح الجماعة ، لذلك أصبح التحقيق عنصراً أساسياً الآن فى بناء مستقبـــل المدن ، والقائمون على تخطيط المدن يفكرون فى أفضـــل الأهداف التى يحاولون بخططهم أن يصلوا اليها ، ولذلك فان تحليـــل الأهداف العليا للتخطيط يعطينا عمقا فى توجيه المجتمع المعاصر ، كما أن اختيار هـــذه الأهداف العليا يمكن أن يوضـــح المتضمنات السوسيولوجية لاتجاهات الحضرية .

والمسألة الأساسية هنا ألا ننظر الى نمو المدينة على أسس مادية بحته لأنه ربما نفلح فى ترتيب كل شىء فى الحياة الحضرية من الناحية المادية ، ومع ذلك تظل الحياة الحضرية مثقلة بالهموم ومكانا قاتما للفرد . ومن أجل هذا تبرز أهمية الناحية الثانية فى التخطيط الحضرى ، الذى لابد أن يواجه مسائل العلاقات والقيم التـــى يجب أن تهدف الى مزيد من العلاقات المباشرة بين الناس ، واعادة بناء القيم على أساس يقلل فرص الانحراف ويضمن ايجاد مستوى موحد تقريبـــا فى النظرة الى الحياة .

فالمدينة ليست مجرد أبنية أو شوارع أو ميادين أو معـــدات للحياة اليومية توفر الوقت والمجهود ، بـــل أنها نوع من الحياة جـــديد على البشرية يجب أن نهيىء له الأساس المعنوى وما يتضمنـــه من تنظيم اجتماعى لابد أن يصل الى مرتبة التضامن والتماسك الذى كان للمجتمع القديم ، ولعل زيادة مشاكل المجتمع الحضرى ترجع فى المحل الأول لا الى نقص الجانب المادى فى الحياة بقدر ما ترجـــع الى سوء التنظيم الاجتماعى وما ترتب عليـــه من تفكك ، مما جعل هـــذه المشاكل تبرز للمفكرين جميعاً وتدعوهم الى هذا التشاؤم الذى أشرنا اليه من قبل .

الفصل الرابع

الدراسة العلمية للمدينة

البحث فى المدينة حديث جداً فى ميدان علم الاجتماع على الرغم من الاشارات العديدة الى الحياة الحضريه فى عدد كبير من مؤلفات علم الاجتماع حتى المؤلفات المبكرة منها •

وقد تعودنا أن نجد مقارنة بين مختلف أنماط المجتمعات فى كتب علم الاجتماع التقليدية وخاصة المجتمعات البدائية أو القروية أو المتحضرة •

كذلك نجد عدداً من الدراسات التى تناولت آثـار التصنيع على الحياة الحضرية الحديثة والتغيرات التى طرأت على الطابع العام للحياة نتيجة التعديلات المصاحبة التى تحدث فى التنظيم الاجتماعى •

لقد تعرض عدد من الباحثين الأوروبيين لمسألة المدينة قبـل أن ينشأ علم الاجتماع الحضرى فى أمريكا بوقت طويل ، ونخص بالذكر هنا الدراسة التى أجراها ماكس فيبر عن المدينة وحاول فيها أن يتتبع أصولها التاريخية والتطورات التى طرأت عليها والوظائف التى تؤديهـا والآثار التى تتركها على حياة الانسان (١) •

ولكن أكبر ازدهار للدراسات الحضرية والمدينة بوجه خاص يمكن أن نتتبعه خلال عشر سنوات من سنة ١٩٤٦ الى سنة ١٩٥٦ •

ومن أهم من عالجوا موضوع المدينـة قبل هذه الفترة كـل من روبرت بارك ولويس ورث • ذلك أنهما وجدا أنه من المناسب عند معالجة

---

(١) راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع فى الفصل الأول •

الحياة الحضرية من وجهة النظر السوسيولوجية التركيز علـى ثلاثة مسائل هى :

١ ــ دراسة ايكولوجية المدينة ، بمعنى دراسة التوزيع السكانى فى علاقته بالمكان والعمليات المتضمنة فى العلاقة المتبادلـة بين السكان والمكان .

٢ ــ تنظيم المدينة الذى يتخذ طابعاً خاصا كلمـا اتسعت المدينة حجما ، وبالأخص عندما يظهر التمايز الواضح فى أجزاء هذا التنظيم ، وأهم ما يلفت النظر فى هذا المجال امكان تقسيم التنظيـم الاجتماعى الكبير الى عدد لا حصر له من التنظيمات الاجتماعية الفرعية .

٣ ــ دراسة سيكولوجية السكان من وجهات نظر عديدة ، وخاصة الشعور الطبقى أو الطائفى أو المهنى والمظاهر النفسية العديـدة التى تصاحب الحياة الحضرية الحديثـة فى مقارناتها بما كان معـروفا من خصائص السكان اللذين كانوا يسكنون الوحدات الصغيرة نسبيـاً فى المجتمع القروى على سبيل المثال .

ومع ذلك فان الدراسات الحقلية التى أجريت حتى سنة ١٩٤٨ لم تكن موزعة توزيعا مناسبا بين هذه الموضوعات الثلاث . وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله تخلفت الصياغات النظرية المتكاملة للمدينة ، وظهر التناقض بين ما هو موجود منها الأمر الذى لاتزال علاماته ظاهره فى الدراسة العلمية للمدينة حتى الآن .

ان دراسات بارك وتلاميـذه تضمنت فى العادة هـذه النواحى الثلاث ، وخاصة عند التعرض لدراسة ظواهر مثل انحـراف الأحداث والجريمة ، وما الى ذلك من الموضوعات الحضرية المعروفة فى كتب علم الاجتماع العام .

ويمكن أن نلاحظ من استعراض الدراسات العديدة التى انجزت، اختلاط الدراسات الفردية بالمسائل الديموجرافيه والايكولوجيه فى المدينة والمسائل المتعلقة بسيكولوجية الحياة فيها • وتعتبر دراسة بارك عن المدينة التى أجراها عام ١٩١٥ نموذجا سار على منواله عـدد كبير من الباحثين وخاصة عندما اجتهدوا فى الاجابة على ماأثاره من أسئلة مثل :

ما الذى يجعل المدينة تنمو ؟ وهـل تتبع المدن أثنـاء عملية النمو نمطا معينا ؟ ما هو النمو الحضرى ؟! وهل تكرر المدينـة نفسها عند نموها ؟ ما طبيعة الجوار الحضرى ؟ هل المنطقة المتخلفة تعتبر من وجهة النظر العلمية والواقعية منطقة غير منظمة ؟! ما هى الآثار التى تترتب على تقسيم العمل فى المدن ؟ ما الذى يحدث للنظم المحلية للسكان عندما تنمو المدينة ؟! الى أى حد تكون المدينة عاملا مغيراً للأنماط الاجتماعية والى أى درجة يمكن أن تكون عاملا فى خلقها ؟ (١) •

ويلاحظ أن الدراسات التى أجريت بعد دراسة بارك هذه تحاول أن تتجه اتجاها محدداً يمكن أن يوصف بأنه دراسة المجتمعات المحلية • ولكنه بمرور الزمن وضحت فكرة المجتمع المحلى واعتبرت المدينة نمطا خاصا منه يمكن أن يصبح ميدانا يستخدم للدراسة العلميـة •• ومهما يكن من أمر فان اتجاهات الدراسة الحضرية حتى الآن لاتزال تقع فى الاطارات الثلاثة التى حددناها من قبل وتجتهد فى الاجابة على الأسئلة التى أثارها بارك منذ زمن بعيد •

---

(١) أنظر مقالة بارك التى نشرت فى عـدد كبير من مؤلـفات علم الاجتماع وعلم الاجتماع الحضرى بعنوان :

The City : Suggestions for the Investigation of Human Behavior in the Urban Entvironment

وكذلك مقالته التى نشرت فى المجلة الامريكية لعلم الاجتماع عدد ٣٣ عام ١٩٢٨ بعنوان :

Human Megration and the Marginal man.

يعتقد بعض الباحثين فى علم الاجتماع الحضرى أن هناك نوعا من الفتور حدث فى أبحاث المدينة خصوصاً اذا نظرنا اليها من وجهة النظر الايكولوجية والديموجرافية • ويستنتجون من هذا أن علـم الاجتماع المقارن الذى يواجه الحياة الحضرية لم يولد بعد • ومن أجل ذلك فان الجانب النظرى فى الابحاث الحضرية لازال ناقصاً الى درجـة كبيرة • وربما يرجع ذلك الى فشل علماء الاجتماع الأمريكيين فى أجراء دراسات مقارنة تستمد من ثقافات أخرى غير ثقافتهم ليتمكنوا من تقديـم مادة حقيقية قد يكون لها طابع مختلف عن طابع الحياة الأمريكية فى المدينة الأمريكية • لان اقامة نظرية تتعلق بالحياة فى المدينة منصبة فقط على نمط المدينة الأمريكية لايصبح عمـلا علمياً سليما ويمكـن أن يوصف بالتحيز ، وهذا هو الشأن فى بقية الأبحاث التى يجريها علماء الاجتماع الأمريكيون • فقد اعتبروا المجتمع الأمريكى المحـك الاول والاخير فى البحث ، ومن ثم يقيمون نظريات وقواعد ووجهات نظر واطارات من المفاهيم ليس لها صدق الا على مجتمعهم فقط مـع أننا نشك فى صدق تلك النظريات حتى على المجتمع الأمريكى نفسه (١) •

وهناك سبب آخر لهذا الفتور الذى أصاب البحث الحضرى يرجع أساسا الى التغير العميق الذى حدث فى تقسيمات عـلم الاجتماع وفى المشاكل التى يهتم لها الباحثون الآن • فبـدلا من أن يركز الباحثون دراساتهم على مناطق بعينها كالقرى أو المدينة ، أخذوا يلتفون ناحية المسائل ذات الأهمية أو الحيوية بغض النظر عن مكان البحث •

ولذلك فان مسائل عديدة كانت فيما مضى تقـع من حيث المفهوم العام ضمن اطارات علم الاجتماع الحضرى أصبح ينظر اليها الآن فى

---

(١) راجع ماكتبه كل من ألفين جولدنر فى كتابه The Comming Crissis of Western Sociology وماكتبه هوتوفنتز فى مقالات ومقدمات لكتب عديده عن أزمة الامبريقية فى علم الاجتماع الامريكى •

ضوء اطار جديد من المفاهيم • أو أنها أصبحت تنتمى لفروع أخرى من علم الاجتماع •

ومثال ذلك المسائل التى ترد الآن ضمن علم الاجتماع الصناعى والترتيب الطبقى للمجتمع ووسائل الاتصال الجموعية •

ولهذا يغلب على الظن أن علم الاجتمـاع الحضرى سيقتصر فى السنين القادمة على دراسة ما يسمى البناء الاجتماعى الحضرى الذى يمكن أن يؤدى الى دراسات عديدة لأنماط عديدة من المدن، الأمر الذى يصبح معه من الممكن أن يكون لدينا ضمن اطار عـلم الاجتماع ، علم اجتماع مقارن لطبيعة البناء الاجتماعى الحضرى • وبهـذا يمكن أن تكون هناك فرص لاقامة النظرية السوسيولوجية الحضرية وأن يكون لها من الصدق والثبات أكثر مما لو اقتصرت الدراسة على نمط واحـد من المدن أو على مدن بعينها فى مجتمـع بعينه مثل ما هو حادث فى عـلم الاجتماع الأمريكى •

ما الذى جعل علماء الاجتماع الأمريكيون يحسون بتضـاءل علم الاجتماع الحضرى وبالحاجة الى نظرية متكاملة صادقة وبالحاجة الى علم اجتماع حضرى مقارن وبضرورة تغير ميدان الدراسة ليتركز حول المسائل المتعلقة بالبناء وحدها وترك المسائل التى تعود الباحثون ادراجها ضمن الاجتماع الحضرى التقليدى ؟

للاجابة على هذه الأسئلة ••• يجب أن نفحص فعلا ما كتب فى علم الاجتماع الحضرى ••• فاذا فعلنا ذلك فسوف نقع على ثلاثة اعتبارات هامة : —

١ — أن علم الاجتمـاع الحضرى أعتبر نوعا من عـلم الاجتماع يختص بالحياة الحضرية أو المدينة ، ومن أجل ذلك فان المبادىء العامة واطارات المفاهيم الأساسية والأفكار الرئيسية التى يتحرك خلالها علم

الاجتماع يمكن أن تطبق على الدراسة فى علم الاجتماع الحضرى الا من تعديلات طفيفة جداً تتناول طابع الدراسة فى المدينة • ومن الواضح أن النظرية فى علم الاجتماع ذاته لم تتضح بعد وما برحت موضع جدل ولا زالت تغشاها الاعتبارات الايديولوجية الأمر الذى لايجعلنا نطمئن الى ما يقال عن وجود نظرية سوسيولوجية موحدة معاصرة ولعل أوضح ما يدل على رأينا ذلك التناقض البين بين النظريات المعاصرة والردة المتجدده نحو نظريات قديمة لمفكرين من أمثال باريتو وفيبر ودوركايم(١)

اذن من الناحية النظرية البحتة لازال علم الاجتماع الحضرى حتى الآن فى حاجة الى اطار نظرى واضح المعالم ليتمكن الباحثون من البدء فى الدراسة على أساس فروض قابلة للفحص تكون لها ثمـرة فى نهاية الأمر حتى لايضيع الجهد فى اجراء دراسات عقيمة ننتهى منهـا الى مجموعة من القصاصات عديمة المعنى تضاف الى القصاصات المتراكمة التى تحمل نفس الطابع والتى لاتسهم حتى الآن فى تقدم المعرفة أو اطار النظرية أواصلاح المجتمع •

٢ — غلبة الوصف أو الطريقة الوصفية المتبعة فى كـل الدراسات التى أجريت حتى الآن • مما ترتب عليه أن أصبح تسجيل ما هو قائم فى المدينة الأمريكية هو الهدف من قيام علم الاجتماع الحضرى • ولعلنا نلاحظ فى هذا المجال أن وصف الواقع الأمريكى فى المدينة الأمريكية ملائم جداً للاغراض الرأسمالية والاحتكارات الكبرى الأمريكية التى

---

(١) لقد أصبح من المألوف الآن الاشارة الى وجـود علمين للاجتماع أحدهما غربى (بورجوازى) والاخر سوفيتى (ماركس) راجع فى ذلك ماكتبه فريدريكس فى مؤلفه عن The Sociology of Sociology) N.Y., 1970. والى مؤلف رايت ميلز الشهير عن The Sociologyical Immagination, 1969.

يهمها فى المحل الأول دراسة التركز والتخلخل من حيث الكثافة فى المدن ودراسة الأذواق والاتجاهات والأنماط الطبقيه بقصد ترويج سلعة معينه أو البحث عن مقومات لنشر الصناعة فى المنطق التى يمكن معها الحصول على الأيدى العاملة الرخيصة دون اصطدام بعوائق بشريـــة أو مادية يمكن أن تقلل من فائض الربـــح الذى يـــؤدى الى زيادة التجمـــع الرأسمالى . وليس غريبا أن نجد أن أكثر الدراسات الحضريـــة مولتها الشركات الأمريكية الكبرى أو المؤسسات العلمية ذات الطابع الرأسمالى « روكفلر » (١) .

٣ ــ غلبة الاتجاه النفعى عـــلى الدراسات الحضريـــة والتسليم بمجموعة من الدعاوى وقيام الدراسة على أسسها ، مثل التسليم بالنظام الطبقى كأساس لتشريح المجتمع ، وبالمناطق المتخلفة وضرورة وجودها، وكذلك التسليم بالتفرقة العنصرية بين مختلف فئات السكان ، والتسليم بطبيعة المشاكل الاجتماعية وضرورة علاجها رأسيا ، وأخـــيراً التسليم بالسلوك الانحرافى باعتباره أمرا لامفر منه فى الحياة الاجتماعية .

ومن أجل هذا ، كـــانت الدراسات التى ترد فى عـــلم الاجتماع تكاد أن تكون نسخة واحدة : دراسة للايكولوجية وعملياتها ... دراسة لتوزيع السكانى ... ودراسة للامراض الخاصة بالمدينة ... دراسة النظام الطبقى ... دراسة لسيكولوجية ساكن المدينة ، ولا نكاد نجد غير ذلك ، اللهم الا فى بعض المسائل الصغيرة ، مثل تعريف المدينةكوحدة للدراسة ، والفرق بينها وبين التجمعات الانسانية الأخرى ، والامعان فى وصف الحضرية باعتبارها خاصية أساسية تنبثق تلقائيا عن الوجود الحقيقى للحياة الحضرية .

---

1) Horowitz (ed.) The New Sociology : The Introduction, New York, 1964, PP. 3 - 36.

ولعل رسوب علماء الاجتماع الأمريكى بهذه الصـــورة فى هذا الاتجاه يرجع الى ما أعترفوا به فعلا من النقص الواضح فى الدراسات المقارنة ، والى تهافت النظريـــة السوسيولوجية والى غلبـــة التوجيه الرأسمالى ، والتحمس الشديد لطابع الحياة الأمريكية التى تعتمد فى رأيهم على حرية لانظير لها وديموقراطية هى المثل الأعلى للديموقراطية فى العالم .

حول الدراسة العلمية للمدينة

تتميز المدينة الآن وتظهر كموضوع للدراسة ، فقد أهتم المفكرون بها على اختلاف مشاربهم ، نظرا لأن الحياة الحديثة تتركز تدريجيا فى المدن ، حتى أنه فى بعض بلاد العالم لا تكاد نسبة السكان الريفيين تذكر بجانب نسبة السكان الحضريين ، والمتتبـــع للتعدادات التى أجريت فى بلادنا وخاصة منذ سنة ١٩٠٧ حتى سنة ١٩٦٠ يلحظ التزايد التدريجى لنسب السكان الذين أعتبرهم التعداد حضريين على السكان الريفيين ، ومعنى هذا أن نسبة القطـــاع القروى فى تناقص مستمر بينما ترتفع بالتدريج نسب سكان المدينة .

لقد عرف الانسان المدينة منذ أقدم العصور وعرف طابعهـــا فى الحياة ، وكثيرا ما كان يتردد سكان المناطق التى تقـــع خارج حدودها عليها لمسائل تتصل بقضاء مصالحهم أو للترفيه عن أنفسهـــم ، كما أن تأثير المدينة على المناطق المحيطة بهـــا كان أمر ملاحظا خـــلال مراحل التاريخ بأكملها .

ومن المعروف أن طريقـــة الحياة والنظرة اليها وأهـــداف الناس ومشاكلهم فى كل أنحاء العالم تعرضت لتغيرات واسعة النطـــاق خلال التاريخ الانسانى ، وما من شك فى أن طابع الحياة الحضرية كان أحـــد الأسباب المباشرة لهذه التغيرات ، ذلك لأن المدينة لا تؤدى وظيفة الربط

بين أنواع النشاط الانسانى فحسب ، بل أنها أيضا تعتبر مصدرا لكل الانطلاقات الكبرى وأنواع السيطرة المتعددة على الحياة الاجتماعية .

وعندما يحاول الباحثون فى علم الاجتماع دراسة التغير الاجتماعى والثقافى من حيث عوامله وعملياته ونتائجه فانهم يضعون ثقلا كبيرا على التأثيرات العديدة التى تمارسها المدينة ، وخاصة ما تخلفه من عناصر تكنولوجية قد يكون لها المقام الأول فى عمليات التغيير الواسعة النطاق التى تحدث للحياة البشرية ... وهناك شبه اجماع بين هؤلاء الباحثين على أن تأثير المدينة وعناصرها التكنولوجية تعتبر عاملا مركزيا فى تفسير التغير الثقافى والاجتماعى سواء داخل المدينة نفسها أو خارجها أو فى الوحدات القروية أو البدائية .

ولقد نظر الانسان الى المدينة من وجهات نظر متعددة : منها اعتبار المدينة تجمع انسانى تسوده أخلاق معينة مختلفة الى حد يكبر أو يصغر بالمقارنة بالتجمعات الأخرى المغايرة ، أو على أنها وحدات نضجت خلال التاريخ الانسانى نتيجة الصراع الانسانى مع الطبيعة ، أو على أنها مظهر جوهرى للعلاقات المتبادلة بين الانسان والمكان ، أو على أنها مجموعة من العلاقات الاقتصادية المتبادلة ، أو على أنها مركز من مراكز الاشراف السياسى أو الحربى أو التجارى ، وأخيرا على أنها نوع متميز من الوجود الانسانى .

ولنا أن نلاحظ هنا أن كل هذه الاعتبارات ليست بالضرورة داخلة ضمن نطاق الاهتمام السوسيولوجى عند دراسة المدينة ، ذلك لأن علم الاجتماع غالبا ما ينظر الى المدينة على أنها شكل من أشكال المجتمعات المحلية الانسانية ، بمعنى أنها نوع من المجتمع المحلى يتميز بوجود قوى اجتماعية يكتسب الناس بفضلها خصائص متميزة ، كما أن طابع الحياة فيها يخلق نظماً وأنواعا من التنظيمات تؤدى الى اعطاء الحياة الانسانية

وجها معينا هو الذى نطلق عليه اسم (حضرى) (١) ٠

مداخل متعددة لدراسة المدينة

اذن فعلماء الاجتماع ينظرون الى المدينة على أنها شكل متميز من المجتمعات المحلية الانسانية وقد سبق أن لاحظنا أن هناك نقصا يعترى دراسة المدينة من حيث النظرية واطار المفاهيم ٠

ومع ذلك فهناك ثلاث مداخل أساسية تتبع عند محاولة دراسة الظواهر الحضرية كما تستخدم فى الوصف السوسيولوجى والتحليل العلمى لهذه الظواهر ٠ وهذه المداخل هى :

أولا : — المدخل الذى يصور المدينة على اعتبار أنها مجتمع محلى نموذجى ٠

ثانيا : — المدخل الذى يصور المدينة على اعتبار أنها مجتمع محلى يتميز بمجموعة مركبة من السمات ٠

ثالثا :— المدخل الذى يصور المدينة على اعتبار أنها امتداد للقرية ٠

ومع ذلك فنحن نلاحظ منذ البداية أن هذا المداخل الثلاث تتداخل

---

(١) راجع المقدمة التى كتبها دون مارتنديل لكتاب « المدينة » لماكس فيبر ، وفيها يستعرض نمو نظرية المدينة ، فيعرض للنظرية الأمريكية المبكرة ويتبع نمو أقسامها بالأخص الاتجاه الايكولوجى والاتجاه النفسى الاجتماعى ثم ينهى مقدمته بفكرة موجزة عن النظرية الأوربية ، واسهام ماكس فيبر :-

Max Weder; The City : Trans. by Don Mattindale and G. Neuwirth; 1958 PP. 9 - 62.

معاعند محاولة أحد علماء الاجتماع اجراء دراسة على المدينة ••• ومن الصعب على الناقد أن يتبين بوضوح أى مدخل فضلـه الباحث أو ركز عليه ، واننا نفضل الاشارة الى كل منها فى شىء من التفصيل لاعتبارات منهجية محددة تتصل بأسلوب تحليل الظواهر المتعلقة بالحياة الحضرية وبالتحضر عامة (١) •

أ ــ مدخـل التحليل النموذجى :

ينظر الى التحليل النموذجى باعتباره منهجا قائما بذاته ، ويتوصل اليه الباحث عن طريق تحديد الخصائص الملازمة لموضـوع أو ظاهرة معينة ، والوصول بها الى نهايتها المنطقية وصورتها الكاملة بغض النظر عن امكان تتبعها فى الواقع أو وجودها بصورتها المنطقية هذه فى مكان ما ولهذا فمن الصعب أنه نتلمس واقعا تجريبيا لهذه الخصائص •

وتبدو صعوبة تطبيق هذا النموذج على مدينة بعينهـا ذلك لأن الأسلوب الذى يمكن اتباعه فى الوصول اليه لايتم الا عن طريق التحليل المقارن لعدد كبير من الحالات ، أى المدن الأمر الـذى يطرح أمامنا مجموعة من الخصائص لانكاد نجدها فى مدينة على وجه التحديد •

وفائدة هذا النموذج اعتبار الحيـاة فى المدينة نمطـا محددا من الحياة ، كالحياة فى القرية أو الصحراء أو المجتمع البدائى •

قد مال الى هذا المنهج عدد من الباحثين الألمان من أمثال « تونيز » وخاصة عندما حاول أن يقارن بين ماسماه المجتمع وبين المجتمع المحلى وكان هدفه الأساسى هو المقارنة بين نمطين أو نموذجين للحياة هما فى

---

(١) اشير الى هذه المراحل بشكل عام يتناسب مع العرض النظرى فى الفصلين الأول والثانى •

الواقع النمط الذى يتركز فى الريف والنمط الثانى الذى يتركز فى الحياة الحضرية فى المدينة •

وقد فعل دوركايم عند دراسته لتقسيم العمـل ومحاولته تحديد العواطف والانفعالات والمظاهر النفسية التى تشكل قاعدة التضامن فى نمط مجتمعين ، يقوم أحدهما على نموذج التضامن الآلى • ويقوم الثانى على نموذج التضامن العضوى ، وكذلك فعل « روبرت ردفيلد » عندما أراد أن يعقد مقارنة بين النمط النموذجى للفولك ، وبين النمط النموذجى للمجتمعات الحضرية (المدينة) ، وقد عرف الفولك كمجتمع بأنه المجتمع الصغير المتجانس المنعزل الذى تسوده الأمية [1] •

وهكذا نتبين أن النمط النموذجى للمدينة محاولة لرسـم صورة الخصائص العامة الملازمة للحياة الحضرية التى توجد دائما فى المدينة •

ومن الواضح أن مثل هذا النموذج لايمكن التوصل اليـه عمليا ، نظرا للاختلافات الواضحة بين أنماط المدن فى الواقع ، من حيث الحجم والتاريخ الثقافى الاجتماعى والوضع الاقتصادى وتقسيم العمل وطابع التوجيه الايديولوجى العام للمجتمع بأسره ، والفكرة فى هذا المنهج هى محاولة الارتفاع فوق مستـوى الجزئيات الواقعية أو فـوق مستوى الوصف المجرد الذى يقع فيه البعض للوصول الـى مستوى التجريد لاقامة نظرية •

---

(١) أنظر فى ذلك كتاب تونيز الـذى ترجم الى الانجليزيـة بعنوان Community and Association وكتاب دوركـايم عن تقسيـم العمل الاجتماعى وكذلك مقالة روبرت ردفيلد عن The folk Society وراجع كذلك ما كتب بالتفصيل عن هذا الموضوع فى الفصلين الأول والثانى من هذا الكتاب •

ولكن امكانية الاستفادة من هــذه الخصائص فى دراسة واقعية تصبح محل شك نظرا لما سبق من اعتبارات •

٢ ــ مدخل مركب السمات :

وهو متصل بالمدخل الأول أى المدخل النموذجى •• وكل الخلاف يقع فى أن مدخل مركب السمات يستخدم صفات ملموســة أو متغيرات يمكن ادراكها فى الواقع ، كما أن ايراد هذه الصفات أو المتغيرات يكون بصورة يفهم منها أنها مرتبطة أحدها بالآخر عليا •

ويلاحظ أن بعض التعريفات التى يستخدمها هذا المدخل ، تزعم أن ثمة متغيرا أصيلا تنبع منه كل المتغيرات الأخرى ، بمعنى أن الارتباط العلى هنا ارتباط متسلسل يبدأ من عامل واحد تعتمد عليه كــل العوامل الأخرى •

ومثال ذلك أن « سوروكن » و « زيمرمان » يعتبر ان هذا المتغير الأول هو المهنة بينما يفضل آخرون اعتبار الحجم أو كثافة مكان الاقامة عاملا اول كل على حدة [1] •

ويجب أن نلاحظ أيضا أن الاختلافات فى مجــال السمات اما أن ترجع الى اختلافات كمية أو كيفية حسب الأحوال ، ولذلك فان سوروكن وزيمرمان يريان أن الاختلاف المهنى بين المجتمعات الريفية والحضرية هونوع من الاختلاف الكيفى ، بينما ينظران الى كثافة مكــان الاقامة أو الى الحجم باعتبارها اختلافات كمية ، وعموما نستطيع القــول بأن السمات التى تستخدم فى تعريف مركب السمــات فى المجتمعات المحلية تعبر عن اختلافات كمية بين هــذه المجتمعات المحلية ؛ لأنــه يظهر أن

---

1) Sorokin and Zimmerman. Op. Cit., pp. 20 - 33.

الاختلافات الكيفية قليلة القدر نسبيا ، ولذلك لا يركن اليها كثيرا عند تحليل نوع الحياة الاجتماعية أو طابع المهنة أو الاختلافات الايكولوجيه. ومن استقراء ما كتب فى علم الاجتماع الحضرى حتى الآن نتبين أن الغالبية العظمى من علماء الاجتماع فى هذا الفرع لا يفضلون المدخل الثنائى الذى يقارن فى نفس الوقت بين الريف والحضر كما لا يفضلون استخدام الأنماط النموذجية للمجتمعات ولا التعريفات التى ترجع الى تحديد السمات المقارنة بين الريف والحضر .

ولعل أحد الأسباب الهامة التى تكمن وراء رفض هذه التعريفات انما يرجع الى الارتباط بين هذه السمات والخصائص النموذجية التى تبعد كثيرا عن الواقع من ناحية وعن مكان وصفها بدقة من ناحية أخرى ، كما أنه من الصعب عمليا استخدامها فى دراسة تجريبية عن أى نمط من أنماط المجتمعات على حدة .

٣ — مدخل الامتداد الريفى الحضرى .

أما المدخل المفضل فيدور حول اعتبار الريف والحضر امتدادا واحدا حيث يمكن أن نلحظ تدرجا مستمرا بين ما هو ريفى وبين ما هو حضرى ... الأمر الذى يمكن معه أن نضع كل مقومات الانسان ونتائج نضاله مهما اختلفت خصائصها فى أحد حلقات تلك السلسلة المتصلة والمترابطة . ولهذا نعتبر أن هذا المدخل الذى ينظر الى الريف والحضر على أنهما علامتين على طريق واحد مدخلا مختلفا الى حد كبير عن المدخلين السابقين .

نقـد وتقييـم :

ان مدخل الامتداد الريفى الحضرى يتضمن مجموعة من الصعاب العملية ، لأن أهم ما يثار فى هذا المجال ، هل الخصائص التى تعين هذا الامتداد متغيرة فى ذاتها . فاذا كان الأمر كذلك فهل تتغير المقاييس التى

تحدد هذه الخصائص تغيرا ملحوظا فى كل مجتمع محلى لا نستطيع من وراء هذا الاختلاف أن نعين امتدادا معينا لهذا المجتمع المحلى أو ذاك.. كذلك اذا كانت قيم هذه المقاييس تتغير بدرجة ملحوظة لكـــل مجتمع محلى • فهل نستطيع أن نقدر ونزن هذه المقاييس بطريقة تجعل لكـــل مجتمع محلى مكانا على هذا الامتداد ؟

اننا اذا تمكنا من الاجابة على هذه التساؤلات نستطيع أن نقـــدر فى نهاية الأمر القدر الريفى أو القدر الحضرى فى كل مجتمع محلى على حدة •••

ولكن هذه الأسئلة لم تلق اجابة واضحة فى تراث عـــلم الاجتماع وفى الدراسات التى تجرى فى الوقت الحاضر •• وقد حاول « مانير » أن يثير عدة موضوعات تتعلق بمدى صدق المدخـــل النموذجى المثالى والمدخل الذى أطلقنا عليه الامتداد الريفى والحضرى فى محاولة للحكم على مدى الفائدة من استخدام كليهما كاطار للدراسة خاصة فيما يتعلق بموضوع المجتمـــع الحضرى (١) كما حـــاول « دانكان » عـــن طريق استقصاءات تجريبية أن يختبر مدخل الامتداد الريفى والحضرى بطريقة معينة جعلته يقرر أن هناك تدرجـــا وخاصة فيما يتعلـــق بتغير أنماط السلوك فى المراحل المختلفة للامتداد الريفى والحضرى تمكنه أن يقدر فى نهاية الأمر أن التدرج فى حجم المجتمع المحلى يعتبر مقياسا لسلامة المدخل المسمى الامتداد الحضرى الريفى (٢) •

ان الحديث عن الحجم كوسيلة لتقدير خصائص الريفية والحضرية فى منهج الامتداد هو الأسلوب المفضل عند علماء الاجتماع الأمريكيين

---

1) Horace Miner, The folk - Urban Contimuum, In, Hatt & Reiss (eds). Cities and Societies 1961 pp. 22 - 34.

2) Otis Dudley Duncan; Community Size and the Rural - Urban Continuum, in Hatt and Reiss, Ibid, PP., 35 - 45.

الذين صرفوا جهدا كبيرا فى الدراسات الريفية والحضرية فى بلادهم • ومع هذا فنحن نعتقد أن الريف والحضر لايمكن رسمهما بصورة حاسمة لسببين أساسيين هما :

١ ــ أن كثيرا من المناطق الريفية فى العالم أصبحت تتلقى تأثيرات حضرية طفيفة لدرجة يمكن أن نقتفى معها أثر هذه التأثيرات فى حياة القرويين وفى نفس الوقت نستطيع أن ننسب اليها كثيرا من التغيرات التى تحدث فى البناء الاجتماعى القروى •

٢ ــ الدراسه المقارنة فى المدن فى الوقت الحاضر خصوصا فى البلاد النامية ك ج•م•ع تؤكد استمرار فعالية الرواسب القروية فى توجيه الحياة فى المدن الى جانب طبيعة وضع المدن فى بلادنا وسط الأرض الخصيبة تجعل سكان محيطها الخارجى دائما يقتربون أكثر من غيرهم داخل المدينة من الحياة الريفية من حيث المهنة أو من حيث طبيعة الحياة•

ونظراً لأن التجارب التى يجربها علماء الاجتماع الامريكيين تقتصر فى الغالب على الأنماط الريفية والحضرية الموجودة فى المجتمع الأمريكى . ونظرا للتقدم التكنولوجى الهائل فى تلك البلاد وللتغيرات العميقة التى حدثت نتيجة لذلك فى طبيعة المدينة والمجتمع القروى ، فقد يكون كلام كل من « ماينر » و « دانكن » له ما يبرره ، خصوصا أن الفرق الواضح بين الحياة الريفية والحضرية كما هو معروف فى المجتمعات القديمة ذات الحضارات القديمة ليس موجودا بنفس الدرجة فى أمريكا • كما أن القرية كمجتمع صغير بعدد سكانها وطريقتها فى الحياة أخذت تختفى تدريجيا من هذه البلاد بحيث يمكن القول أن ساكن المناطق الريفية فى أمريكا يتلقى تأثيرات حضرية أسرع وأكثف مما يتلقاه نظيره فى كثير من بلاد العالم •

ان الخصائص أو المتغيرات التى تحدد المجتمعات المحلية الحضرية

سوسيولوجيا تختار من بين أربعــة مجموعات كبــرى من الخصائص المرتبطة بالمجتمع المحلى وهى الخصائص التى نحددها على أنها :

١ ــ مجتمع محلى ايكولوجى أى مجتمع محلى يتفاعل فيه السكان تفاعلا مباشرا مع الأرض سواء بالنسبة لما تستطيع هــذه الأرض أن تنبته أو أن تخرجه من باطنها من معادن لأنه على أساس هذين المتغيرين تتوقف طبيعة نشاط السكان وطبيعة امتدادهم وقبولهم لتأثيرات معينة .

٢ ــ بناء ديموجرافى متميز ، ذلك لأنه اذا دققنا النظر فى البناءات الحضرية أو القروية فسوف نجد أن هذه البناءات تعتمد فى تعقدها أو بساطتها أو تنوعها على عدد كبير من الشروط منها على سبيل المثال :

أ ــ نظام التخصص　　ب ــ تقسيم العمل

جـ ــ حجم السكان　　د ــ الصورة التى وصل اليهــا التقدم

هـ ــ طبيعة المواصلات　　الكتنولوجى

وغيرها من الشروط التى تترك أثرا واضحــاً على شكــل البناء ومضمونه فى نفس الوقت .

٣ ــ شكــل متميز أو ذو صفات معينة للفعــل الاجتمــاعى أو التنظيمى . وهذا طبيعى نظرا لالتقاء هذه الخاصية مع ماسبقها مــن خصائص ، خصوصا اذا أدركنا أن الفعل الاجتمــاعى من حيث أبعاده وشدته أو كثافته يتوقف على عدد من الشروط تعكس طبيعة العــلاقات الاقتصادية والاجتماعية والتنظيم السياسى الى حد كبير فى المجتمع . كما أن تنظيم الفعل يخضع لاعتبارات كثيرة من أهمها :

أ ــ نوع الجماعات　　ب ــ أساليب الضبط الاجتماعى

جـ ــ مدى التقدم الذى بلغه التوجيه الاجتماعى أو الارشاد القومى فى هذا المجال .

٤ ــ مجموعة من القيم تعتبر بمثابة الموجهات الأساسية للسلوك الاجتماعى ويمكن النظر اليها على أنها نتيجة طبيعية للخصائص السابقة، لأن القيم الاجتماعية أو موجهات السلوك بصفة عامة تنبثق انبثاقا يترتب على ماسبق من الخصائص .

وهناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن الخصائص أو المتغيرات التى يستخدمها علماء الاجتماع لتحديد المجتمعات المحلية الحضرية ليست جميعا ذات قيمة متساوية فى خلق نظرية واضحة المعالم لتعريف ما هو حضرى ، ذلك لأنه توجد اختلافات ملحوظة بين المقاييس المتعددة التى يمكن أن تستخدم فى عمليات البحث الفعلية ، كما أن هناك اختلافات ملحوظه أيضا فيما يتعلق بالدرجة التى يمكنها أن تزودنا بمجموعة من التمايزات النظرية والتجريبية التى تسهل لنا توضيح الفروق الأساسية بين مختلف التجمعات الحضرية ... هذا الى جانب التناقض الذى يظهر عليها فى الزمان والمكان والنسبية الثقافية وارتباطاتها العلية أو علاقاتها المتبادلة .

مثال ذلك أن متغيرا مثل حجم المجتمع المحلى لايمكن أن نعتمد عليه كثيرا نظرا لما يطرأ عليه من تغير فى الزمان والمكان وما قد يبنى عليه من ارتباطات تتعلق بمعان كثيرة كالحرية أو التحيز الثقافى أو الصراع العنصرى أو التنقل الاجتماعى ، ومن المعلوم أننا اذا كنا بصدد اختيار مقاييس فلابد أن يكون لها نوع من الثبات النسبى الذى يجعلنا نتأكد من أن استخدام واحد منها لن يجعلنا نتخبط فى تحديد الأنماط الاجتماعية أو يؤدى بنا الحال الى الخلط بين نماذج متشابهة . وباستخدام أحد هذه المقاييس غير الثابتة تبدو لنا هذه الأنماط مختلفة تمام الاختلاف .

وفى السنين الأخيرة ظهر أن هناك عددا يتزايد من علماء الاجتماع يشتركون فى وجهة النظر القائلة بأن التزام نوع من المقاييس الصورية

أو الشكلية لتعريف الظواهر الحضرية يعتبر أمراً كافيا لمقابلـة تعريف المجتمعات المحلية فى ضوء العوامل الديموجرافية وحدها •

وما دام الأمر كذلك فان استخدام الطريقة الايكولوجية وهى التى تربط بين السكان والاقليم هى التى سوف تصلح فى تحـديد الانماط الحضرية ••• هذا الرأى الذى يتزايد الاهتمام والالتزام بـه يجعلنا نتخلص من عدد من الصعوبات التى تقابلنا فى مبدأ دراساتنا الحضرية ذلك لأن التفاعل الذى يتم بين السكان والأرض التى يعيشون عليها سيحدد الى درجة كبيرة حجم السكان وطبيعة نشاطهم وانقسامهم الى مجموعات وخصائص مميزة ، ويسهل لنا فى نفس الوقت استخدام مقاييس محددة لاختبار درجة الحضرية ومقارناتها بالطابع القروى للحيـاة فى أماكن أخرى طبق عليها نفس المنهج . وبذلك نتوقع أنه باستمرار الأخذ بهذا المنهج سوف تتضح الفروق الأساسية بين الأنماط الحضرية والقروية •

وعلى هذا تكون المدينة من الناحية السوسيولوجية طـابعا جديدا للوجود أو طريقة فى الحياة ويكون « ويرث » من أوائل الذين أشاروا الى هذه الحقيقة بتعميق هذا المعنى . وتعريفه المدينة فى ضوء المتغيرات الثلاثة المسئولة عن الاختلافات التى نجدها فى طريقة الحياة وهى كما أشرنا الى ذلك من قبل :

(أ) أعداد السكان الموجودة بصفة دائمة فى منطقة معينة •

(ب) الكثافة النسبية التى تظهر فى هذا المكان •

(ج) اللاتجانس الذى يلاحظ على السكان •

ولذلك تكون المسألة الرئيسية لعالم الاجتماع المهتم بدراسة المدينة أن يكتشف الصور المختلفة للفعل الاجتماعى وأنـواع التنظيم التى تستغرق هذه الصور •• وقد أثرت كتابات كل من سوركن وزيمرمان وروبرت بارك R. Park وسبايك مان وجورج سيمل ولويس ويرث ،

البحث فى ميدان المجتمع الحضرى لأنها تركزت حول عدد من الخصائص اعتبرت النتائج العملية المباشرة لعمليات التحضر .. فكلما زاد التحضر ازداد ما يلى فى رأيهم :

١ — الاختلافات الكيفيــه فى البناء المهنى والتعقــد المتزايد فى تقسيم العمل وفى نسق الترتيب الطبقى الاجتماعى .

٢ — التنقل المكانى والاجتماعى .

٣ — الاشتراك الاختيارى فى اهتمامات الجماعــات المختلفة أو الروابط أو المؤسسات ، وهذا يرجع الى تشابه المصالح أو الرغبة فى تمضية وقت الفراغ فى المدينة الكبيره بطريقة ايجابية .

٤ — العزل المكانى لمجموعات السكان نتيجة انقسام المدينة الى أحياء ، وتوزيع الخدمات بطريقة لاتجعل الأحياء فى حاجة مباشرة الى خدمات الأحياء الاخرى . وبهذا يمكن لسكان الحى الواحد أن يعيشوا حياتهم كلها فى هــذا الحى دون حاجة للارتبــاط العضوى بالأحياء الأخرى .

٥ — التساند الوظيفى داخل المدينة الكبيرة ، ويعتبر هــذا نتيجة مباشرة للتخصص وتقسيم العمل ، فجميع السكان ينقسمون مهنيا الى أقسام ويعملون فى أعمال تتجمع فى نهاية الأمر لتؤدى وظيفــة واحدة لجميع السكان من حيث حصولهــم على الضروريــات أو الكماليات فى الحياة .

٦ — اتساع نطاق العلاقات غير الشخصية وعدم وضوح الأدوار الاجتماعية ، لأن التفاعل الاجتماعى فى المدينة بناء على ما سبق يتم فى دوائر ضيقة للغاية ، ولا تمتد علاقة الأفراد فى العادة أبعد من المحيط الذى يتكون من علاقات المهنــة أو الصداقة أو الجوار ، وتعتبر هــذه النتيجة من أهم ما يتصل بالحياة الحضرية خاصــة فى مقارنتها بالحياة

القروية التى تعتمد أولا على العلاقات الشخصية والمباشرة ، كما أن بعض العلماء ينسبون الى هذه الزيادة المطردة فى هذا النوع من العلاقات وجود المشاكل الكثيرة التى تتعلق بالاضطرابات النفسية والعقلية والاحساس بالفقدان والضياع فى المجتمع الحضرى .

٧ — على الرغم من اتساع نطاق العلاقات غير المباشرة ، وعلى الرغم من قصر أبعاد العلاقات الاجتماعية فى نفس الوقت الأمر الذى يؤدى فى نظر بعض العلماء الى ازدياد مدى الاختلاف بين السكان ، الا أننا نعتقد أن هذا الأمر يؤدى الى زيادة مدى التشابه بالنسبه لجموعات تتزايد من السكان تتحد فى المصالح وتتشابه فى نفس مستوى المعيشة وفى طبيعة ما تصادفه من مشاكل وهو تشابه جمعى ينقصه الشعور المشترك المنظم .

٨ — كانت وسائل الضبط الاجتماعى فى المجتمعات القديمة أو المحدودة العدد تستند الى العرف والتقاليد السائدة ، واذن فهى تعتمد فى المحل الأول على اقرار الأمن والنظام وأعادة التوازن الى المجتمع على سلطان العلاقات المباشرة .

أما فى حالة المدينة الكبيرة التى تتميز بالعلاقات غير المباشرة فان التأكيد يزداد على الطرق غير المباشرة لوسائل الضبط الاجتماعى مما يدعو لزيادة أساليب الضبط القانونى لجميع أنواع العلاقات الاجتماعية .

٩ — يتزايد الانحراف عن المعايير ، فالمعيار ظهر أصلا أو وضع نتيجة اتفاق وملاحظة مستمدة من الجماعة المتشابهة ، ولما كانت المدينة من حيث بنائها الاجتماعى تتكون من مجموعات غير متشابهة فى أغلب الأحيان فالخروج على المعيار أصبح أمراً مألوفا نظراً للصراع الحتمى بين المعايير وعدم استطاعة خلق معايير شاملة أو كاملة لها صفة العمومية .

١٠ — يتضاءل التوجيه الثقافى العام وتسنح الفرصة للثقافات الفرعية بأن تصبح الاطار الحقيقى الذى يزود الأفراد بمقومات السلوك وبأهدافه فى نفس الوقت ... وبالتالى فان الوحدة الحيــة للحياة فى المدينة لايمكن الوصول اليها بسهولة الا عن طريق العمل الاجتماعى العام الذى تشرف عليه جهات مركزية .

هذه هى المسلمات البنائية والنتائج السلوكية التى تترتب علــى الأخذ بفكرة الحجم أى العلاقة بين السكان والمكان الذى سبق أن أشرنا اليه ولكن الاختبار العلمى الدقيق لهــذه العلاقات تجعلنــا نتشكك فى واقعيتها وشمولها .

أولا : لانه من الصعب أن نعثر على مقاييس اجرائية موثوق بها لهذه الخصائص .

ثانيا : لأنه ليست لدينا فى الوقت الحاضر مادة كافية من ثقافات مختلفة أو مراحل تاريخية محــددة تسمح لنا باختيار عموميــة هذه الاختلافات الملاحظة فى ثقافة بعينها أو فى مرحلة تاريخية محددة ، لأنه من المعروف أن نصف عدد المدن فى العالم موجوده فى بلاد وصلت الى درجة من التعليم والتصنيع وارتفاع مستوى الدخل وارتفــاع درجة التحضر مما يسهل علينا اختبار الظروف التى أكدها الكتاب السابقون بخصوص الحضرية ، أما الفروض التى انيطت بالمدن الواقعة فى البلاد الأقل تحضرا أو تصنيعاً فانها تصبح موضوعا للتساؤل ، كمــا أن أثر التحضر لايمكن قياسه عن طريق مقارنة الريف بالحضر أو حجم المكان والاختلافات التى تظهر فيه اذا تصورناه من خلال ثقافة معينة .

ان النقد الذى يوجه الى النتائج التى استخلصت من دراسات التحضر يمكن أن نركزه فى نقطة واحدة وهى استحالــة الوصول الى مقاييس واحدة مضبوطة يمكن على أساسها تقدير الارتباطات والتغيرات التى تترتب على وضع أو آخر سواء بالزيادة أو النقصان .

كما أن المقارنة بين المدن سواء من الناحية المعاصرة أو التاريخية لا يمكن أن يكون مستقيما ، نظرا لأن هذه المدن تقع فى ثقافات مختلفة تمام الاختلاف حتى أنه اذا تماثلت ثقافتان من حيث المقاييس المادية ، فمن النادر أن تتماثل أيضاً المقاييس الأخرى التى تتمثـل فى التنظيم الاجتماعى والاقتصادى •

وأبرز مثل على ذلك المقارنة بين مدن روسيا وأمريكا أو اليابـان حاليا فعلى الرغم من التشابه المادى بين هذه البلاد الثلاث فانـه يمكن القول بخطأ المقارنة بينها ، وبنفس الدرجة اذا قارنـا المدن الرومانية القديمة باليونانية أو المصرية القديمة •

تعريف المدينـــة :

عندما نحاول تعريف المدينة فاننا نواجه صعوبة متعارف عليها بين علماء الاجتماع ، وليست هذه الصعوبات خاصة باصطلاح المدينة وحده لان هناك عدداً قليلا من المصطلحات السوسيولوجية تحظى باتفاق خبراء التعاريف • ومن الملاحظ أن الكثيرين يدركون ماذا نعنى بكلمة المدينة ، ولكن أحدا لم يقدم تعريفا مرضياً •

المدينة من الناحية السوسيولوجية الفنية البحته عبـارة عن فكرة مجردة ، ولكن العناصر التـى تتكون منها ، مثـل الاقامـة والبناءات الداخلية ووسائل المواصلات ألخ •• عبارة عن موجودات مشخصة لها طبائع مختلفة • ولذلك فان مايجعل المدينة شيئا محدداً هو ذلك التكامل الوظيفى لعناصرها المختلفة على هيئة وحدة كلية • ومـع ذلك لايكون للمدينة وظيفة واحدة ، بل أن البحث قد أثبت أن لها عـدة وظائف ، وليس معنى هذا أن كل وظائف المدينة توجد فى كل المدن بلا أستثناء •

ولتوضيح فكرة اختلاف الوظائف فى المدينة ، نقـول أن الوظائف الأساسية تختلف باختلاف الزمان والمكان • ومثال ذلك أن وظائف مدينة

سنة ٥٠ تختلف عن وظائفها نفسها سنة ١٩٦٠ على الرغم من احتفاظها بالمكان الذى تقوم عليه وبنفس البناءات الداخلية التى كانت تحتوى عليها ، ولذلك يكون من الصعب أن نجد العامل الذى يميز جميع المدن ويجعل منها تجمعا انسانيا قائما بذاته خلال تاريخها الطويل الذى يمتد الى ستة آلاف عام . وربما كان من المناسب أن ننظر الى تعريف المدينة من الناحية السلبية ، على الرغم من أنه يمثل جانباً ضعيفا فى الدراسة الا أنه يمكن أن يقدم بديلا ممتازاً يمكن الاعتماد عليه ، ولتوضيح هذا الموقف سنحاول أن نلخص فى اختصار بعض المحاولات التى بذلت للوصول الى تعريف مرضى فى هذا السبيل .

١ — عرفت المدينة أحيانا فى ضوء اصطلاحات قانونية ، ذلك أن مكانا ما قد يطلق عليه اسم مدينة عن طريق اعلان أو وثيقة رسمية تصدر عن سلطة عليا ، ومع أن هذا التعريف واضح جداً الا أنه غير مرض ، لأن المكان لايكون مدينة بمجرد الاعلان ، لأن هذا لا ينطبق على كثير من المدن الموجودة فى كثير من بلاد العالم التى نشأت وتطورت دون اعلان رسمى أو دون صدور وثيقة بذلك من الجهات المختصة .

٢ — وتعرف المدينة أحيانا بطرق احصائية . وذلك مثل ما هو متبع فى الولايات المتحدة الأمريكية . حين يعتبر كل مكان به ٢٥٠٠ نسمة فأكثر مدينة ، وربما كان هذا التحديد العددى ملائما للاغراض الاحصائية ، الا أنه غير مفيد تماما من الناحية السوسيولوجية ، ومع ذلك فليس هناك اتفاق على هذا الصدد فى كثير من بلاد العالم . فمصر مثلا تعتبر أن أقل عدد ينبغى أن يكون موجودا فى المكان الذى يعتبر مدينة هو ١١ ألف نسمة ، ويترتب على ذلك أن التعريفات التى تنبى على أساس النظر الى كثافة السكان ينبغى أن تكون مرفوضة ، لأن كثيرا من القرى ربما يكون لها نفس كثافة المدن بل تزيد عنها فى عدد من الأحيان .

وقد حاول البعض أن يعرف المدينة على أنها المكان الذى أصبح

من الكبر بحيث لم يعد الناس يعرفون بعضهم بعضا ، ولكننا لا نعتقد فى صحة هذا التعريف لان كثيراً من المدن الصغيرة يعرف سكانها بعضهم بعضا .

نخلص من ذلك أن التعريفات التى تحاول أن تضع مقياسا واحدا لتحديد المدينة أو لتعريفها لم تقابل بنجاح ، الأمر الذى دعى كل من « سوروكن وزيمرمان ومونيه وسمبارت » الى القول بأن التعريف الصحيح للمدينة لابد أن يأخذ فى الاعتبار تعدد العوامل وأرتباطها (١). وليس معنى هذا أن اتجاههم فى التعريف مقبول دون مناقشة . ومثال ذلك أن مونية يعرف المدينة بأنها مجتمع كامل أساسه الجغرافى محدد بحجم سكانه . أو أن المكان الذى تشغله ضيق نسبيا اذا قورن بعدد السكان الذين يشغلونه ويعود مونيه بهذا التعريف الى التعريف الذى سبق رفضه ، والذى يجعل من كثافة السكان عنصرا أساسياً فى تمييز المدينة عن غيرها من التجمعات الانسانية . وأساس الخطأ فى هذا التعريف أنه يعجز عن ابراز الكثافة التى عندها يتحول المكان من محل للاقامة الريفية الى محل للاقامة الحضرية ، ويعتبر سوروكن وزيمرمان من أكثر من حاولوا تعريف المدينة وضوحا ، لأنهم جمعوا ثمانية خصائص يختلف بها العالم الحضرى عن العالم الريفى وهى :

١ — المهنة ٢ — البيئة ٣ — حجم المجتمع المحلى ٤ — كثافة السكان ٥ — تجانس أو لاتجانس السكان ٦ — التمايز والتشريح الاجتماعيان ٧ — التنقل والحركة ٨ — نسق التفاعل « عدد وأنماط الاتصالات » (٢) .

---

1) Sorokin & Zimmerman, Principles of Rural Urban Sociology, N. Y, 1929, p. 14.
2) Ibid, p. 11.

وربما كان التمايز والتشريح الاجتماعيين أبـرز ما يميز الطابع الحضرى ، نظر لما تتصف به المدينة من اختلافات شديدة من حيث المهن والمراكز الاجتماعية والاقتصادية ، الأمر الذى يجعلنا نقول ان المدينة هى أى مكان يعمل أغلب سكانه فى مهن متعددة غير الزراعة ومـا يتصل بها من شئون •

وعندما ينظر كثير من العلماء الآن الى الحضرية على أنهـا طريقة فى الحياة ، تواجههم صعوبة تجديد طبيعة الحياة فى المدن ، وفى هـذا الصدد يحدد « ويرث » عدداً من الخصائص التى تميز المدينة مـثل اللاتجانس واعتماد السكان الكبير بعضهم على الآخر ، والطابع الجزئى للعلاقات الاجتماعية ، والاتجاه الى استخدم العقل والتبرير المنطقى عند السكان ، ولعل اعتماد السكان فى المدينة بعضهم على الآخر هو أهم طابع يميز المدينة الحديثة الى جانب عدم احسـاس السكان الشديد باعتمادهم على الطبيعة ، والذى جعل علماء الاجتماع يلتفتون الى هذا الموضوع ، هو محاولتهم التفرقة بين طابع الحياة الريفية ، وطابـع الحياة الحضرية باعتبارهما يمثلان نظرتين مختلفتين للحياة ، فالريفى يعيش فى بيئة طبيعية يخضع لتقلباتهـا المختلفة ويكون معهـا علاقات دائمة ، وتقوم حياتـه الاجتماعية على أسـاس الانتماء الى وحدات صغيرة تعطيه كثيرا من مقومات حياته ، كما أن الطبيعة من ناحية أخرى تخرج الريفيين اخراجا واحـداً ، ولذلك فهم يتشابهون فى كثـير من خصائصهم النفسية والاجتماعية ، ومـن أجل هذا يكـون التجانس والاعتماد على الطبيعة من أهم مميزاتهم ، ويكون طابع حياتهـم هو الطابع القروى •

أما الحضرى فانه يعيش وسط بيئة صنعهـا الانسان ، وبالتالى يقل جدا احساسه بالطبيعة ، وفى مجال علاقاته الاجتماعيـة ينتمى الى أكثر من وحدة اجتماعية ولايشعر بالانتماء الشديد أو الولاء لأى منها ، ولذلك فسكان الحضر غيرمتجانسين يعتمدون على الانسان أكثر من اعتمادهم

على الطبيعة ، الأمر الذى يجعلهم غير متشابهين وفى حاجـة دائمة الى عمل بعضهم الآخر ، دون أن تكون هناك صلة مباشرة بينهم كأفراد . ولذلك فطابع الحياة عندهـم يختلف من حيث الأساس عن الطابـع الريفى .

لويس ويرث :

يقول لويس ويرث فى تعرض تعريفه للمدينة ان العالم المعاصر لم يعد هذا العالم الذى يتكون من جماعات صغيرة منعزلـة من الناس ينتشرون على رقعة واسعة من الأرض كما كـان سمنر Sumner يصف المجتمع البدائى،ان المظهر المميز لاسلوب حياة الانسان فى العصر الحديث ، هو تركزه فى تجمعات هائلة تقام فيها مراكز محددة تعمل على اشعاع الأفكار والممارسات التى نطلق عليها اسم المدينة .

ان الدرجة التى يمكن معها أن نطلق على العالم المعاصر ، مصطلح « الحضرى » لاتقاس بنسبة السكان الذين يعيشون فى المدن ، وهـذا يرجع الى أن التأثير التى تمارسه المدينة على الحياة الاجتماعية للانسان أكبر من معدل نمو السكان الحضريين ، لأن المدينة ليست مجرد المكان الذى يعمل فيه الانسان الحديث أو يأوى اليه ، بل لأنها المكان أو المركز الذى يضبط ويمسك بزمام المبادأة الاقتصادية والسياسية والثقافية .

ولما كانت المدينة نتيجة من نتائج النمو أكثر منهـا محصلة خلق . فانه من المتوقع أن التأثيرات التى تمارسها على أساليب الحياة لايمكن أن تلغى أثر الأساليب الأخرى التى كانت سائدة قبل ذلك . ولهذا فان الحياة الحديثة لاتزال تحمل طابع الحياة فى مجتمـع الفولك القديم ، وينعدم هذا التأثير فى الوقت الحاضر نتيجة مجموعة من الظروف مـن أهمها أن المدينة تنمو سكاناً نتيجة هجرة أعداد تتزايد اليها من المناطق الريفية ، وهؤلاء بدون شك لازالوا يحملون طابع الحياة فى القرية ، كما

أن أسلوبهم فى الحياة تظهر فيـــه التأثيرات القديمة للحيـــاة الريفية السائدة • اذن فنحن لا نتوقع أن نجد انفصالا بين النمط الريفى والنمط الحضرى فى الشخصية ••• ولهذا لايمكن النظر الى المدينة والريف على أنهما قطبان ينتظم حول أيهما كل الوجود الانسانى فاذا نظرنا الـــى المجتمع الصناعى الحضرى ، والمجتمـــع الريفى الشعبى عـــلى أنهما نموذجان مثاليان للمجتمعات المحلية فأننا نستطيع وفقا لذلك أن نحصل على منظور لأى تحليل للنماذج الأساسية للاجتماع الانسانى كما يظهر فى المدينة المعاصرة (١) •

أن التعريف السوسيولوجى للمدينة لابد أن يسعى لانتقاء عناصر الحضرية التى تميزها كأسلوب متميز للحياة الجمعيـــة للانسان • ولهذا فان وصف المجتمع المحلى بناء على الحجم ليس صائبا • وينطبق ذلك أيضاً على بعض المقاييس الاخـــرى مثل عدد السكان ، والامكانيـــات الفيزيائية المتاحة ، والنظم وأشكال التنظيم السياسى • ان أهمية هذه المقاييس ليس فى وجودها فى المدينة ولكن فى قدرتها على توجيه وتعديل وصياغة طابع معين للحياة الاجتماعية فى شكـــل حضرى • ان التعريف الحضرى الذى يمكن استخدامه ليس هـــو التعريف الذى يركـــز على الخصائص أو المتغيرات المشتركة بين كل المدن ، بل هـــو التعريف الذى يمكن أن يكشف اختلافاتها •

اذن يمكن تعريف المدينة للاغراض السوسيولوجية على أنها مـــ دائم للاقامة يتميز نسبيا بالكبر والكثافة يسكنه أفراد غير متجانسين

---

(١) Wirth; Urbanism as a way of life : in, Richard Sennett; Essays on the Culture of Cities, N.Y. 1969 pp. 143 - 149.

روبرت بـــارك :

المدينة عنده ليست مجرد تجمعات من الناس مع ما يجعل حياتهم فيها أمراً ممكناً : مثل الشوارع والمبانى والكهرباء ووسائل المواصلات ، كما انها ليست مجرد مجموعة من النظـم والادارت : مـثل المحاكم والمستشفيات والمدارس والشرطة والخدمات المدنية من أى نوع • أن المدينة فوق هذا كله اتجاه عقلى ، مجموعة من العــادات والتقاليد الى جانب تلك الاتجاهات المنظمة والعواطف المتأصلة فى هذه العادات والتى تنتقل عن طريق هذه التقاليد • ان المدنيـــه بمعنى آخر ليست مجرد ميكانزم فيزيائى أو بناء صنعه الانسان ، ذلك لانها متضمنة فى العمليات الحيوية التى تنظم الناس الذين يكونونها ، انها نتــاج الطبيعة وذات طبيعة انسانية على وجه الخصوص •

ان المدينة كما يقول شبنجلر لها ثقافتها الخاصة ، وهى بالنسبة للانسان المتمدن مثل المنزل بالنسبة للقروى •• لقد درست المدينة فى هذه الأيام من وجهة نظر جغرافيتها أو من وجهة نظر أيكولوجيتها • لان هناك قوى ذات فعالية خلال حدود المجتمع المحلى الحضرى ، أى خلال حدود أى منطقة طبيعية يسكنها الناس ، تعمل (أى الحدود) على خلق تجمعات نمطية منظمة من سكانها ونظمها ، والعلم الذى يبحث من أجل عزل ووصف هذه المجموعات النمطيه للناس والنظم التى تتعاون هــذه القوى على خلقها ، هو مانسميه انسانى ، فنميزه عن ايكولوجيا النبات أو الحيوان •

---

1) Robert Park, The City : Suggesstions for The Investigation of human behaviour in the Urban Environmet in : Richard Sennett (ed). Classic Essays on the Culture of Cities, N.Y., 1969, pp. 91 - 93.

ان وسائل الانتقال أو الاتصال التى تعمل على الوصول الى درجة كبيره من التنقل ، وتعمـل فى نفس الوقت عـلى تركيز أكبر للسكان الحضريين ، تعتبر مـن العوامل ذات الأهميـة الكبرى فى التنظيم الايكولوجى للمدينة •

ان المدينة ليست مع ذلك ، مجرد وحدة جغرافية أو ايكولوجية ، لأنها فى نفس الوقت وحدة اقتصادية ، والتنظيم الاقتصـادى للمدينة يقوم على تقسيم العمل ، ومما يعزز هذا الرأى ويعتبر فى نفس الوقت من الوجوه غير المفهومة فى المدينة هذا التصاعد الواضح فى المهن والحرف داخل نطاق السكان الحضريين •

والمدينة فى النهاية مكان اقامـة طبيعى للانسان المتمدن ، ولهذا السبب فانها تعتبر منطقة ثقافية تتميز بنمطها الثقافى المتميز •

جورج زيمـل :

لم يقدم زيمل تعريفا محدداً للمدينة ، ولكنـه ذكر أن المشاكل العميقة للحياة المدينة تنبع من مطلب الفرد أن يحافظ عـلى استقلاله وفرديته ووجودة فى وجه القوى الاجتماعية الهائلة وللتراث التاريخى والثقافة الخارجية وفى تكنيك الحياة • ان الحرب التى كـان يخوضها الانسان البدائى ضد الطبيعة من أجل الحفاظ عـلى وجوده الجسدى قد وصلت فى هذا الوقت الى آخر تحولاتها ، لقد حفز القرن الثامن عشر الانسان ليحرر نفسه من كل الروابط التاريخية فى الدولـة أو الدين أو الأخلاقيات أو الاقتصاديات ، ذلك لأن طبيعة الانسان الخيرة والمشتركة بين الجميع - يجب أن تنمو دون أن يعوقها عائق ، أمـا القرن التاسع عشر فالى جانب مزيد الحرية - الخ على مزيد من التخصص الوظيفى للانسان فى العمل ، لأن هذا التخصص يجعل الأفراد لايقارنون بعضهم ببعض فى الوقت الذى لايمكن الاستغناء عن رأيهم ، ولكن هذا التخصص

مع ذلك يجعل كل انسان يعتمـد مباشرة على أوجـه النشاط المكمله للاخرين .

ان أى بحث فى المعنى الباطنى للحياة الحديثة وما طرحته ، أو فى روح الثقافة يجب أن يحاول ايجاد دخل لهذا التعادل الذى تثيره بناءات مثل « المتروبولس » بين الفرد وبين المضمون الذى يفوقـه فى الحياه ولابد أن يجيب هذا البحث على سؤال هام مؤداه : كيف تكيف الشخصية نفسها فى عملية التوافق مع القوى الخارجيه .

ان زيمل يحاول أن يبحث الأسس السيكولوجية التى تكمـن وراء الطابع المتروبوليتى للحياة ، فيدرس التوترات والعواطف ونوع الذكاء الذى يجب أن يتمتع به الأفراد الذين ينجحون فى الحياة فى مثـل هذا النوع من المـدن الكبرى . لكنه يـدرس فى نفس الوقت التنظـيم الاجتماعى المتناهى فى التعقيد الذى يؤدى الى قيام الروابط والجماعات المتعددة التى تعتمد على تقسيم دقيق للعمل ، ويعتقد أن أهـم خاصية فى المتروبوليس هى امتدادها الوظيفى أبعد من حدودها الطبيعية (١) .

ماكس فيبر :

يعتبر فيبر من أوائل الذين وضعوا تعريفا محددا للمدينة حين يقول ان هناك عنصرا واحدا مشتركا بين التعريفات العديدة للمدينة ، هو أنها تتكون من مجموعة أو أكثر من المساكن المتفرقة ، لكنها نسبيا تعتبر مكان اقامة مغلق . وعادة ما تبنى المنازل فى المدن قريبة بعضها من بعض ، فيكون الحائط لصيق الحائط كما هو الحال فى هذه الأيام ، وليس الأمر بعيدا عن الدقة اذا تصورنا المدينة على أنها منطقة محلية ومكان يتميز

---

1) Kurt Wolf; The Sociology of Georg Semmel, London 1950, pp. 409 - 424.

بالمساكن الكثيفة مشكلا نوعا من المستوطنة شديدة الازدحام الى الدرجة التى يفتقد فيها الى التعرف المتبادل بين السكان . واذا كان هـذا هو التفسير فان المحليات الكبيرة يمكن أن تؤخذ على أنها مدن .

تعرف المدينة من الناحية الاقتصادية بأنهـا مكان اقامـة يعيش السكان فيه أساسا على التبـادل والتجـارة أكثر مما يعيشون عـلى الزراعة ، ومع ذلك فليس صحيحا دائما أن نطلـق على كل المحـليات مصطلح المدن اذا كانت طبيعة الحياة فيها تقوم عـلى التبادل والتجارة لأن بعض المستوطنات تتكون من عائلات تقوم أساسا بالتجارة مـثل القرى التجارية فى آسيا وفى بلاد أخرى من العالم . أن الشىء الذى يهتم به « ماكس فيبر » فى تحديد المدينة وجود سوق محليـة يشكل جزءا أساسيا من حياة الناس اليومية ولهذا فان المدينة عنده هى مكان سوق . ويدعم « ماكس فيبر » تصوره للمدينة عن طريق استعراض الخصائص المتعددة التى ميزت المدينة تاريخيا والتى يعتقد أنهـا كامنة فى طبيعتها فيركز من حيث فكرته الاقتصادية ، أو الطابع الاقتصادى للمدينة على انماط المنتج والمستهلك ، ويربط بين نمو المدينة وبين الزراعة كما يعرض للمفهوم الادارى والسياسى للمدينة ذلك المفهوم الذى يمكن تتبعه تاريخياً حيث كانت المدينة تمثل مراكز السلطة أو أنها كانت مكان اقامة الحاكم أو الأمير الذى يمارس من خلالها سيطرته على بقية أملاكه التى تقع فى الأرض الزراعية ، لذلك كانت المدينة مكان القلاع التى تمثل نقطة الدفاع الأولى عن الاقطاعيات القديمة (١) .

نمو المدينة :

لقد كانت الهجرة من الريف عاملا من أهم العوامل فى نمو المدن .

---

1) **Max Weber, The City (translated by Don Martindale and Gertude Neuwirth) N.Y., 1958.**

وقد لوحظ ذلك فى كل المدنيات الكبرى عبر التاريخ • والواقع أن كلمة التحضر تعنى التمدن ، ففى المدنيات الأولى : مصر والرومان واليونان، كان ازدهار المدن عـلامة القوة ، وكـان تدهورها يـدل على الضعف والانحلال • والذى يعنينا الآن هو البحث عـن الأسباب التى تؤدى الى نمو المدينة •

١ ــ تنمو المدن حين تستطيع جماعة فى مجتمع ما أو المجتمع كله، وضع اليد على مصادر الثروة بصورة أكثر مما هو ضرورى لحفظ الحياة ففى المدنيات القديمه كانت هذه المصادر تكتسب عن طريـق سيطرة الانسان على أخيه الانسان ، ولهذا فان نمو المدينة كان يقوم أساسا على الرق والعمل الاجبارى (السخرة) وجباية الضرائب عن طريق الطبقة الحاكمة أو المنتصرة • ومع ذلك فانه فى الأزمان الحديثة ظلت سيطرة الانسان عاملا أساسيا من عوامل نمو المدينة ولكنها الآن سيطرة مـن نوع آخر •• سيطرة الانسان على الطبيعة • وقد أمتدت هذه السيطرة خصوصا فى المجتمعات الغربية خـلال القرنين الماضيين حتى أصبحت المدن فيها تزداد حجما يوما بعـد يوم ، الأمر الـذى أدى الى سيادة الخصائص الحضرية فى النهاية فى هذه المجتمعات •

وقد كان لاستخدام الآلات الحديثة فى الزراعة آثار بعيدة المدى على المدينة ، فقد استطاع الانسان أن يستخدم أقل مجهود يدوى فى انتاج الحاصلات المختلفة ، مما أدى الى وجود أعداد ضخمة من الزراعيين بلا عمل ، وهؤلاء تحولوا بالضرورة الى المدينة • ولهم من ناحية أخرى مسألة حيوية بالنسبة للصناعة المتزايدة ذات المدن مراكز أساسية لها ، ولهذا كلمـا استخدمت الآلات فى الزراعة فى بلد ما ، زادت نسبة التحضر وزاد نمو المدن زيادة

ولم تكن الثورة الزراعية وحدها هى العامل الأساسى فى نمو

المدينة ، بل هى فى الحقيقة لاحقة للثورة الصناعية • فمنذ أن أكتشف البخار فى البلاد الغربية وأستخدمت قوته فى الصناعة ، والمدن تزداد نموا يوما بعد يوم • ولما أخذت حركة التصنيع تنتشر فى أوربا صاحبها بالضروره نمو فى حجم المدن ، والتصنيع يتضمن زيادة ملحوظة فى النشاط التجارى بوجه عام ، وهذا بدوره يؤدى الى الاسراع فى النمو والتطور ، وثمة وسائل مكملة للثورتين الصناعية والزراعية تظهر آثارها فى نمو المدن ، بوجه عام ، وهى تقدم طرق المواصلات وأزدياد الضغط على المدن الساحلية التى تستخدم كموانى أو كمراكز للمواصلات للداخل أو الخارج على حد سواء •

٣ — وقد أدى هذا التقدم الآنف الذكر فى هذه الميادين الى زيادة عامة فى عدد السكان والى ارتفاع مستويات المعيشة ، ولذلك أصبحت المدينة منطقة جذب اقتصادية ، الأمر الذى ساعد بدوره على نمو المدينة، وقد اقتضت ضرورات الحياة فى المدينة زيادة فى الكماليات لم يقتصر استعمالها على سكان المدن بل انتشرت فى كل مكان • ولهذا يشتد الطلب على منتجات المدينة سواء من الضروريات أو الكماليات ، بعكس الحال بالنسبة للطلب على منتجات المجتمعات الريفية ، وهذا بدوره يؤدى الى الاقلال من شأن منتجات القرية فى صالح منتجات المدينة ، وينعكس ذلك فى نهاية الأمر وفى الأمد البعيد على تطور المدينة • ولهذا يقال ان نسبة سكان الريف الى الحضر ليست مسألة اختيار وانما هى فى واقع الامر مسألة تحتمها الظروف الاقتصادية ، فالهجرة ، اذا أغفلنا الجوانب السياسية أو العنصرية تتجه دائما الى حيث تكون الظروف الاقتصادية حسنة وحيث تكون الفرصه ملائمة للكسب ورفع مستوى المعيشة بوجه عام • ولهذا ينبغى ألا تكون المدينة والقرية من هذه الزاوية موضع مقارنة ، لأن المسألة فى النهاية مسألة ظروف تمليها الضرورة الاقتصادية •

من المعروف أن السكان فى منطقة محددة قد يوزعون أنفسهم من خلال عمليتين متمايزتين :

الأولى : حركة نحو التمركز المركزى وتعرف فى علم الاجتماع بأنها العملية الاطرادية التى يتحرك السكان بموجبها مع مصادر الثروة نحو مركز مفضل وينشئون بعد ذلك علاقات تجعل من المكان الجديد منطقة عامرة بالحيوية والنشاط .

والثانية : حركة تعرف باسم « الانتشار نحو الخارج » وهى عندما يتحرك على أساسها السكان بمصادر الثروة نحو منطقة غير مأهولة ، أى يقيمون فيها عمرانا جديدا ثم ينشئون علاقات وثيقة بمركز الأصل .

هذا وتعرف العمليات الرئيسية فى حركة التمركز المركزى باسم « التحضر » ولذلك فالتحضر يعنى عمليـة التمركز السكانى التى عن طريقها تسجل نسبة السكان الحضريين بالنسبة لمجمـوع السكان فى منطقة معينة زيادات ملحوظة باستمرار .

ومعنى هذا أن الزيادة فى حجم المراكز الحضرية الفردية وفى عدد نقط التمركز الحضرى يمكن أن تحدث دون زيادة فى تحضر المنطقة ذاتها على الرغم من أن هذه التغيرات غالبا ما تكون مصاحبة لارتفاع نسبة السكان الذين يعيشون فى المدن .

وعلى الرغم أيضا من زيادة العمران فى كلتا الحـالتين ، الا أن نسبة التحضر فى النهاية لاتزداد زيادة فعلية ولاتحدث الزيادة الا عندما تكتسب المدينة أعدادا متزايدة تأتيها من الخارج لتشكل فوق الزيادة الطبيعية للسكان زيادة أخرى .

وهناك خمسة عوامل تستخدم لتفسير نمو المدينة ودرجة التحضر

فيها (١) • وعلى الرغم من أن كلا منها كانت له آثـاره على الامتداد الحضرى فى كثير من مراحل التاريخ ، الا أن الفترة التقريبية التى تبدأ منذ منتصف القرن ١٨ تشهد أوضح الآثار لهذه العوامل ، ومن المعروف أنه كان للتغير السريع الذى حدث لهذه العوامل أثر مباشر فيما نسميه الآن بالمجتمع الحديث الذى وضحت فيه معالم التصنيع والتحضر بصورة بالغة •

أولا : الثورة الزراعية :

هناك الأثر الذى تم نتيجة ما يسمى بالثورة الزراعية ، فالمدينة تتكون أساسا من أشخاص لا يرتبط عملهم ارتباطا مبـاشرا بالعمل فى الأرض ومع ذلك فان نمو المدينـة مرتبط ارتباطا لا مفـر منه بطبيعة الانتاجية الزراعية ، ذلك لأنه يلاحظ أنه فى حالة امكان انتاج فائض من مواد الطعام يصبح من الممكن الاستغناء عـن جانب من قوة العمل المستخدمة فى انتاج المواد الغذائية وتوجيهها نحو انتاج سلع استهلاكية أو رأسمالية ، وللقيام بأنواع من الخدمات التى تميز الحياة فى المدينة •

ويستخلص علماء الاجتماع نتيجة هامة فى هذا الصدد ، أنه كلما ازدادت الانتاجية مقيسة بالعامل الواحد فى النظام الزراعى ، ازدادت امكانية اعالة أعداد متزايدة من السكان الحضريين وخاصة من وجهة نظر مواد الطعام الضرورية •

ثانيا : الثورة التكنولوجية :

والعامل الثانى المسئول عن النمو الحديث للمدن وعن تحضر كثير

---

1) See, National Resources Committes, The Process of Urbanization : Underlying Forces and Emerging Trends. In Cities and Societies. (eds). by Hatt & Reiss, N.Y. 1961, p. 46. et Seq.

من المناطق فى كثير من بلاد العالم هو الثورة التكنولوجيه • ذلك أنه كان لاختراع الوسائل الفنية القادرة واستخدام الطاقة أثر مباشر على نمو الانتاج الكبير وقيام نظام المصنع الحديث الذى استطاع اجتذاب أعداد كبيرة من الناس سكنت بالضرورة فى مناطق صغيرة من حيث المساحه ولكن عالية جدا من حيث الكثافة بصورة لم يشهدها التاريخ الانسانى، ولهذا يميل علماء الاجتماع الى الربط بين المدينة الحديثة الصناعية وبين نظام المصنع الحديث ، فالمدينة الحديثة تحتاج الى وسائل لاعاشة السكان المتزايدين الذين يستطيعون بدورهم أن يقطعوا شوطهم فى الحياة دون حاجة الى العمل فى الأرض طالما سمح الفائض فى الانتاج الزراعى بذلك •

وحتى اذا لم يسمح الانتاج المحلى فى المواد الغذائية باعالة الاعداد المتزايده فى المدينة ، فان البديل يكون فى التبادل الدولى عن طريق المنتجات الصناعية مع الدول التى تتميز بفائض الانتاج الزراعى وحاجتها فى نفس الوقت الى الوسائل أو المنتجات التكنولوجية •

ولا يقتصر الأمر فى نمو المدينة على قدرة الانتاج الزراعى على تحقيق الفائض بل يعتمد أيضا على المصادر الطبيعية من المواد الخام التى تزود المصنع اما بالطاقة المحركة أو بمواد الصناعة ذاتها •

ويلاحظ أن المدينة التى تتخصص فى نوع معين من الصناعة لا يمكن أن تكفى العمال الذين يعيشون فيها ما لم يكن من الممكن ايصال منتجات المدن الأخرى المتخصصة فى أنواع أخرى من الصناعة لها عن طريق التبادل •

ثالثا — الثورة التجارية :

ان نمو الأسواق العالمية وطرق التبادل حسن من وسائل النقل

وزاد من حجم التبادل الأمر الذى سمح للمدن بالنمو فى ظــل ظروف كانت تمنع فى الماضى ظهورها أو نموها .

فالمدن التى تقع فى مناطق تبعد بعدا سحيقاً عن العمران وتتخصص فى نوع دقيق جدا من الصناعة أصبح من الممكن استمرارها بل وازدياد كثافة السكان فيها عن طريق التجارة ووسائل النقل الحديثة .

والنتيجة التى ترتبت على ذلك أن الفكرة القديمة وهى أن المدينة لكى تزدهر يجب اعتمادها على منطقة زراعية حولها أصبحت غير ضرورية اطلاقا فى العصر الحديث .

رابعا : الكفاية المتزايدة فى وسائل النقل :

اذا كانت المدينة تعتمد اعتمــاداً ضروريا على التجــارة بنوعيها الداخلى والخارجى فان الزيادة المستمره فى كفاءة وسائل النقل البعيدة المدى كالسفن والقطارات والسيارات والطائرات كان له أثر بالــغ جدا فى تطور المدينة نحو النمو المتزايد .

ونلاحظ هنا أن المدينة الكبــيرة تنطوى على أعداد غفــيرة من المتخصصين فى مهن مختلفة ولايمكــن الوصول الى تكاملهــم من حيث حياتهم الدائمة فى المدينة الا اذا كانت وسائل النقل الداخلى والخارجى مضبوطة الى أعلى درجة .

وقد فرضت هذه الضرورات نفسهــا على مجتمعات العــالم ، فالسيارات الكهربائية والنقل السريع والاهتمام بوسائل المرور وحركته داخل المدن ، أصبحت أموراً حيوية لتسهيل التحرك السريــع لأعداد السكان الكبيرة فى المدن .

خامسا : الثورة الديموجرافية :

من الواضح أن الثورات التى حدثت فى الزراعة والتجارة والصناعة ووسائل النقل تعتبر وجوها للثورة الصناعية ولكن يبقى عامل واحد هو مايسمى بالثورة السكانية أو الديموجرافية . وتعتبر هذه الثورة نتيجة حتمية للنمو فى العوامل السابقة .

ولا نستطيع أن نلحق الثورة الديموجرافية بالصناعة كما ألحقنا بها العوامل السابقة . لأنها تقوم كعامل له استقلاله الخاص بين العوامل المؤثرة فى النمو الحضرى .

ويقول علماء الاجتماع المهتمون بالبحوث الحضريــة ، ان قيــام المجتمع الصناعى الحديث أدى الى انخفاض ملحوظ فى نسب الوفيات فى الوقت الذى لم تسجل فيه نسب المواليد مثل هذا النقص . والنتيجة الحتمية لذلك زيادة لامفر منها لعدد السكان . كما أن تحليل الاحصاءات المقارنة للنمو السكانى فى القرون العشر الماضية يوقفنا على حقيقة بالغة الأهمية بالنسبة لعالم الاجتماع . وهى أن تضاعف سكان العــالم كان يستغرق ما بين ١٢٠ . الى ١٣٠ سنة . أما بعد القرن الثامن عشر حتى وقتنا هذا فالمدة التى يستغرقها التضاعف لاتزيد على ٥٠ عاما .

وربما كان هذا هو السبب فى الاهتمام الواضح بالمسائل السكانية فى كافة المجتمعات تقريبا ، وبالأزمات المتوقعة فى مواد الطعام والتشجيع المستمر للبحث العلمى فى هذا الصدد لاستنباط مــواد بديلة يمكن أن تكون لها نفس قيمة الموارد الطبيعية .

واذا حاولنا أن نطبق هذه القضايا الرئيسية المتصلة بعوامل النمو الحضرى وعملياته على مجتمعنا ، فاننا نلاحظ أن الثــورة الزراعية فى بلدنا لم تحدث تغييرا جوهــريا ، فاذا كان هــذا ملائمــا للتحليــل السوسيولوجى فى بعض البلاد الغربية نظرا لأن الزراعــة كانت حدثا

هاما بالنسبة لها فى وقت متأخر جدا عنا • فمن المعروف أن مجتمعنا من المجتمعات القليلة جدا فى العالم التى صنعت الحضارة بناء على اكتشافها للزراعة فى الوقت الذى كانت فيه أغلب مناطق العالم تكـاد أن تكون مقفرة تماما من السكان •

ولذلك فان عامل الثوره الزراعية لايعتقد أنه ذو فعالية فى تحليل النمو الحضرى فى مجتمعنا •• لكننا نستطيع أن نستخدم فى تحليلنا لنمو القطاع الحضرى عندنا المسائل المتصلة : باتساع سـوق العمل نتيجة لظهور فرص جديدة فى مجالات التجارة والصناعة ••• كما أن وسائل النقل السريع تعتبر من بين المسهلات الأساسية التى سببت نموا غير طبيعى فى المدينة المصرية • ومع ذلك يبقى أمر هام هو أن ثبات مساحة الأرض الزراعية فى بلادنا والزيادة الطبيعية فى السكان أدت الى احداث نوع من اختلال التوازن فرض نوعا من الحل جعل السكان يتحركون تلقائيا فى شكل هجرات متقطعة أو منظمة فى بعض الأحيـان الى المدن ومراكز الصناعة الكبرى •

تاريخ الاقامة الحضرية :

على الرغم من أن كل مدينة لها تاريخها ، الا أن تاريـخ الانسان يمكن أن يدون فى جانب كبير منه على أنه تاريخ المدن والحياة فى المدينة ذلك لأن المدن قد أدخلت عنصرا جديدا فى العمليـات التاريخية ، لأن الانسان قد خلق طريقة جديدة للحياة لاتعتمد على العمل فى الزراعة ، كما أن أصل ونمو وانتشار المدن قد أمكن تتبعه تاريخيا خـلال فترات متميزة من الزمان ، الا أن الدراسة التاريخية وجهت الباحث دائما نحو الاجابة على أسئلة مثل : متى واين وتحت أى ظروف ظهرت هذه المدينة أو تلك ، أو ، ماهوتاريخ هذه المدينة وماذا أسهمت به فى تاريخ المنطقة أو

العصر ؟ هل هناك نمو تطورى أو دورى فى التاريخ الانسانى مرتبط بظهور المدن أو نموها ؟

ان قيام المدن أو نموها مسألة يصعب أن نتتبعها بدرجة ملحوظة من اليقين لأسباب عديدة ومن ثم لانستطيع أن نتابع بتفصيل الاجابة على الأسئلة السابقة ... ذلك لأن كثير من الحقائق المتصلة بالمدن القديمة لها الطابع الأركيولوجى الى جانب أنها متناثرة وتصور صورا جزئية فى الغالب ، الى جانب أن كل المدن تقريبا فى كل المراحل التاريخية وكل البلاد لم تدرس بدرجة كافية من الدقة كما أن بعض المــدن غير معروف مثل مدن الشرق وكذلك المدن القديمة فى الحضارة الغربية .

ان بعض المدن القديمة المعروفة يقع فى الهند والصين على الرغم من أن هناك اتجاها للتفكير فى المدن القديمة فى ضوء اصطلاحات تاريخية معينة ومن ناحية جغرافية قد تقع بعض المدن القديمة فى السهــول أو الهضاب أو على ضفاف الأنهار مثل ممفيس وطيبـــة أو مثل بابلون وسمرقند .

معنى ذلك أن افتقارنا للمادة الوثائقية الكاملة التى تنطبــق على عصر ما قبل المدن أو عصر المدن فى القديم يؤدى الى أن أكثر الأوصاف التى نقرأها تاريخيا عن الحياة الحضرية القديمة أمكن التوصل اليها عن طريق الاستنتاج البحت ، كما أن مقارنة تلك المدن القديمـــة بمدن فى عصور سابقة يعتبر عاملا يفتقر كثيرا الى الدقة اذ لايؤدى الى نتائج صحيحة .

ان الظروف السابقة للمدن فى القديم كانت من النوع الذى يمكن معه قيام مجتمع محلى مستقل يعتمد على منطقة زراعية حوله لتزويده بالمواد الغذائية .

وثمة ملاحظة يجب أخذها فى الاعتبار وهى أن اختراع الانسان

للأدوات المساعدة التى كونت مكونات التكنولوجيا كانت سابقة على ظهور التركيز الحضرى وبالتالى على قيام المدينة .

أى أن الملاحظة التى نصل اليها من دراسة المعدات التى استخدمها الانسان كالعجلات والفئوس والمحاريثوالمواد المعدنية وحصد المحاصيل واستئناس الحيوان تثبت أنها ظهرت فى وقت سابق تماما على قيام المدينة بالمعنى المعروف . ومعنى ذلك أن هذه المخترعات كانت سابقة على قيام المدينة ، وبمجرد قيام المدن تتطور هذه الأدوات سريعا بحيث تصبح الحياة الحضرية مصدراً أساسيا لكل اختراع أو تقدم جديد لهذه الأدوات وبالتالى كلما ازداد التركز السكانى فى المدينة زاد فرصة ظهور المخترعات وتراكمها واتساع نطاق التكنولوجيا بالتالى .

الانماط المكانية والزمانية للمدن :

المدينة الحديثة ليست تجمعا لامعنى له من الناس والخدمات ، لأن كل ساكن من سكان المدينة يدرك بطريقة ضمنية أو غير رسمية أن هناك نوعا من النظام يحدد حركة السكان والسلع من المدينة أو اليها ولذلك تدرس الايكولوجيا الانسانية من بين ما تدرسه من أشياء كثيرة ، التنظيم المكانى والزمانى للمجتمعات الانسانية ... ويمكن أن ينظر الى هذا الموضوع بطريقة أخرى نطبق عليها مقاييس الزمان والمكان التى ينظر اليها على أنها المقاييس أو المصادر الأساسية التى عن طريقها تنظم العلاقات الوظيفية بين الجموع الكثيرة التى تسكن المدينة .

ويلاحظ الباحثون فى المجتمع الحضرى أن الأنظمة المكانية والزمانية للمدينة تكون نتيجة لمجموعة من العمليات الاطرادية من بين هذه العمليات أربع عمليات رئيسية تحدد النظام المكانى للمدينة وهى عمليات التركيز أو المركزية والفصل أو العزل والامتداد والانكماش أما النواحى الأولية للنظام الزمانى فهى الايقاع والتوقيت .

ويشير التركيز الى العملية الاطرادية التى عن طريقها يظهر موطن الاقامة وينمو أى أنها تصور التغيرات التى تحدث فى حجم التجمعات السكانية والتى تشمل فى العادة تغيرات فى كثافة موطن الاقامـــة ، فاذا كانت هذه التغيرات تشير الى فقدان السكان لكثافتهم فان هذا المظهر يشـار اليه عادة على أنه تخلخل ، ولهذا فان عمليـــات التركيز والتخلخل المشـار اليهما ينظر اليهما من زاويـــة أخرى على أنهما مظاهـــر لنواح متعددة فى اعادة توزيع السكان • ولهذا نستطيع أن نسجل فى مجـال اعادة التوزيع اتجاهات نمو التمركز داخل مناطق بعينهـــا أو الامتداد الى مناطق خارج نطاق المدينة المعروف ••• وهكذا نستطيـــع أن نتبين أن حركة التجمعات السكانية داخل المدينة لاتلتزم بأسلوب معـين فى كل المدن بحيث نستطيع أن نصل الى تعميم يمكن أن ينطبق عليها جميعاً وانما نكتفى بتعيين الاتجاهات العامة التى تحدث فى ظل ظروف متغيرة تماما •

وعلى أى حال فالمدن تمثل تركز السكان فى مواطن محددة للاقامة تتميز بكثافة عالية ، والسؤال الذى يثار فى مثل هذا الموقف ••• ما هى المساحة الجغرافية التى تتحرك فيها المدينة وخاصة فى أثناء توسعها ؟ وما هو الاتجاه الذى يأخذه هذا التوسع عادة ؟ كما أن هنـــاك تساؤلا يثار أيضا مؤداه : لماذا اختيرت أماكن معينة دون غيرها أما لاقامة المدن وانشائها من لاشىء أو للتوســـع فى بعض مناطق الاقامـــة المعروفة وتحويلها الى مدن قائمة بذاتها ؟ ويرتبط بهذه الأسئلة أسئلة أخرى عن العلاقة بين المدن وبين مناطق الاقامة الاخرى فى نفس المجتمع خصوصا تلك المناطق التى تتفاوت فى الحجم والكثافة السكانية •••

ان الأسباب التى من أجلها يقيم السكان فى منطقة بعينهـــا والتى يترتب على تلك الاقامة أنواع متعـــددة من النشاط تجـــرى فى المكان والزمان المعينين تعتبر من وجهة نظر الباحثين فى الاجتماع الحضرى غير مفهومة تماما ، نظراً لان المعلومات التاريخيـــة المتعلقة بنشـــأة المدن

وتطورها لاتزال فى درجة لاتسمح لنا بالتعميم أو اكتشـــاف الأسباب الحقيقية وراء كل اقامة أو أخرى •

ان المدينة كما ذكرنا لاتتكون فقط من مجرد تجمع سكانى لأن كل مدينة عبارة عن مجموعة متسانده من العلاقات الوظيفية كل منها يقتضى مجموعة متنوعه ومعقدة من الوظائف التى تدور حول نظام معين للانتاج والتوزيع والخدمات بحيث يمكـــن أن تقابل هذه الوظـــائف المتساندة احاجات المتعددة مهما أتسعت دائرتها •

وتسمى العملية الموحدة لهذه الوظائف والتى تجعل منها نمطا دائما باسم « المركزية » ذلك لان النمو الاصلى للمدينة لايتطلب تركز السكان فى مناطق غير زراعية فحسب بل يتطلب بجانب هذا نمو المناطـــق التى يمكن أن تتمركز فيها الوظائف اللازمة لحياة المدينة • وعادة يكون مركز المدينة الكبيرة أو الصغيرة هو المكان الذى تتمركز فيه أهم الوظائف (١)•

ولكن يلاحظ فى المدن التى تتسع فى الحجم وتكون منطقة متروبوليتيه أن تتعدد فيها المراكز المجمعة للوظائف وبالتـــالى يمكن أن يطلق عليها اسم المراكز الفرعية • ومثال ذلك أن تتخصص بعض المناطـــق فى نوع معين من النشاط دون الأنواع الأخرى ، وبالتالى يمكن تحديد المناطق

---

(١) هناك دراسات متعددة لموضوع « المركزية » فى المجتمع الحضرى من أهمها معالجة سارينـــين **Saarinen** المركزية من منظـــور اجتماعى ، اذ أشار الى حاجة السكـــان باستمرار الى التجمـــع والتمركز ، وقسم المركزية الى عدة نماذج هى : المركزية القهرية ، والمركزية التأميلة ، والمركزية الرأسية ، وأخـــيرا هناك مركزية مركزية ثقافية • أنظر :

Eliel Saarinen, The City, Its Growth, Its Decay, Its Future New York, 1958, pp. 175, 199.

الزراعية والتجارية والثقافية والترفهية أو التى تتمركز فيهـا أجهـزة الادارة والحكم .

أما التخلخل فانه يشير الى العملية المقابلة أو المعارضة تماما لعملية التركيز او بمعنى آخر الى تبعثر أو تشتت الوظائف .

وما دمنا قد تحدثنا عن المنطقة المتروبوليتية فاننا نشـير الى أن المدن ذات الطابع المتروبوليتى هى عبارة عن مراكز لمجتمعات محلية أكبر من الناحية الايكولوجية يطلق عليها اسم المنطقـة المتروبوليتية ولهذا ينظر لهذه المنطقة على أنها مركز للسيادة او السيطرة على منطقة واسعة مكونة من مدن صغيرة ويمكن أن ينضم الى نطاقها عدد من المدن الريفية والقرى أيضا .

لهذا يقال أن المركز المتروبوليتى هو مركز السيادة أو السيطرة اذا مارس نوعا من التاثير على عدد من المجتمعات المحليـة التى يمكن أن تدخل فى نطاقة (١) .

تصنيف المـدن :

هناك مخططات عديدة تدمها علماء الاجتمـاع الحضرى لتصنيف المدن . وسوف نحاول فيما يلى أن نتناول بايجاز هذه المخططات . الا

---

(١) هناك دراسة حديثة تناولت موضـوع السيطرة الميتروبوليتيـة والتكامل ، وأهم ما يتضمنه نمو المناطق الميتروبوليتية : تنظيـم السوق ، ونمو الصناعة ، وتنظيم النقل والاتصـال ، ثم تطور التنظيم التجارى . أنظر :

Rupert B. Vance and Sara Smith. Metropolitan Dominance and nitegr-ation, in Hatt & Reiss (eds), Cities and Societies N.Y, 1969 pp. 103 - 105.

أنه يجب قبل ذلك أن نشير الى علاقة هذه المخططات بالنظرية الحضرية، وهي علاقة ذات جانبين : فمن ناحية يعتمد مخطط التصنيف على مفاهيم تعتبر بمثابة العناصر التى تتألف منهـا النظريات ، ولهذا فـان هذه المخططات غالبا ماتختار من بين المفاهيم النظرية العديده أكثرها تحديدا وتداولا ، وأكثرها قدرة أيضا على الاشارة الى أوجه الشبه الهامـة . وجوانب الاختلاف ذات الدلالة بين الأشياء التى تعتبر موضع التصنيف ومن ناحية أخرى يلاحظ أن خطة التصنيف ليست نظرية فى حد ذاتها . ومعنى ذلك أنه اذا استطاع ويرث — مثلا — أن يقدم مخططا تصنيفيا يضم طائفة من مفاهيم علم الاجتماع الحضرى ، فليس معنى ذلك أنـه قدم نظرية فى علم الاجتماع الحضرى بالمعنى الدقيق لمفهوم النظرية . اذ أن النظرية لاتتطلب فقط مجموعة مفاهيم بالرغـم من أنها تمثـل مطلبا أساسيا ، وانما تقوم النظرية على الترابط بين هـذه المفاهيم ، بحيث تشكل جميعا مجموعة قضايا قابلة للاختبار والتحقيق .

وتختلف مخططات تصنيف المدن فى مدى استخدامها للمتغيرات ، فبعض هذه المخططات يميل الى الاستعانة بمجموعة كبيرة متداخلة من المتغيرات ، وبعضها الآخر يعد بسيطا من حيث أنه يستخـدم نموذجا واحدا من المتغيرات . وربما كان أبسط تصنيف هو ذلك الذى يرتكز على « الحجم » كمعيار أساسى ، موضوعى ، وقابل للقياس ، ولكـن نادرا ما يستخدم هذا المعيار علماء الاجتماع ، باستثناء دراساتهـم للفروق الريفية الحضرية ، وبخاصة الأبحاث التى تميل الى معالجة هذه القضية معالجة كمية . وهناك مخطـط تصنيفى أيضا يرتكز عـلى المتغيرات الاقتصادية : فقد وضع بريز Breese تصنيفا للمدن قسمهـا الى مدن : صناعية ، وادارية ، واحتكارية ، وتجاريـة . كذلك صنف كارل ماركس المدن فى ضوء علاقات الانتاج فميز بين المدن التى تعيش فيهـا العبيد ، والمدن الاقطاعية ، والمدن الرأسمالية ، والمدن الاشتراكية . وتشترك كل هذه التصنيفات البسيطة فى خطأ عام يتمثل فى أنها تزعم أن

هناك عاملا وحيدا ، أو نظاما واحدا يسيطر على المدينة ، ويجعل لهـا طابعا مميزا ، بحيث يمكن الاعتماد على ذلك فى وضع مخطط التصنيف. بل انها تذهب الى أن هذا العامل لايعـد فقط ظرفا ضروريـا لوصف المدينة ، بل أنه الظرف الضرورى والوحيد • حقيقة ان نوع العمل أو النشاط السائد فى المدينة — الصناعة أو التجارة مثلا — قد يجعل لهـا طابعها الخاص ، لكنه لايؤثر فى كـل جماعاتها بنفس الطريقـة ، أو بدرجات متساوية •

وقد أمكن التغلب الى حد ما على هذه الصعوبة عن طريق استخدام مخططات تصنيفية تعتمد على مجموعة فئات ، وتأخذ فى اعتبارها أيضـا عامل الزمن ، مثال ذلك أن جوبرج Sjoberg قسم المجتمعات الـى ثلاثة نماذج : الفولك ، والاقطاعى والحضرى الصنـاعى • ويقول ان مجتمع الفولك صغير ، ومكتفى بذاته ، وغير متمدين ، ويفتقر الى تقسيم العمل الحقيقى « أو التكنولوجيا المعقدة ، ولايمكن أن ينبثق عنه بلدان أو مدن » أما المجتمع الاقطاعى الذى توجد فيه المدينة فى مرحلة ما قبل الصناعة Pre - Industrial فهو متمدين ، ولديه فائض زراعى باستمرار • وبالرغم من اعتماد هذا المجتمع على مصادر بشرية وحيوانية للطاقة ، فلدية طبقة عليا تعيش فى المدن • وتتميز هذه المدن بأنها أكبر حجما ، وأكثر كثافة ، ولاتجانسا ، وتضم فئة من المتخصصين فى الأعمال غير الزراعية ، أكبر من تلك الفئة التى توجد فى القرى • أمـا المجتمع الصناعى الحضرى فتوجد فيه المدينة الصناعية التى تعتمد على المعرفة الفنية ، وتستخدم مصادر متعددة للطاقة ، وتستعين بتنظيمات كبيرة الحجم (١) •

واذن ، فالمخطط الذى قدمه جوبرج يقوم أولا على تصور نماذج

---

1) Sjoberg, «the Pre - Industrial City», in Hatt & Reiss, Cities and Societies, N.Y, 1961, P. 172.

المجتمعات ، ثم تحديد طابع المدن التى توجد فى كـل نموذج من هذه النماذج ، وأهم ما أبرزه هذا التصنيف هو المدينة الصناعية ، ومدينة ما قبل الصناعة • وجدير بالذكر أن هاتين الفئتين اتخذتـا كنموذجين أساسيين للتصنيف • وهناك عدد من الدارسين الذين قسموا كل نموذج تقسيما داخليا ، ووضعوا مخططا خاصا لتصنيف كل منهما ، مثال ذلك أو هاوزر Hauser وصف نموذجين للمدينة الصناعية همـا : المدينة الصناعية الخالصه والمتروبوليتية •

أما تصنيف ويرث الذى وضعه للمدن الصناعية فقط ، فقد اعتمد على عدة متغيرات تضم : الحجم ، والموقع بالنسبة للمـدن الأخرى ، والوظيفة الاقتصادية ، والعمر ، أما المتغير الأخير فهو تقييم اقتصاديات تلك المدينة باعتبارها متوازنة أو غير متوازنة ، ناجحة أو فاشلة • ومن الضرورى أن نلاحظ أن ويرث أكد أهمية خاصية الحجم • وقد ينظـر الى الكثافة واللاتجانس باعتبارهما خاصيتين ضروريتين للمدينة ، ولكنهما ليسا من السمات الجوهرية لمختلف نماذج المدن •

أن تصنيف المدن الصناعية بالذات قد جذب اهتمام معظم الدارسين وبخاصة بحوث موزر Moser وسكوت Scott فى انجلترا وهادون Haddon وبورجاتا Borgatta فى الولايات المتحدة ومن العسير أن نربط هذه التصنيفات الامبريقية بالنظرية فى علم الاجتماع الحضرى ، اذ أن البيانات التى شملتها بيانات مفصلة وتقويمية ، ومستمدة مـن المصادر الرسمية ، يضاف الى ذلك أنها لم تشر الى أية نظرية محققة ، ومن ثم فهى بحاجة الى اعادة تحليل • وربما يكون الاسهام الرئيسى لها ، على المستوى النظرى ، هو تأكيدها للطبقة الاجتماعيـة ، كمتغير يستخدم فى تصنيف المدن •

أما فيما يتعلق بتصنيف مدن ما قبل الصناعـة ، فنجد أن ردفيلد وسينجر يقسمان هذه المدن الى نموذجين : مدن ادارية وثقافية ، وهى تضم تلك المدن التى نشأت أو تطورت بواسطة الحكومات الاستعمارية ،

والمدن التجارية . لكن ماكس فيبر قدم تصنيفا آخر لهذه المدن استعان فيه بمحكات متعددة منها موقع المدينة ، ومدى اعتمادها على غيرها من المدن . وأثر الحركات الاصلاحية ، وتطور ضواحيها ، والترتيب الطبقى الاجتماعى فيها ، وسيطرة المدينة على مصادر الموارد ، وأسلوب استغلالها للأراضى .

ويبدو أن مخططات تصنيف المدن غالبا ما تعالج مراحل عملية التحضر كاطار أوسع لتصنيف المدن ، فنجد لومبرد Lambard يميز بين اربعة مراحل فى عملية التحضر هى : الاصلية ، والوسيطة ، والكلاسيكية ، والصناعية . ثم يحاول بعد ذلك أن يصنف الفروق القائمة بين هذه المراحل أما ريزمان Reissman فانه ينظر الى عملية التحضر الصناعى باعتبارها عملية واحدة تتضمن أربعة مكونات أساسية هى : النمو فى حجم السكان الذين يعيشون فى المدن ، وتطور تنظيمات الخدمات ، وظهور طبقة متوسطة من المهنيين وأصحاب الأعمال ، ثم ظهور نوع من القومية أو الايديولوجية التى تؤكد المصلحة المشتركة لكل السكان ، والتى تعارض أى ولاء محلى أو طائفى ، وكل التقاليد القديمة . وتعتبر هذه العوامل هى الشروط الأساسية للتحضر الصناعى . كما أن النجاح فى التحول من المجتمع الاقطاعى الى المجتمع الحضرى الصناعى يعتمد على التوازن بين التغيرات التى تطرأ على هذه الشروط الأربعة . وبالرغم من القيمة النظرية والعملية التى تنطوى عليها محاولة ريزمان ، الا أنها تفتقر الى البيانات الواقعية ، التى يمكن الاعتماد عليها فى التحقق من صدق الفروض .

الفصل الخامس

مناقشة عامة

ان اتساع نطاق المدن فى العصر الحاضر وازدياد حجم بعضها الى درجة يمكن اعتبارها ظاهرة جديدة على خبرة الانسان جعل عددا منهم من المهتمين بالحياة الحضرية من منظور الدراسات العلمية التى تقع فى نطاق علم الاجتماع يحاولون تصور مشاكل هذه التجمعات الحضرية الكبرى من أجل الوصول الى سياسات يمكن أن تطبق بنجاح فى معالجة هذه المشاكل • ومن المألوف فى كتب علم الاجتماع الحضرى أن نجد معالجات للنظم الحضرية الكبرى ووسائل الاتصال المركزية وبناء القوة والأوضاع الطبقية والتنظيمات الحضرية الأخرى التى يعتقد أنها ذات طابع خاص ينبثق من الظروف المتصلة بطبيعة الوجود الحضرى • وهذا الى جانب دراسة المشاكل اليومية التى تميز دينامية الحياة الحضرية كمشاكل المواصلات والمرور ووسائل الضبط ومقاومة الانحراف وحصره وما الى ذلك من المسائل التى جعلت موضوعا كالتخطيط الحضرى الذى ينتمى الى نظم مختلفة يصبح جزءا هاما من الدراسة الحضرية من منظور علم الاجتماع (١) •

---

(١) راجع الملاحظات التمهيدية التى كتبها دون مارتندال فى مقدمة ترجمته لكتاب ماكس فيبر عن المدينة بحيث اهتم باستعراض نظرية المدينة فى الكتابات الأمريكية والأوربية والالمانية وحاول أن يبين مركز اهتمامها أنظر :

Don Martindale, «Preferartoiy Remarks : The Theory of City», in Max Weber, The City (translated by Don Martindale and Gertrud Neuwirth, N.Y, 1958.

ولعل هذا هو الذى جعل دراسة المدينة أو الحياة الحضرية مركز اهتمام ليس فقط بالنسبة لعلم الاجتماع ولكن أيضـا بالنسبة لعلوم كثيرة كالاقتصاد والسياسة وعلم النفس الاجتماعي والهندسة المعمارية. ومثال ذلك أن علماء السياسة ينظرون الى المدينة باعتبارهـا وحـدة حكومية تمارس فيها مجموعة من مظاهر القوة وتؤدى فيها واجبات من نوع خاص ؛ وقد استمد علماء السياسة مادة البحث فى المدينة المعاصرة من النظريات التقليدية عن دولة المدينة ، وأهمية المدينة فى نمو القانون الحديث ، والاهتمام اليومى بالبناء الادارى للحكومة الحضريـة ، ان المدينة بهذا تصبح من وجهة نظرهم كيانا مركبا لـه شخصية قانونية ونموذجا مصغراً للدولة ويسبق تاريخيا فى نموه الأمـة ، فضلا عن أن المدينة تمثل نوعا من توازن القوى بين المصالح المختلفة مما يترتب عليه فى نهاية الأمر تنفيذ سياسة تواجه مسائل النظام واقامة الطرق والمبانى وتحديد معالم القيم عن طريق أولئك الذين يناط بهم مسئوليـة ادارة المدينة . ويبدو اختلاف هذه المعالجة ومركز اهتمامها ، عندما نقارنها بمعالجة بعض علماء الاجتماع الذين يهتمون بالطابـع الجغرافى تحت تأثير المدخل الايكولوجى ، حيث تكون المدينة عبارة عن مجموع السكان غير المتجانسين الذين يتميزون بالكثافة العالية ، والذين يفصلهم بعضهم عن بعض اعتبارات تتصل بالثروة والأساس الثقافى . وعلى الرغم من أن الايكولوجيين المبكرين قد حاولوا فى تحليلهم للحيـاة فى المدينة أن يمزجوا بين النظام الايكولوجى وبين نظام أخلاقى معين ، الا أن نظرية علم الاجتماع الحضرى الحديثة قد أهملت الى حد ما الاهتمام بهـذا البعد ، لأن ما يوجهها الآن هو محاولة اثبات أن توازن المدينة يعتمـد على توازن ايكولوجى بين الجماعات الفرعية وما يترتب عليه من تقسيم للعمل (١) .

---

(١) راجع ما كتبه أولمن Ullman وهاريس Harris وجونسون وديكسون ودنكان عن الأنماط الزمانية والمكانية للمدن : أنظر :
Hatt and Reiss; Cities and Society, The Revised Reader in Urban Sociology, N.Y: 1961, Ch. 4.

ولعل الدراسات الاقتصادية كانت آخر من أسهم فى الدراسة الحضرية ودراسة المدينة بالذات ، حيث نظر اليها من خلال منظورين الأول أنها موطن المؤسسات والشركات الاقتصادية الكبرى والمكان الذى يمثل ثقلا كبيرا بالنسبة للاقتصاد القومى ، والثانى يتمثل فى محاولة بعض علماء الاقتصاد تصور المدينة على أنها وحدة اقتصادية تقوم العلاقات فيها بين مستوردين ومصدرين وبين متعاقدين فتبدو صورة المدينة على أنها سوق كبرى يدور محور النشاط فيهـا حول المسائل المتصلة بالاستيراد والتصدير ، ومعنى هذا أن الاقتصـادى ينظر الى المدينة على أنها مركز الانتاج والتبادل والتوزيع ، وبالتالى فان وحداتها الاساسية هى تنظيمات اقتصادية.أما تقسيم العمل فى المدينة الاقتصادية فانه يقوم على نوع من التخصص بين الشركات كما يقوم على المنافسة والتعاون ، واذن فالتوازن فى المدينة هو فى واقع الامر توازن تبادلى أو تجارى .

ان الصورة السابقة التى عبر عنها باحثون من مختلف التخصصات تعكس ليبرالية القرن التاسع عشر حيث تم تصـور المدينة من خلال اعتبارات اقتصادية وسياسية واجتماعية معينة كانت تعكس ظروف المجتمع الأوربى فى ذلك الوقت وبخاصة المستوى الـذى وصلت اليه الصناعة والحركة التجارية أما اليوم فقد فقدت هذه المداخـل أهميتها نتيجة للتغير الـذى أصاب بناء المجتمع الأكبـر ولازال يزداد بمرور الزمن . ومن ثم وضح أن « المدينة الاقتصاديـة » تمتد وتنتشر وأن المدينة السياسية تفقد ذاتيتها وتذوب اهتماماتها الخاصة فى السياسة القومية ، أما المدينة الاجتماعية فانها تصبح الآن شكلا غير متميز داخل الكل الكبير « المجتمع » أو هى بمعنى آخر أصبحت سياقا أو عينة من المجتمع الحديث . ويقودنا ذلك الى وجهة نظر أخرى عن المدينة تلك التى تطابق بينها وبين الأمة اللذين يأخذان معا الآن اسـم المجتمع الجموعى Mass Society هذا التصور الجديد لايسمح للباحث بأن

يجعل المدينة متميزة عن كل ما يميز المجتمع المعاصر ولايشجعه فى نفس الوقت على استقصاء ما يهتم به علماء الاجتماع الحضرى عـادة عند دراسة البناء الداخلى للمدينة • لان التغير الذى يحدث لساكن المدينة لايأتيه من المدينة مباشرة بل أنه يصل اليه نتيجة للتغيرات التى تحدث فى المجتمع ككل •

ان عددا كبيرا من علماء الاجتماع والمؤرخين لـم يستطيعوا أن يتجنبوا اصدار أحكـام ترقى الى مرتبة الايديولوجيـة عن المدينه ، فاورتيجا وشبنجلر ودوركايم وتونيز اعتبروا المدينة محصلة المجتمـع المعاصر ونهاية عملية طويلة من التغير الذى حدث للجماعـات الصغيرة والعشائر والقبائل والقرى وتحولها الى مجتمع ضخم • فأورتيجا مثلا يرى أن النظم التدرجية قـد تقوضت تحت وطأة ما سـماه « أمواج الديموقراطية الاقتصادية والاجتماعية » وتنبأ بقيام دولـة الجموع ، وأن الثقافة الغربية سوف تهلك عندما ينقض عليها الدهمـاء ، كما أن شبنجلر كما هو معروف تحدث فى كتابه عن « تدهـور الغرب » عن المستقبل المظلم الذى ينتظر الثقافة الغربية • أما دوركايم فقد تصـور أن المجتمع العنصوى « الحضرى » الذى يتوحد ويتضامـن بالاعتماد المتبادل من خلال تقسيم العمل يؤدى الى وحدة غير مستقـرة ، حيث يصعب الوصول الى الاتفاق والتضامن الذين يتحولان الى مشكلة بمرور الأيام ، هذا فى الوقت الذى أكد تونيز فيه أن العـالم الحضرى يحل بسرعة محل المجتمعات المحلية وأن الروابط بين النـاس أصبحت ذات طابع تعاقدى ، وأن الواجبات والحقوق قد انفصلت عن ارتباطها بنظام الجزءات الذى ساد المجتمع المحلى القديم زمنا طويلا •

لقد حاول كثير من علماء الاجتماع الأمريكيين أثناء الأزمة النقدية العالمية عام ١٩٣٠ ، أن يجمعـوا الدراسات المتفرقـة عن المشاكـل الاجتماعية فى اطار علمى واحد واعتبر « فرعا من علم الاجتماع » وهو

ميدان التفكك الاجتماعى (١) . وقد أرجع هذا المدخل كل « المشاكل » الى « مرض » أو قصور البناء الاجتماعى ، وفى نفس الوقت مال هذا المدخل الى اعتبار أن المجتمع السليم « الصحى » الذى يكشف عن « بناء اجتماعى طبيعى » هو مجتمع المدن الصغرى والمجتمعات المحلية القروية ، ومن أجل هذا فان استخدام « مدخل الامتداد الريفى الحضرى » كان — فى ناحية منه — محاولة لتنظيم وتفسير الجانب الأكبر من المشاكل الاجتماعية غير المتجانسة التى ترتبت على تغير المجتمع الأمريكى بسرعة مذهلة فى الاتجاه الحضرى . ان النظرة السطحية والسريعة التى عالج بها هذا المدخل عمليات التصحيح واعادة التنظيم ، قد أدت الى تصور المدينة كمكان تتركز فيه أنواع التفكك الاجتماعى المختلفة ، بحيث لم تترك مكانا للتفكير فى الاستقرار أو النظام أو الاصلاح .

ان قبول مثل هذه الصورة عن المدينة ، التى تتبناها عدد كبير من علماء الاجتماع الحضريين ، لم يكن منفصلا تماما عن الصورة الأخرى للمدينه ، وهى الصورة الايكولوجية . ومما دعم هذا الاتجاه . الاحصاءات التى جمعت وأظهرت بصورة « لاتقبل الجدل » ، تركز الجريمة والانتحار والطلاق وكل الأمراض الاجتماعية الأخرى فى المدن. كما أن الدراسات التى أجريت فى مدينة شيكاجو تحت اشراف روبرت بارك Robert Park ، قد أسهمت أيضا فى اعطاء أساس علمى وتحليلى لتأكيد أبعاد صورة « المدينة المشكلة » . ومما هو جدير بالذكر أن نظرية

---

(١) أوضح مثل على ذلك معالجة ميريل واليوت للتفكك الاجتماعى عام ١٩٣٤ حيث عالجا التفكك فى الفرد والأسرة والمجتمع المحلى وعلى مستوى المجتمع الدولى ، أنظر :

Mabel Elliott and Francis Merrill, Social Disorganisation, N.Y., 1961.

وكذلك معالجة روبرت فاريس لنفس الموضوع ، أنظر :

Robert Faris, Social Disorganization, N.Y., 1948.

لويس ويرث Louis Wirth عن « الحضرية كطريقة فى الحياة » التى أكدت ، الحجم الكبير والكثافة العالية ووجود جماعات غير متشابهة ، قد أخبرت بوضوح مجموعة أخرى من الخصائص المصاحبة . كاللاشخصية والعزلة وانهيار عضوية الجماعات الأولية وتغلب التنظيم الرسمى ، تلك التى تسهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فى خلق المشاكل الاجتماعية أو توسيع نطاق ما هو موجود فيها . ولهذا ، وعن طريق مد نطاق هذه الخصائص ، فانها يمكن أن تصبح خصائص المجتمع الجموعى المعاصر .

ويميل بعض الباحثين الذين يحاولون نقد أو تحليل الاتجاهات العلميه المعاصرة فى الدراسة الحضرية الى ربط الاتجاه السابق ، بما ترتب على الازمة العالمية النقدية سنة ١٩٣٠ مثل الفقر والبطالة والتوترات الأخرى فى كل مجال من مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية . ولهذا تحمل فكرة المجتمع الجموعى وصورة المدينة الجموعية الاعتقاد فى الحتمية المجتمعية التى تتقابل مع فقدان هذا الايمان « التلقائى » الذى كان سائداً فى قدرة الفرد . ان اخفاق الناس فى « التحكم فى التاريخ » بناء على ما عندهم من قيم أمراً واضحاً لكل من تعينه ملاحظة التغير الاجتماعى ، وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى كانت فيه الماركسية والأشكال الأخرى « للتطورية التاريخية » تحاول أن تجذب الانتباه الى نتائج هذا الاخفاق والى أنماطه المتعددة .

وفى العشر سنين التى تلت الحرب العالمية الثانية ظهرت مجموعة من الكتب الهامة التى تعالج المجتمع الجموعى والمدينة من وجهة نظر مختلفة ، حيث بدأت الصورة المفضلة تقترب أكثر من أى وقت مضى من « اليوتوبيا المبكرة » وهذا مثلما فعل « ديفيد ريزمان » و «هويت »

«سبكتورسكى» و«جون سيلى» و «وليم هولى» (١) فالفقراء على الرغم من أنهم مازالوا موجودين الا أنهم أقل بالمقارنة بمرحلة سابقة ،وقد أمعن بعض هؤلاء فى التفاؤل الى درجة القول بأن الفقراء سوف يختفون تماما من المجتمع .ومما هو جدير بالذكر فى هذا المجال أن كتابات هؤلاء العلماء لم تفرق كثيراً بين المجمتع الجموعى وبين المدينة التى تزداد فيها كثافة السكان بدرجة كبيرة .والفرق بين المعالجات الحديثة والمعالجات القديمة أن المدينة لم تعد مركزاً للجريمة والانحراف ، أو المكان الذى يمكن أن يهدد فيه النظام الاجتماعى نتيجة للاتجاهات الثورية التى تتزايد عند الجماهير ، بل أن المدينة بتنظيمها الحديث وامكانياتها العديدة قد أصبحت مكاناً أقل استجابة للثورة أو للجريمة وهذا فى رأيهم يرجع الى تزايد حجم الطبقات المتوسطة فى المدن . ويمكن أن نصف الصورة الجديدة بأنها صورة مجتمع يعتمد على اقتصاد الوفرة فى مقابل الصورة القديمة التى كان المجتمع الجموعى فيها هو مجتمع الحرمان ذلك لأن الخصائص الأساسية لهذا المجتمع تعتمد على التنقل الاجتماعى والاقتصادى وفرص أحسن وبصورة أسهل ، أو بمعنى آخر يضمن مثل هذا المجتمع لسكانه الحصول على السلع من السوق الكبير بصورة سهلة ومنظمة مع اتاحة الفرصه فى نفس الوقت الى اختيارات متعددة سواء فى الاستهلاك أو الاقامة أو التفاعل الاجتماعى أو الثقافى .

ويميل « ديفيد ريزمان » الى أن ينسب هذه الأنماط الى التغيرات التى تحدث فى تنظيم المجتمع الكلى ، ويحاول فى نفس الوقت أن يتتبع النتائج المرتبطة على ذلك فى المناطق النظاميه للعمل واللعب والنشاط السياسى وهكذا ، بينما يؤكد « هوايت » الطابع الجديد للبناء الاجتماعى

---

(١) راجع ما كتبه كل من : David Reisman et al, The Lonely Growd : Astudy of the Changing American Character, New Haveny 1950 William White, The Organization man, N.Y., 1956.

الذى يعتمد عليه العمل الحديث والنتائج المترتبة عليه بالنسبة للحياة الاجتماعية وطريقتها (١) .

لقد ظهر واضحا فى السنين الأخيرة أن كل الصـــور التى رسمها العلماء والباحثون للمدينة تحاول صياغة اطار من المفهومات ذات الصلات العلية المنطقية بعيدا عن القيم التى يؤمن بها أبناء المدينة أو حتى أبناء المجتمع بوجه عام ، لأنه وضح أن النظر الى المدينة من خلال ايديولوجية معينة أو قيمة بالذات يؤدى الى صورة قد لا يلاحظها الانسان العادى، ولكنها بالنسبة للباحث أو العالم لايمكن أن تعبر عن المتطلبـــات العلمية المفروض توافرها أو الواقع الامبيريقى كما هو ، ومثال ذلك أن بعض الصور لايمكن اختبارها وخاصـــة اذا كانت مسائل المجتمـــع ومشاكله وتطوره تخضع لقوانين طبيعية ، كما اتجـــه الى ذلك « شبنجلر » و « ماركس » « وأورتيجا » كما أن الاعتماد على الاحصـــاءات وحدها لايمكن أن يكون بديلا عن الدراسة المتعمقة عن طبيعة الادارة الحضرية والنتائج المترتبة على الحجم المتزايد والقيم المرتبطة بهذا كلـــه ، ولذلك فالاعتقاد السائد الآن ، أن الدراسة الحضرية تحتاج الى مدخل جديد يمكن أن يتخطى العقبات والصعوبات المتضمنة فى استخـــدام المداخل التى أشرنا اليها من قبل ، على أن يصلح فى نفس الوقت فى المعاونة على اقامة نظرية متكاملة لاتعتمد فقط على مجرد النتائج التى تشير اليهـــا الاحصاءات أيا كان نوعها ، هو اعتقاد له ما يبرره ، ومهما كانت طبيعة مدخل الدراسة فانه لابد أن يكون تجريديا ، ويتضمـــن سؤلا جوهريا يشير الى المقياس الذى يمكن أن يستخدم لادخـــال أو استبعاد بعض المسائل فى الدراسة ، لأنه ، كما وضح من قبل ، ثبت عدم صلاحية كثير من المداخل السائدة نظرا لعدم وضوح النطاق التى تتحرك خلاله ، ولا المسائل المحددة التى يتعين دراستها ، ولا العوامل الصالحـــة لتفسير

---

1) David Reisman, op. cit..

دينامية الحياة فى المدينة أو المشاكل الناجمه عنها . وفى هذا الصدد يمكن أن يستنار بفكرتين جوهريتين : الاولى ، أنه يجب أن تتضمن الدراسة ما هو ضرورى للتفسير الكامل للنظرية المستخدمة ، وهذا يعنى أن تكون الصورة المقترحة كاملة ، والثانى أنه يجب أن نحرص على ألا تكون هناك فجوة بين النظرية وبين السلوك الذى نركز عليه فى الدراسة ، وهذا يعنى أن تكون الصورة المقترحة قابلة للاختبار . ان تحليل المدينه بناء على النظر اليها كوحدة مستقلة ، الذى يعانى مــن نقيصتين هامتين عدم ادراك الصلة الضرورية التى تربط المدينة بالمجتمــع ، تتكون جزءا منه ، الى جانب عدم ادراك الأثر الذى يترتب على دينامية المجتمع فى نظم المدينة وأسلوب أدائها لوظيفتها ، وهناك اتجاه يتزايــد الآن بين علماء الاجتماع الحضرى يرى أن نظرية تقتصر نفسها عــلى المدينه ، تعتبر نظرية «ضيقة» تعجز عن تفسير الصورة المتغيرة للمدينة ذاتها (١).

لقد لاحظ عدد قليل من الذين يهتمون بدراسة المدينة والحضريه من خلال نظرية علمية ذات صلة وثيقة بنظرية علم الاجتماع ، أن أغلب ما كتب حتى الآن اعتمد على تجميع مادة ضخمة عن موضوعات متفرقة ومتعددة ، تفسر من زوايا متباينة ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أصبح من المألوف أن تضم الكتابات التى تظهر تحت عنوان عــلم الاجتماع الحضرى ، أعدادا هائلة من الجداول والرسوم البيانية التى تنتمى الى معالجات قد تكون أبعد ماتكون عن مركز اهتمام علم الاجتماع كنسق

---

(١) راجع ما كتبه فى هذا الموضـوع سكوت جرير ، أنظر :

Scott Circer, The Emerging City; Myth and Reality. New York, 1962

وكذلك ما اقترحه بيترمان كمحاولة لتعميق النظريــة وتوضيح الاطار الذى يجب أن ينطوى على مفهومات صالحة للبحث الحضرى من منظور سوسيولوجى مجدد : أنظر

Peter Mann; An Approach to Urban Sociology London. 1970.

علمي محدد يعمل من خلال اطار محدد من المفاهيم ، حتى أن القارىء أو الدارس يصاب بالسأم أو يفشل في نهاية الامر في التعرف على طبيعة الدراسة العلمية للمدينة من خلال نظرية علم الاجتماع ومنهجه ، ويبدو أن الاهتمام بدراسة المدينة وعرض مسائلها على هذا النحو لم يكن جديدا . اذ يمتد الى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ومع أن ردود الفعل التى حاولت ايجاد نوع من التفسير والتحليل قد تمت على أيدى رواد لهم شأنهم في علم الاجتماع . الا أن معالجاتهم لم ترقى الى مستوى اقامة نظرية متكاملة عن المدينة أو الحياة الحضرية . فتشارلس كولى مثلا حاول أن يفسر طبيعة المدينة ونموها من خلال التركيز على « المكان » الذى تقع فيه . وبعد أن استعرض أسباب قيام المدن الدينية والعسكرية ... الخ في الماضى ، حاول أن يبرز عنصر « النقل » كمحاولة لتوضيح عامل جديد له أهمية كبيرة في قيام المدينة في العصر الحديث . أما كتابات أدنا فيبر Adna Weber فقد حاولت أن تدرس العوامل الاقتصادية والسياسية التى تؤدى الى نمو المدينة ، الى جانب الاهتمام بموقع المدينة ودوره في نموها في محاولة لاثبات أن نمو المدينة واتساعها لادخل له بما لحق بهما من تخلف أو تدهور أخلاقى ، ومعنى هذا استبعاد أى موضوع يعالج من زاوية أخلاقية عند تحليل المدينة . والتركيز على أن كل القضايا التى أثيرت ، هى افتراضات قابلة للاختبار (١) .

ولكن مع بداية الاهتمام بعلم الاجتماع ، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ، كعلم مستقل يتخصص فيه دارسون وباحثون من خلال الانتماء الى أقسام مستقلة في الجامعات أو المؤسسات العلمية ،

---

(١) يعتبر كتاب أدنا فيبر من الكتب المبكرة التى عالجت نمو المدن ،
Adna Fernn Weber, The Growth of Cities in the Nineteenth Century, N.Y., 1899.

اصبحت المدينة موضوعا لمتطلبات من ثلاثة أنواع : الأول ، البحث عن وجهة نظر يمكن أن تسمح بمعالجة جانبين هامين فى الظواهر الحضرية. الجوانب الموضوعية « المكان والحجم » ، ثم الجـوانب الاجتماعية . والثانى . وجهة نظر موضوعية ، تسمح دون الوقوع فى أحكـام قيمية مسبقة ، بفهم ما هو متصل بموضوع الدراسة ، والثالث ، وجهة نظـر يمكن التوصل اليها من خلال الدراسة المباشرة لوقائع البيئة الحضرية. وقد أمكن دراسة هذه الموضوعات دراسة مفصلة ونشرهـا فى مقالات متتابعة وبحث ما أنطوت عليه من افتراضات بحثـا ميدانيا فى جامعة شيكاغو فى الفترة من عام ١٩١٥ الى عام ١٩٢٥ (١) .

ومن المعروف أن بارك صاغ الاطار العام للنظرية الايكولوجيـة فى المدينة،ومال الى اعتبار المدينة«المكان الطبيعى لاقامة الانسان المتمدن» وصورها من خلال ذلك ، انما « منطقة ثقافيه » لها « أنماط ثقافيـة » خاصة بها . وفوق ذلك ذكر بارك أن المدينة تخضع لقوانين خاصة بها ، ولأنها « بناء طبيعى » لاتستطيع أن تتجاوز حدود هذه القوانين الا فى أضيق مكان . وما ينطبق على المدينة ككل ينطبق أيضا عـلى أقسامها الفرعية . ومعنى ذلك بشكل آخر ، أن المدينة تمثل وحدة عالية التنظيم من حيث المكان . انبثقت وفقا لقوانينها الخاصة . ويرجع الفضل الى بيرجس فى تحديد التنظيم الخارجى للمدينة من حيث المكان الذى أصبح يميز النظرية الأيكولوجية . أما ابراز القوانين « الداخلية » فى المدينة فقد كان يعبر عن اسهام ماكنزى بوجه خاص .

---

(١) جمعت هذه المقالات والأبحاث فى كتاب واحد اعتبر بداية لاقامة نظرية منظمة عن المدينة ، ويمثل وجهـة نظر علماء الاجتمـاع الأمريكان : أنظر

Robert Park, Ernest Burgess and Roderick Mckenzie : The City, Chicago, 1925.

لقد عالج بيرجس نمو المدينة من خلال مفاهيم الامتداد أو الانتشار الفيزيقى والتمايز أو التباين فى المكان ، واقترح عندما كان يعالج الوصف الفيزيقى ، أن ينظر الى ظواهر النمو الحضرى على انها نتيجة للتنظيم والتفكك فى نفس الوقت ، ذلك أن التفكك هو مقدمة لاعادة تنظيم اتجاهات وسلوك القادم الجديد للمدينة ، ويحدث ذلك عندما يطرح جانبا وجهات النظر التقليدية المتعلقة بالاخلاقيات التى تعود عليها ، الأمر الذى يؤدى الى الصراع العقلى والاحساس بالضياع ، ومن أهم وجوه النقد التى أثيرت حول النظرية الايكولوجية ، أنها بدأت تحليلها من الطريق الخاطىء ، وذلك بتوجيه كل الاهتمام الى الجوانب الجيوفيزيقية للمدينة دون أن تهتم كأساس ، بحياتها الاجتماعية ، ان الحياة الاجتماعية هى بناء التفاعل وليست بناء الحجر والصلب والأسمنت والاسفلت ، وقد يكون الاهتمام بهذه المسائل مفيداً اذا كان الغرض منه التدليل به وبغيره على أنواع النشاط المختلفة فى المدينة التى يجب أن تعالج معالجة سوسيولوجية أساسا ، ومن الملاحظ أن كثيرا من الدراسات الايكولوجية عن المدينة قد خصصت كلية لاكتشاف خصائص المناطق المختلفة فيها — كالمناطق الطبيعية وأماكن السكن ، دون أدنى اهتمام بنوع الحياة الذى أدى الى ظهور هذه الخصائص ، ومثل هذا حدث عندما ركز الاهتمام على الجريمة ومسرحها دون الاهتمام بالمجرم نفسه ، ونتيجة لذلك ، فان كثيرا من الرسوم البيانية والخرائط والمعدلات الاحصائية وغير ذلك مما « تزدان » بها كثير من دراسات علم الاجتماع الحضرى ، تظهر فى سياق العرض أو التحليل لمجرد الظهور فقط .

وينصب النقد الثانى على « بدائية » وعدم أهمية المفهومات الأساسية ، التى عالجت بها النظرية الايكولوجية الموضوعات التى طرحتها ، مثل مفهومات التنافس والمركزية والتمركز والعزل والغزو والتتابع التى لخصها « ماكنزى » بوضوح ، ان الحياة الاجتماعية فى المدينة يمكن أن تعالج حقا فى ضوء هذه المصطلحات ، ولكن ليست هذه

هى القضية . لأن الصعوبة فى الواقع هى أن الحياة لايمكن أن تتحدد عن طريق هذه المصطلحات . لأنها لاتنطبق على الحياة الحضرية فحسب بل أنها يمكن أن تنطبق أيضا على الحياة الريفية ، كما أنها تنطبق على الحياة الاجتماعية فى الماضى والحاضر . وأكثر من ذلك فان هذه المفهومات قد تنطبق على الحياة الانسانية كما تنطبق على الحياة الحيوانية وحياة النبات . ومثال ذلك أن المرء لايمكن ان يعالج الزواج الأحادى من خلال الدافع الجنسى لأن هذا الدافع يمكن أن يفسر الجنس أيضا خارج نطاق الزواج الأحادى ، كما أن المرء يمكن أن يقرر أنه يأكل لانه جائع . ومع ذلك فانه لايمكن أن يفسر لماذا يتناول فى بعض المناسبات طعاما من نوع خاص ومشروبات لايتناولها فى حياته العادية ، ومعنى هذا أن التصورات الاساسية التى قامت عليها النظرية الايكولوجية غير كافية لاقامة نظرية محددة المعالم عن المدينة . يمكن أن تكون متميزة عن أى نظرية أخرى تعالج موضوعا آخر فى اطار النظرية السوسيولوجية العامة . كما أن هذه التصورات لم تكن كافية لتمييز النظرية السوسيولوجية عن النظرية الاقتصادية والسياسية أو حتى تمييز علم الاجتماع عن بعض فروع النظرية النباتيه (1) .

ويقوم النقد الثالث الذى ينبنى على النقدين السابقين على أساس أن النظرية الايكولوجية فى المدينة قد حذفت بشكل ملفت للنظر أو تجاهلت تلك المفهومات التقليدية فى علم الاجتماع عن الجماعات والنظم والبناء الاجتماعى ، ففى دراسة كل من « نلز أندرسون» و «لندسميث» عن المدينة لم يتعرضا للنظم الا بالقدر الذى يخدم تركيزها على المشاكل الاجتماعية ، ومع أن الكتب الحديثة فى علم الاجتماع الحضرى التى تتبنى منظورا أيكولوجيا قد اهتمت بالنظم ، الا أن أهتمامها لازال يحتل

---

1) Don Martindale, op. cit., pp. 24 - 30.

حيزا ضئيلا لا يتناسب مع بقية الاهتمام بمسائل أخرى أقل اتصالا بالمعالجة السوسيولوجية الصحيحة لمسألة المدينة .

لقد لوحظ أن الانسان يفكر ويشعر ويستجيب بطريقة مختلفة فى المدينة منذ وقت قديم ، قدم المدينة ذاتها ، ومن الخطأ الاعتقاد بأن الناس فى عصور مضت كانوا أقل ادراكا ، وأقل ذكاء مما نحن عليه الآن ، ذلك أن التراث التقليدى والشواهد القديمة تشير الى أن الانسان القديم قد أدرك وقيم الخصائص التى كانت للمدن التى يعيشها ، ومع هذا اذا أدرك باحث نمو المظاهر الحضرية فى ارتباطها بالمهن وبيئة المدينة فهذا شىء يختلف تماما من محاولة باحث آخر أن يجعل من ذلك المحور الأساسى للظواهر الحضرية وأن يبنى عليه كل التفسيرات التى يريدها . ان علم الاجتماع قد تبلور فى القرن التاسع عشر على يد مفكرين غير أكاديميين من أمثال أوجست كومت فى فرنسا وهربرت سبنسر فى انجلترا ولستر وارد فى أمريكا . وهؤلاء تمتعوا بالتصور الخلاق ، وكانوا بمثابة البنائين الذين أقاموا حقلا جديدا له مكانا بين حقول المعرفة الأخرى . وكان نجاحهم فى هذا الصدد مؤديا الى اعتراف أكاديمى مبكر بعلم الاجتماع ، ذلك الذى حدث فى أثناء حياة بعض هؤلاء الرواد (١) .

لكن سيمل ينتمى الى الجيل الثانى من علماء الاجتماع الأكاديميين. ولذلك فقد واجه هو ومعاصريه من المهتمين بعلم الاجتماع مهمة تختلف عما واجه الرواد الأول ، تتمثل فى الحاجة الى تحديد ميدان علم الاجتماع بشكل دقيق وبناء على مصطلحات محددة ، وتجنب الأساليب التى جعلت علم الاجتماع يتصارع مع العلوم الأخرى .لقد كان سيمل من

---

(١) راجع فيما يتصل بآراء جورج سيمل كتاب كيرت ولف أنظر :
Kurt Wolf (trans). The Sociology of Georg Simmel. 1955. pp. 409 - 424.

الناحية الفلسفية دارساً متمكنا لافكــار « عمانويل كانت » ويصـف سوسيولوجيا بأنه رأس مدرسة وصفت بأنها مدرســة كانتية محدثة . ودون الاغراق فى التفصيل . حاول العلم الاجتماعى من منظور الكانتية المحدثة . أن يحدد وبشكل دقيق العلوم الاجتماعية عن طريق المماثلة ببعض المسائل التى وردت فى فلسفة «كانت» ويتضمن ذلك اقامة نوع من التمييز العميق بين شكل ومضمون التجربة . أى أن العلوم الاجتماعية يمكن أن تصل الى اقصى درجة من التقدم والفهم وأن تكون لها قيمــة عامة اذا ركزت اهتمامها على دراسة الأشكال أو الصور ، وبناء على ذلك وجد « سيمل » أن مهمة العلوم الاجتماعية هى دراسة المــدى الشكلى لحياة الانسان المتفاعلة . وبالتالى تكون مهمة علم الاجتماع هى دراسة صور التفاعل الاجتماعى بعيدا عن مضمونها • واذا طبقنا هذا التصور على دراسة المدينة . فان الاهتمام بالتفاصيل الديموجرافية والخصائص الفيزيقية للمناطق والجوار . يصبح مضيعة للوقت وعملا يهبط الى مرتبة العبث • ان التحليل السوسيولوجى للمدينة لابد أن يتجه الى دراسة الصور النفسية للحياة الانسانية فى بيئة حضرية ؛ ومع ذلك فان سيمل يتفق مع كثير من الدارسين المحدثين فى أن المدينة تمثل محورا أساسيا بالنسبة لمصير الانسان الحديث . ويزعم أن أهم مشاكل الحياة الحديثة تنشأ من محاولة الفرد الاحتفــاظ بذاتيته وفرديته فى وجــه القوى الاجتماعية الهائلة التى تنبثق من التراث التاريخى والثقافة الخارجية وتكنيك الحياة • واذا أراد عالم الاجتماع أن يدرك تلك المشكلة فعلية أن يتفهم الأساس السيكولوجى فى الصور المتروبوليتية للفردية •

ومما هو جدير بالملاحظة فى هذ المجال أنه على الرغم من المفهومات ذات الطابع النفسى التى استخدمها بارك وبيرجســ ووبرث . الا أن تحليهم لها لم يأخذ الطابع الاجتماعى النفسى الذى كان واضحا عنــد المدرسة الألمانية ، لأن تأكيدهم المستمر على المنظور الايكولوجى جعلهم يتجنبون أى تفسيرات أخرى ، حتى فى الوقت الذى كان من الضرورى أن يستجيبوا باستمرار الى المشاكل الاجتماعية الناجمة عن تغير الحجم

والنمو وديناميات الحياة الحضرية ، واذا كان سيمل لم يفرد فى دراسته مؤلفا خاصا عن المدينة مثلما فعل ماكس فيبر الا أن كثيرا من الدراسات التى أجراها عن الجماعة والفرد والسيادة والتبعية والحياة العقلية وغير ذلك من الدراسات التى عنيت بالفردية وأبعادها ، قد أظهرت بوضوح موقفه الاجتماعى النفسى فى تحليل ظروف الحياة فى المدينة الحديثة . ويجب أن نشير هنا ، أن النظرية الاجتماعية النفسية عن المدينة هى مجرد مشروع محتمل وليست نظرية محددة المعالم ، ولهذا فان الاشارة اليها تصلح فقط لنقد الاتجاهات الاخرى مع ما فى ذلك من مخاطرة ، لأن معالجة نظرية تنطوى على مضمون اجتماعى نفسى فقط لتفسير وتحليل المدينة والحياة فيها يمكن أن يتعرض لنفس النقد الذى تعرضت الى تخلف البحث الحضرى بأكمله ، وهذا بالاضافة الى أن ما يقال عن له النظريات الأخرى مثل النظرية الايكولوجية التى حصرت اهتمامها فى جانب من جوانب الحياة الحضرية لايصلح للتحيل المتكامل من المنظور السوسيولوجى (١) .

خاتمـــة :

يواجه العالم اليوم عددا من المشاكل ذات الأهمية الكبرى بالنسبة للتحضر والحضرية ، الأمر الذى يفرض ضرورة دراستهما بعناية لأنهما يعبران عن عملية تحدث وتزداد نموا بمعدلات هائلة فى كل أنحاء العالم ومع ذلك فان هذه المشاكل تختلف فى صورتها ومداها باختلاف الأماكن، الا أنها جميعا تكشف عن طريق موحـد ، فاذا كانت عمليـة التحضر الديناميه ظاهرة عالمية فكيف اذن نعالجها معالجة سليمة ؟ ان أى وصف لأى منطقة حضرية يكون بلا معنى وبلا هدف أيضـا ، الا اذا انحصر البحث وتركز على العوامل التى لها قيمة فى زيادة فهمنا للبناء الاجتماعى والعمليات المتضمنة فى موضوع الدراسة . ولسنـا نتوقع مـن عالم

---

(1) Don Martindale, Op. Cit., PP. 30 - 42.

اجتماع مكلف بدراسة المجتمع الحضرى أن يبذل جهده كله فى دراسة ملابس السكان أو طريقة مشيهم أو لون عيونهم لأن مثل هذه العوامل ليست لها صلة واضحة بظاهرة الحضرية ، ومعنى ذلك أن عالم الاجتماع لابد أن يحصر نفسه فى مادة الواقع الحضرى التى تصلح للتحليل الذى لايمكن أن يؤدى الى نتيجة مثمرة الا اذا قام على استخدام منهجين أساسيين : هما المنهج المقارن والمنهج التاريخى . فاستخدام المنهج الأول نستطيع أن نختبر تأثير العوامل المتعددة اذا استطعنا أن نجمع مادة كافية عن أنماط متعددة من المدن وخاصة بعد أن وضح أن الاقتصار على تجربة حضرية واحدة تنتمى أو تنمو فى اطار محدد لمجتمع معين . أدى الى الوقوع فى أخطاء منهجيه وتحليلية عديدة ، كما أنه أدى أيضا الى تخلف البحث الحضرى باكمله . وهذا بالاضافه الى أن ما يقال عن نظرية أو أخرى كاطار للبحث ثبت أيضا أنه قول يحتاج الى مراجعة ، بل قد يحتاج الأمر الى رفضه كلية فى بعض الأحيان . أما بالنسبة للمنهج التاريخى فهو مكمل للمنهج الأول لأنه يعطى للتجارب الحضريه المقارنة والتى يمكن الوصول اليها بالدراسة الأمبيريقية عمقا زمنيا . لأن تتبع نمو المدينة ومعرفة خصائصها فى الثقافات المختلفة وخاصة التاريخية منها يكشف عن جانب هام من طبيعة الحياة فيها . ويبعدنا عن التصور الخاطىء الذى يدعى أن الحياة فى المدينة بخصائصها المعروفة هى نتاج للثقافة المعاصرة ، الأمر الذى يؤدى الى عزل طابع المدينة الحقيقى عن السياق التاريخى الذى تدعم أو اتخذ اتجاهات محددة من خلاله . ويبقى بعد ذلك أن يكون تصور المدينة كوحدة للدراسة غير منعزل عن تصور المجتمع الكلى ، لأن المدن لاتعيش داخل المجتمعات . كمجتمعات محلية مستقلة ، فقد ألغت وسائل الاتصال الجموعية الحديثة والمواصلات والاهتمامات القومية المختلفة تلك الفواصل التى كانت تقليديا تجعل المدينة لاتستجيب للتغيرات التى تحدث فى المجتمع ككل الا بعد فترة طويلة .

مراجع مختارة

1 Anderson, Nels, **The Urban Community** (N.J. Henry Holt & G. 1959).

2 Black C.E., **The Dynamics of Modernization : A Study in Comparative History** (N.Y. Harper and Row, 1966).

3 Bogue, Donald J. **The Structure of the Metropolitan Community** (Ann Arbor. Horace Rachham graduate school University of Michigan, 1944).

4 Bollens John C. and Schmandt. Henry, J. **The Metropolis**, (N.Y. Harper and Row, 1965).

5 Boskoff, Alvin, **The Sociology of Urban Regions** (N.Y. Appleton-Centure - Crofts, 1910).

6 - Breese, Gerald, **Urbanization in Newly devloped Countries** (Englewood Cliffs, N.J. Prentice - Hall 1966).

7 Burgess, E.W. (ed) **The Urban Community**, Chicago : University of Chicago Press, 1926.

8 - Charles Lomis & Allen Begle, **Rural Social Systems** (Englewood cliffs, W.Y. Printice Hall 1950).

9 - Davis, Kingsley, **The World's Metropolitan Areas** (Berkely University of Califomia Press, 1959).

10 Dickinson, Robert E., **City Region and Regionalism** (London Kegan Paul, Trench and Trubner, 1947).

11 Duncan, Otis & Reiss, Albert J., **Social Characteristics of** Civil and Urban Communities (N.J. John Wiley and Sops 1959).

12 Duncan etal, **Metropolis and Region (Balitmore**, Johns Hopkins University Press 1960).

13 Fisher Robert Moore, (ed), **The Metropolis in Modern life** (N.J. Doudleday & Company, 1955).

14 Fustel De Conlages, Numa Denis, **The Ancient City** (Boston : Lee and shepard Company, 1988).

15 Gist ; N.P., & Halbert, L.A., **Urban Society**, (N.Y., 1950).

16 — Guthind, E.A., **Urban development in Central Europe** (N.Y. The free Press, 1964).

17 — Hatt, K. Paul & Reiss J.A. **Cities and Society. The revised Reader in Urban Sociology,** (The free Press of Glencoe 1961).

18 — Hawely, H.A., **Human Ecology,** (W.Y. Ronald Press 1950).

19 — Hawley, Amos. H., **The Changing Shape of Metropolitan America** (N.Y. The free Press of Glencoe, 1956).

20 — Hunter, Floyd, **Community power Structure** (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1953).

21 — Jean Gottman, (N.Y The twentieth Centuty Fund 1951).

22 — Kurt Wolf, **The Sociology of Georg Simmel.** (London, 1950).

23 — Lynch Keirn, **The Image of City** (Cambridge, Mass. Harvard University Press, 1960).

24 — Lynd, Robert M. and Heleo, **Middletown in Transition,** New York, Harcourt, Brace & Co. 1937.

25 — **Maciver**, R, M. & Page C.H., **Society,** London, 1952

26 — Mann, H. Peter, **An Approach to Urban Sociology** (London, Routledge & Kegan Paul, 1970.

27 — Mckenzie, R.D., **The Metropolitan Community** (N.Y. Mcgraw - Hill, 1933).

28 — Morris, R.F., **Urban Sociology,** : No 2 (N.Y. Fredercirk A. Praeger, 1968.

29 — Mumford, Lewis, **The City in History,** (N.Y. Harcourt Brace, and World, 1961).

30 — Mumford, Lewis, **The Culture of Cities** (N.Y. Harcourt, Brace and World 1938).

31 — Murphy, Raymond, E., **The American City : An Urban Geography** (N.Y. Mcgraw - Hill, 1966).

32 — Nelson, Lowry, Ransey, Charles E. and others, **Community structure and change** (N.Y. Macmillan 1960).

33 — Osborn F.J. and Whittick A. **The Towns** (London 1963).

34 Oswald Spengler. **the Decline of the West.** (N.Y. Alfred A. Knopf, 1937).

35 Park, Robert E. **Human Ecology** (N.Y. The free Press, 1952).

36 Park, Robert, & Burgess E.W. etal. **the City** (chicago University of chicago Press, 1925).

37 Pirence Henri. **Medieval Cites : Their Origins and the Revival of** trade. (Princeton, University Press, 1925).

38 Quinn James, A., **Human Ecology** (Englewood Cilffs N. Y. Prentice - Hall, 1950).

39 Redfield, Robert. **The litle Community : Viewpoints for the study of a human whole. Chicago.** Universily of Ghicago Press, 1955.

40 Reiss Albert & Paul K. Hatt. **Reader Urban Sociology** (Glencoe, The free Pree Press, 1951).

41 - Reimer, S. **«The Modern City»** (N.Y. 1952).

42 Richard C. Wade, **«The Urban frontier»**, (Cambridge Mass, Havard University Press, 1959).

43 — Richard M. Morse, **From Community to Metropolis** (Gainesvlle, University of florida Press 1958).

44 — Richard Sennett. **Classic Essays on the Culture of Cities,** (N.Y Meredith Corporation, 1969).

45 Reisman, David etal.**The lonely Crowd : A study of the** Changing American Character, New Haven, yale University Press, 1950.

46 — Robert C. Wood. **Suburbia** (Boston : Houton Miffin Company, 1958).

47 — Scott Greer. **The Emerging City : Myth and Reality,** The free Press of Glencoe, 1962.

48 — Sjoberg, Gideon, **The Pre - industial Gity** (N.Y. The free Press of Glencoe, 1950).

49 — Smith. T. L., & Mcmaban C.S., **The Sociology of Urban life** (N.Y. 1951).

50 Sorokin, P.A. & Zimmerman, C.C., **Principles of Rural - Urban Sociology.** (N.Y. Henry Halt and Company 1929).

51 Stuart A. Queen and David B. Carpenter. **The American City** (N.Y. Mcgraw - Hill, 1953).

52 Theodorson, Geoge, ed. **Studies in Human Ecology,** (N.Y. Harper and Row 1961).

53 Thomas, W. I and Znaniecki, Florian, **The Polish Peasant in Europe and America, Boston** : The Gorham Press 1920.

54 Toennies, Ferdinand, **Gemeinschaft and Gesellschaft trans,** by Charles Loomis. (N.Y. 1910).

55 Nandiver S. Joseph and others (eds), **Urban Sociology Contemporary Readings,** (N.Y. Appleton - Century Crofts Meredith Corporation, 1910).

56 W.J. Perry. **The Growth of Civilization** (N.Y.E.P. Dutton, 1923).

57 — Weber, Adna F. **The Growth of Cities in the Nineteeth Century** (N.Y. Macmillan, 1809).

58 Webe Max «**The city**» trans. by Don Martindale (N.Y. The free press of Glencoe. 1958).

59 White. Leslie, A., **The Evolution of Culture.,** (N.Y. Mcgraw - Hill, 1959).

60 Whyte H. William. **The Organization Man** (N.Y. Simon and Schusrer, 1956.)

61 Wibberley. **Agricultural and Urban Growth,** London 1959.

62 Wirth. L. **Urbanism as a way of life,** A.J.S Vol 44 july. 1938.

63 Wirth, Louis, **Community life and Social Policy.** Chicago : University of chicago Press, 1956.

64 Wirth, L.. **Urban Communities,** A.J.S. 47 (May 1942).

65 Woodbnry, Coleman ed. **The Future of Cities and Urban Redevelopment** (Chicago, University of Chicago. Press, 1953).

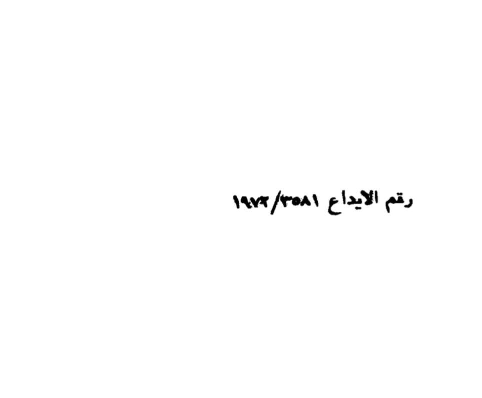
66 Zimmerman, Carle, C., **The Changing Community** (N.Y. Harper & Brothers. 1938).

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

الفصل الرابــع

الفصل الخامس



رقم الايداع ٣٥٨١/١٩٧٣

تم طبع الكتاب بعون الله وتوفيقه